الوسطية
في ضوء القرآن الكريم

الشيخ
ناصر بن سليمان العمر

المقدمـــة

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضل له ، ومن يُضلل فلا هادِيَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[1] (آل عمران : ١٠٢) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[2] (النساء : ١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾[3] (الأحزاب : ٧٠ ، ٧١) .

أما بعد :

فإنّ المتأمل في الواقع الذي تعيشه الأمّة اليوم يرى بَوْنًا شاسعًا في مشاربا وأهدافها ، واختلافًا في منطلقاتا وغاياتا .

يرى الإفراط والتفريط ، والغلوّ والجفاء ، والإسراف والتقتير : ﴿ وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴾[4] (الحج : من الآية ٤٥) .

هذا على مستوى الأمّة عمومًا ، فإذا انتقلنا إلى حال الدّعاة والمصلحين الذي أقض مضاجعهم هذا الواقع المؤلم لأمّتهم ، فطفقوا يبحثون عن سبل العلاج وطوق النجاة ،

---

[1] سورة آل عمران آية : ١٠٢ .
[2] سورة النساء آية : ١ .
[3] سورة الأحزاب آية : ٧٠ - ٧١ .
[4] سورة الحج آية : ٤٥ .

لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، ومن الضّلالة إلى الهدى ، نجد انعكاس واقع الأمة على حالهم ، فمنهم المشَرق ، ومنهم المغرب ، ترى المفرِط والمفرط ، نرى بين هؤلاء الدّعاة والمصلحين من غلا وأفرط في الغلّو ، فنشأت جماعات تكفير وهجرة ، وعادت سوق الخوارج رائجة ، وهناك من فرط وجفا ، وأضاع معالم الدّين وأصول العقيدة ، حرصًا على جمع الناس دون تربيتهم ، ففشا الإرجاء ، وانطمست معالم التوحيد ، وحقيقة العبادة .

وبين هؤلاء وأولئك وقفت فئة تقتفي الأثر ، وتصحح الطّريق ، وتدل الناس إلى الصراط المستقيم ، على منهج أهل السنة والجماعة ، وسلف الأمّة ؛ ينفون عن هذا الدّين غلّو الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتفريط الكسالى والمرجئين ، ودعاوى المنافقين والمرجفين . ووسط هذا الواقع المؤلم ، والاضطراب المهلك ، تشتدّ الحاجة إلى دلالة الأمّة إلى الصّراط المستقيم ، والمنهج العدل المبين ، لإنقاذها من كبوتنا ، وإيقاظها من رقدتنا ، وتبصير الدّعاة والمصلحين بالمنهج الحقّ ، والطّريق البين الواضح : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ [1] (الأنعام : من الآية ١٥٣) .

لقد وقفت طويلا عند مسألة الغلّو والجفاء ، والإفراط والتفريط ، وأدركت أن الأمّة بأمس الحاجة إلى منهج الوسطية منقذًا لها من هذا الانحراف ، الذي جر عليها المصائب والمشكلات .

ووجدت أنّ القرآن الكريم ، قد رسم لنا هذا المنهج في شتى جوانبه ، أصولا وفروعًا ، عقيدةً وعبادةً ، خُلقًا وسلوكًا ، تصورًا وعملا .

ولقد جاء منهج الوسطية من خلال القرآن الكريم في أساليب عدة ، تصريحًا وإيماءً ، مفصلا ومجملا ، خبرًا وإنشاءً ، أمرًا ونَيًا .

واقتناعًا مني بأهمية هذا الموضوع ، ومسيس الحاجة إليه ، فقد عزمت على الكتابة فيه ، وهذا يقتضي أن أعيش مع كتاب الله متأملا لآياته ، متفكرًا في دلالاته ، مستوعبًا لما كتبه المفسرون حول تقرير القرآن لمنهج الوسطية .

---

[1] سورة الأنعام آية : ١٥٣ .

القضية التي يعالجها البحث

مفهوم الوسطية وحقيقتها ضل فيها كثيرون ، وبيان ذلك كما يلي :

١- هناك من فهم أن الوسطية تعني التنازل والتساهل ، فإذا رأوا مسلمًا قد التزم الصّراط المستقيم ، وسار على هدي النبوة ، قالوا له : لماذا تُشدد على نفسك وعلى الآخرين ودين الله وسط ؟ ولذلك نجد في واقعنا المعاصر أن أكثر الذين يُرمَون بالتطرف والغلوّ وأخيرًا بالأصولية [1] هم من الذين التزموا بالمنهج على وجهه الصحيح .

ومن أسباب ذلك الجهل بحقيقة الوسطية .

٢- وفي المقابل نجد **فئة من المتحمسين** المندفعين ، يصفون أصحاب المنهج الحقّ ، الذين لم يوافقوا هؤلاء على أفكارهم ، ولم يسايروهم في حماسهم واندفاعهم يصفونهم بالتساهل والتهاون ، وعدم الغيرة ، بل وأحيانًا بالتنازل والممالأة .

ومنشأ ذلك - أيضًا - جهلهم بحقيقة الوسطية ، مع أنهم يدعونها ، لكنهم لا يفهمونها على الوجه الصحيح .

٣- وهناك فئة ثالثة ليست من هؤلاء ولا أولئك ، وهم حريصون على الالتزام بالمنهج الصحيح ، ولكنهم يقعون في أخطاء أثناء ممارستهم للدعوة قولا أو فعلا ، وسبب هذا الأمر عدم تصورهم لمنهج الوسطية تصورًا شاملا ، وقصرهم هذا المنهج على بعض آحاده .

٤- والنتيجة التي نتوصل إليها من ذلك كله أن هذا المنهج بحاجة إلى تفصيل وبيان ، لا لخفائه في ذاته ، بل هو أوضح من الشمس في رابعة النهار ، ولكن خفاءه من الأمور النسبية التي تعود إلى بُعد كثير من الناس عن منهج القرآن والسنة ، وضعف حصيلتهم العلمية ، وممارستهم التعبدية والدعوية .

والخلاصة أن هذا البحث معني بإيضاح مفهوم الوسطية ، وتحديد مدلولها في ضوء

---

[1] بعض من يطلق هذه الصفات ، يطلقها لأغراض لا تخفى ، والمشكلة أن هناك من يصدّق ما يقولون جهلا أو سذاجة ، أما الذين يتجاهلون فلا يعنيهم هذا البحث .

القرآن الكريم ، تعريفًا وتأصيلا ، وتحديدًا ، وتطبيقًا .

وهذا هو المعنى الشّامل الذي نفهمه من قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [1] (البقرة : من الآية ١٤٣) . فمن منطوق هذه الآية أنْطَلَقْتُ ، وفي ضوئها سرتُ وكتبتُ ، ومن مفهومها موافقة ومخالفة حققتُ وبينتُ .

وكنت أضع القضية التي جئت أعالجها نصب عيني في كل ما سطرتُ ودونتْ .

مخطط البحث

بدأت البحث **بتعريف الوسطية ،** واشتمل هذا المبحث على ما يأتي :

١- الوسطية في اللغة .

٢- استعمالات الكلمة في القرآن الكريم .

٣- أحاديث نبوية في (الوسط) .

٤- تحرير معنى الوسطية .

ثم انتقلت إلى مبحث آخر وهو **أسس فهم الوسطية ،** واشتمل على ما يلي :

١- مقدمة لهذا المبحث .

٢- الغلو والإفراط .

٣- الجفاء والتفريط .

٤- الصّراط المستقيم .

ثم عقدت مبحثًا لبيان **ملامح الوسطية ،** وتضمّن الحديث عن الملامح التالية ، بعد مقدمة المبحث :

١- الخيرية .

٢- الاستقامة .

٣- اليسر ورفع الحرج .

---

[1] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

٤- البينية .

٥- العدل والحكمة .

وأخيرًا ذكرت دليلا تطبيقيا يجمع هذه الملامح .

وهذه المباحث الثلاثة ، تعتبر أركانًا أساسية ، ومنطلقات منهجية لمعرفة حقيقة الوسطية في حدودها الشرعية ، بل إن مضمون تلك المباحث هو المعيار الذي نستطيع من خلاله أن نعرف هل هذا الأمر وسطًيا أو هو يتضمن إفراطًا أو تفريطًا ؟

وهي كذلك وسيلة للبحث عن المنهج الوسطيّ في كل قضية تعرض لنا ، فمن خلال تلك المباحث نخرج المنهج وننقحه ، ثم نحقّقه .

وبعد تحرير **تلك الأصول** والمنطلقات ، عقدت أهم مباحث الكتاب ، وهو بيان تقرير القرآن الكريم لمنهج الوسطية ، حيث بينت عناية القرآن بهذا المنهج ، وذكرت الأمثلة التطبيقية التي توضح ذلك ، وجاء هذا الباب مشتملا على المباحث التالية :

١- مقدمة توضيحية .

٢- وقفة مع سورة الفاتحة .

٣- منهج الوسطية في الاعتقاد .

٤- منهج الوسطية في التشريع والتكليف .

٥- منهج الوسطية في العبادة .

٦- منهج الوسطية في الشّهادة والحكم .

٧- منهج الوسطية في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

٨- منهج الوسطية في الجهاد في سبيل الله .

٩- منهج الوسطية في المعاملة والأخلاق .

١٠- منهج الوسطية في كسب المال وإنفاقه .

١١- منهج الوسطية في مطالب النفس وشهواتا .

وأخيرًا ذكرت بعض الشواهد المتفرقة التي تؤكد هذا المنهج وتبينه .

وختمت البحث بخاتمة مناسبة ربطت فيها بين الهدف والنتيجة .

وبعد :

فقد بذلت جهدي في إخراج هذا الموضوع ، فما كان فيه من حقّ وصواب فمن الله وحده ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ ﴾ [1] (البقرة : من الآية ٢٥٥) . ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ ﴾ [2] (النساء : من الآية ١١٣) . وما كان فيه من تقصير وخطأ فمن نفسي والشيطان ، وأستغفر الله .

فلله الحمد والشكر والمنة ، والثناء الحسن ، على فضله ، وتيسيره ، وإعانته ، وتوفيقه ، ثم أشكر كل من أسهم في إخراج هذا البحث سواء كان إسهامًا مباشرًا أو غير مباشر [3] فلهم مني الشّكر وجميل الدّعاء .

والحمد لله أولا وآخرًا . والحمد لله أولا وآخرًا .

إن تجـــد عيـــبًا فســـد الخلـــلا جـــل مـــن لا عـــيبَ فـــيه وعـــلا

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

الطائف

٢٦/ ٣/ ١٤١٣ هـ

(١) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .
(٢) سورة النساء آية : ١١٣ .
(٣) أشكر الجامعة بصفة خاصة حيث فرغتني لمدة عام مما مكنني من إنجاز هذا البحث .

تعريف الوسطية

الوسطية في اللغة

جاءت كلمة (وسط) في اللغة لعدّة معانٍ ، ولكنها مُتقاربة في مدلولها عند التأمّل في حقيقتها ومآلها .

قال ابن فارس : (وسط) : الواو والسّين والطّاء : بناء صحيح يدلّ على العدل والنّصف .

وأعدل الشيء : أوسطه ، ووسطه ، قال الله ﷻ ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [1] (البقرة : من الآية ١٤٣) .

ويقولون : ضربتُ وَسَطَ رأسِه - بفتح السين - ووسْط القوم - بسكونا - ، وهو أوسَطُهم حسبًا - إذا كان في واسطِة قومه وأرفعهم محلا [2] .

ومن هذا الكلام يتضح أن (وسط) تأتي بفتح السّين وسكونا ، وفتحها أكثر استعمالا كما سيأتي .

ويمكن إجمال المعاني التي جاءت تدلّ عليها هذه الكلمة فيما يلي [3] .

١- **(وسْط) بسكون السّين** تكون ظرفًا بمعنى (بين) ، قال في لسان العرب : وأما الوسْط بسكون السّين فهو ظرف لا اسم ، جاء على وزان نظيره في المعنى وهو (بين) ، تقول : جلست وسْط القوم ، أي : بينهم ، ومنه قول سوار بن المضرب : تكون ظرفًا بمعنى (بين) ، قال في لسان العرب : وأما الوسْط بسكون السّين فهو ظرف لا اسم ، جاء على وزان نظيره في المعنى وهو (بين) ، تقول : جلست وسْط القوم ، أي : بينهم ،

---

(١) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٢) انظر : معجم مقاييس اللغة مادة : (وسط) ٦/ ١٠٨ .

(٣) انظر تفصيل ذلك في المعاجم اللغوية ، ووسطية أهل السنة بين الفرق لمحمد باكريم - مخطوط - والوسطية في الإسلام لزيد الزيد .

ومنه قول سوار بن المضرب :

إنيّ كأنـي أرى مـن لا حيـاء له ولا أمـانـة وسْـط الـناس عُريانـًا[1]

قال د . زيد الزيد : وقد أشارت بعض المعاجم اللغوية إلى التفريق بين كلمة وسَط - بالتحريك - ووسْط بالسكون ، فقالوا : إن كل موضع يصلح فيه (بين) فهو بالسّكون ، وما لا يصلح فيه (بين) فهو بالفتح .

وقيل : كل منهما يقع موضع الآخر ، قال ابن الأثير في غريب الحديث : وهو الأشبه [2] .

وقال الزبيدي : وقديمًا كنت أسمع شيوخنا يقولون في الفرق بينهما كلامًا شاملا لما ذكر ، وهو السّاكن متحرّك ، والمتحرّك ساكن [3] .

٢ - وتأتي - وسَط بالفتح - اسمًا لما بين طرفي الشيء وهو منه ، ومن ذلك : قبضْت وسط الحبل ، وكسرت وسط القوس ، وجلست وسط الدّار ، وهذه حقيقة معناها كما ذكر ابن برّي [4] .

٣ - وتأتي - بالفتح أيضًا - صفة ، بمعنى خيار ، وأفضل ، وأجود ، فأوسط الشيء أفضله وخياره : كوسط المرعى خير من طرفيه ، ومرعى وسط أي : خيار .

وواسطة القلادة : الجوهر الذي وسطها ، وهو أجودها ، ورجل وسط ووسيط : حسن [5] .

٤ - وتأتي وسط - بالفتح - بمعنى عدل ، قال ابن فارس : وسط : بناء صحيح

---

[1] انظر لسان العرب مادة (وسط) (٧/ ٤٢٨) .

[2] انظر : الوسطية في الإسلام ص (١٧) ومختار الصحاح مادة (وسط) (٧٢٠) ، وغريب الحديث لابن الأثير (٥/ ١٨٣) .

[3] انظر : تاج العروس مادة (وسط) (٥/ ٣٤٠) .

[4] لسان العرب مادة (وسط) (٧/ ٤٢٧) .

[5] انظر : لسان العرب مادة (وسط) (٧/ ٤٢٧ ، ٤٣٠) ، والصحاح مادة (وسط) (٣/ ١١٦٧) ، ووسطية أهل السنة ص٢ .

يدلّ على العدل ، وأعدل الشيء أوسطه ووسطه .

وقال ابن منظور : ووسط الشيء وأوسطه : أعدله .

وقال الفيروزآبادي : الوسط - محركة - من كل شيء : أعدله [1] .

٥ - وتأتي (وسط) بالفتح - أيضًا - للشيء بين الجيد والرديء .

قال الجوهري : ويقال : شيء وسط : أي بين الجيد والرديء .

وقال صاحب المصباح المنير : يُقال شيء وسط ، أي بين الجيد والرديء [2] .

ومنه ما ورد في الحديث : ﴿ ولكن من وسط أموالكم فإنّ الله لم يسألكم خيره ، ولم يأمركم بشرّه ﴾ [3] [4] .

٦ - ويقال (وسط) لما له طرفان مذمومان ، يراد به ما كان بينهما سالمًا من الذّم ، وهو الغالب .

قال الراغب : وتارة يُقال لما له طرفان مذمومان [5] .

ومثال ذلك : السّخاء وسط بين البخل والتّبذير ، والشّجاعة وسط بين الجبن والتهور [6] .

قال محمد باكريم [7] وكيفما تصرّفت هذه اللفظة نجدها لا تخرج في معناها عن معاني العدل والفضل والخيرية ، والنصف والبينية ، والتوسط بين الطرفين ، فتقول : (وسوطًا) :

---

[1] انظر : معجم مقاييس اللغة مادة (وسط) ولسان العرب مادة (وسط) والقاموس المحيط مادة (وسط) وسطية أهل السُنة بين الفرق ص (٢) .

[2] انظر : مادة (وسط) في الصحاح ، والمصباح المنير ص (٢٥٢) ، ووسطية أهل السُنة ص (٢/ ٣) .

[3] أبو داود الزكاة (١٥٨٢) .

[4] أخرجه أبو داود (٢/ ١٠٣ ، ١٠٤) رقم (١٥٨٢) ، والطبراني في الصغير ص (١١٥) . والبيهقي في السنن (٤ / ٩٥) . وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٣٠٤١) .

[5] انظر : المفردات في غريب القرآن ، مادة : وسط ص (٥٢٢) .

[6] انظر : الوسطية لفريد عبد القادر ص (٩) .

[7] وسطية أهل السُنة ص (٣) ، وانظر : لما سيأتي لسان العرب مادة (وسط) وتاج العروس مادة (وسط) والصحاح مادة (وسط) .

بمعنى المتوسّط المعتدل ، ومنه قول الأعرابي : علمني دينًا وسوطًا ، لا ذاهبًا فروطًا ، ولا ساقطًا سقوطًا ، فإن الوسط هاهنا المتوسّط بين الغالي والجافي [(١)] .

و(وسيطًا) أي : حسيبًا شريفًا ، قال الجوهري : وفلان وسيط في قومه ، إذا كان أوسطهم نسبًا ، وأرفعهم محلا ، قال العرجي : و(وسيطًا) أي : حسيبًا شريفًا ، قال الجوهري : وفلان وسيط في قومه ، إذا كان أوسطهم نسبًا ، وأرفعهم محلا ، قال العرجي :

كأنّـــي لم أكن فيـــهم وسيـــطًا ولم تك نسبتـــي فـــي آل عمـــرو [(٢)]

و **(الوسيط) :** المتوسّط بين المتخاصمين [(٣)] .

و(التوسط) : بين الناس من الوساطة [(٤)] وهي الشفاعة .

و(التوسيط) : أي تجعل الشيء في الوسط [(٥)] .

و(التوسيط) : - أيضًا - قطع الشيء نصفين [(٦)] .

و(وسوط الشمس) : توسّطها السماء [(٧)] .

و(واسطة القلادة) : الجوهر الذي في وسطها ، وهو أجودها [(٨)] .

وقال فريد عبد القادر : استقرّ عند العرب أنهم إذا أطلقوا كلمة (وسط) أرادوا معاني الخير ، والعدل ، والنصفة ، والجودة ، والرّفعة ، والمكانة العليّة .

والعرب تصف فاضل النّسب بأنه وسط في قومه ، وفلان من واسطة قومه ، أي : من

---

(١) لسان العرب مادة (وسط) (٧/ ٤٢٩) .
(٢) الصحاح مادة (وسط) (٣/ ١١٦٧) .
(٣) القاموس المحيط مادة (وسط) (٢/ ٤٠٦) .
(٤) الصحاح مادة (وسط) (٣/ ١١٦٧) .
(٥) الصحاح مادة (وسط) (٣/ ١١٦٧) .
(٦) الصحاح مادة (وسط) (٣/ ١١٦٧) .
(٧) لسان العرب مادة (وسط) (٧/ ٤٢٩) .
(٨) الصحاح مادة (وسط) (٣/ ١١٦٧) .

أعيانم ، وهو من أوسط قومه ، أي من خيارهم وأشرافهم [(١)] .

وأختم ما قيل في معنى الوسط بذا الكلام للشيخ ابن عاشور ، حيث قال أثناء تفسيره لقوله - تعالى - : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [(٢)] (البقرة : من الآية ١٤٣) .

والوسط : اسم للمكان الواقع بين أمكنة تحيط به ، أو للشيء الواقع بين أشياء محيطة به ، ليس هو إلى بعضها أقرب منه إلى بعض عرفًا ، ولما كان الوصول إليه لا يقع إلاّ بعد اختراق ما يُحيط به ، أخذ فيه معنى الصّيانة والعزّة ؛ طبعًا : كوسط الوادي لا تصل إليه الرّعاة والدّواب إلا بعد أكل ما في الجوانب ، فيبقى كثير العشب والكلأ ، ووضعًا : كوسط المملكة يجعل محلّ قاعدتا ، ووسط المدينة يجعل محل قصبتها ؛ لأن المكان الوسط لا يصل إليه العدوّ بسهولة ، وكواسطة العقد لأنفس لؤلؤة فيه .

فمن أجل ذلك صار معنى النّفاسة والعزّة والخيار من لوازم معنى الوسط عرفًا ، فأطلقوه على الخيار النفيس كناية ، قال زهير : فمن أجل ذلك صار معنى النّفاسة والعزّة والخيار من لوازم معنى الوسط عرفًا ، فأطلقوه على الخيار النفيس كناية ، قال زهير :

هـم وسط يرضى الأنـامُ بحكمهـم   إذا نـزلت إحـدى الليالـي بمعضـل

ويقال : أوسط القبيلة ، لصميمها .

وأمّا إطلاق الوسط على الصّفة الواقعة عدلا بين خلقين ذميمين فيهما إفراط وتفريط ، كالشّجاعة بين الجبن والتهوّر ، والكرم بين الشح والسّرف ، والعدالة بين الرّحمة والقساوة ، فذلك روى حديث : ﴿ خير الأمور أوسطها ﴾ وسنده ضعيف [(٣)] .

---

(١) انظر : الوسطية ص (١٠) ، وجمهرة اللغة لابن دريد (٣/ ٢٩) ، والقاموس المحيط مادة (وسط) (٢/ ٣٩١) ، وتذيب اللغة مادة (وسط) (١٢/ ٢٦) .

(٢) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٣) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٩١) : حديث : " خير الأمور أوسطها " وفي لفظ : " أوساطها " . قال ابن الغرس : ضعيف . وقال في المقاصد : رواه ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد ، لكن بسند فيه مجهول عن علي مرفوعًا . وللديلمي بلا سند عن ابن عباس مرفوعًا : " خير الأعمال أوسطها " . وللعسكري عن الأوزاعي أنه قال : ما من أمر أمر الله به إلا عارض الشيطان فيه بخصلتين لا يبالي أيهما أصاب : الغلو أو

وقد شاع هذان الإطلاقان حتى صارا حقيقتين عُرفيتين [١] .

ومن خلال ما سبق اتضح لنا المعنى اللغوي لكلمة (وسط) ، وما تصرّف منها ، وأنا تئول إلى معانٍ متقاربة .

استعمالات الكلمة في القرآن الكريم

وردت كلمة (وسط) في القرآن في عدة مواضع ، وذلك بتصاريفها المتعدّدة ، حيث وردت بلفظ : ﴿ وَسَطًا ﴾ [٢] (البقرة: من الآية ١٤٣) [٣] و﴿ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [٤] (البقرة : من الآية ٢٣٨) [٥] و ﴿ أَوْسَطِ ﴾ [٦] (المائدة : من الآية ٨٩) [٧] و ﴿ أَوْسَطُهُمْ ﴾ [٨] (القلم : من الآية ٢٨) [٩] و ﴿ فَوَسَطْنَ ﴾ [١٠] (العاديات : من الآية ٥) [١١] .

وسأذكر معنى كل كلمة حسب ورودها في القرآن الكريم ، وكلام المفسرين حولها ، مستشهدًا لذلك ببعض ما ورد في السنة النبوية .

التقصير . ولأبي يعلى بسند جيد عن وهب بن منبه ، قال : إن لكل شيء طرفين ووسطًا ، فإذا أمسك بأحد الطرفين مال الآخر ، وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان ، فعليكم بالأوساط من الأشياء .

[١] انظر : التحرير والتنوير (٢/ ١٧) .

[٢] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

[٣] انظر : التحرير والتنوير (٢/ ١٧) .

[٤] سورة البقرة آية : ٢٣٨ .

[٥] انظر : التحرير والتنوير (٢/ ١٧) .

[٦] سورة المائدة آية : ٨٩ .

[٧] انظر : التحرير والتنوير (٢/ ١٧) .

[٨] سورة القلم آية : ٢٨ .

[٩] انظر : التحرير والتنوير (٢/ ١٧) .

[١٠] سورة العاديات آية : ٥ .

[١١] انظر : التحرير والتنوير (٢/ ١٧) .

أولا كلمة وسطا وكلام المفسرين عليها

وردت في قوله - تعالى - في سورة البقرة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [(١)] (البقرة : من الآية ١٤٣) .

وقد ورد تفسير هذه الكلمة في السّنة النّبوية ، كما ذكر لها المفسرون عدّة معانٍ ، وتفصيل ذلك كما يلي :

١- **روى البخاري** عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ﴿ يُدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب ، فيقول : هل بلّغت ؟ فيقول : نعم ، فُيقال لأمته : هل بلَغَكُم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيشهدون أنه قد بلغ ، ويكون الرّسول عليكم شهيدًا . فذلك قوله - جل ذكره - : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [(٢)] . والوسط : العدل ﴾ [(٣)] .

وروى الطبري بإسناده عن النبي ، صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [(٤)] (البقرة : من الآية ١٤٣) قال : ﴿ عدولا ﴾ [(٥)] .

وقد ساق الطبري عددًا من الروايات في هذا المعنى . ثم ذكر تفسير هذه الآية منسوبًا إلى بعض الصحابة والتابعين ، كأبي سعيد ومجاهد وغيرهما ، حيث فسروها بـ " عدولا " .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ١٥١) . قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٢) : قوله : " والوسط : العدل " هو مرفوع من نفس الخبر ، وليس بمدرج من قول بعض الرواة كما وهم فيه بعضهم .

(٤) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٥) انظر : تفسير الطبري (٢/ ٧) . والحديث أخرجه الترمذي (٥/ ١٩٠) رقم (٢٩٦١) وأحمد (٣/ ٩) وعندهما " عدلا " بدل " عدولا " .

وكذلك نقل تفسير ابن عباس لها " جعلكم أمة عدولا " . وقال ابن زيد : هم وسط بين النبي ، ﷺ وبين الأمم [١] .

٢- قال الإمام الطبري : وأمّا الوسط فإنه في كلام العرب : الخيار ، يُقال منه : فلان وسط الحسب في قومه ، أي متوسط الحسب ، إذا أرادوا بذلك الرّفع في حسبه .

وهو وسط في قومه وواسط ، قال ابن زهير بن أبي سُلمى في الوسط : وهو وسط في قومه وواسط ، قال ابن زهير بن أبي سُلمى في الوسط :

هـم وسـط يرضى الأنام بحكمهـم إذا نـزلت إحـدى الليالـي بمعظـم

قال : وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء ، الذي هو بين الطرفين ، مثل وسط الدّار .

وأرى أن الله - تعالى ذكره - إنّما وصفهم بأنهم وسط لتوسّطهم في الدّين ، فلا هم أهل غلوّ فيه ، غلوّ النصارى الذين غلوا بالترهب ، وقيل هم في عيسى ما قالوا فيه ، ولا هم أهل تقصير فيه ، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله ، وقتلوا أنبياءهم ، وكذبوا على ربهم ، وكفروا به ، ولكنهم أهل توسّط واعتدال فيه ، فوصفهم الله بذلك ، إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوسطها .

وأما التأويل فإنه جاء بأن الوسط العدل - كما سبق - وذلك معنى الخيار ، لأن الخيار من الناس عدولهم [٢] .

٣- قال ابن كثير [٣] وقوله - تعالى - : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [٤] (البقرة : من الآية ١٤٣) . الوسط هنا : الخيار والأجود ، كما يُقال في قريش : أوسط العرب نسبًا ودارًا ، أي : خيرها .

---

[١] انظر : تفسير الطبري (٢/ ٧) .
[٢] انظر : تفسير الطبري (٢/ ٦) .
[٣] انظر : عمدة التفسير عن ابن كثير (١/ ٢٦٣) . تحقيق أحمد شاكر .
[٤] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

وكان رسول الله ، ﷺ وسطًا في قومه ، أي : أشرفهم نسبًا .

ومنه الصلاة الوسطى ، التي هي أفضل الصّلوات ، وهي العصر ، كما ثبت في الصّحاح وغيرها .

وروى الإمام أحمد [1] عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ، ﷺ ﴿ يدعى نوح يوم القيامة فُيقال له : هل بلّغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه فُيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، وما أتانا من أحد ، فُيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، قال : فذلك قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [2] . قال : الوسط : العدل ، فُتدعون فتشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم ﴾ رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه [3]

٤ - **وقال ابن الجوزي** في **تفسيره لهذه الآية :** سبب نـزولها أن اليهود قالوا : قبلتنا قبلة الأنبياء ، ونحن عدل بين الناس ، فنـزلت هذه الآية .

والوسط : العدل ، قاله ابن عباس وأبو سعيد ومجاهد وقتادة .

وقال ابن قتيبة : الوسط : العدل والخيار ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ [4] (القلم : من الآية ٢٨) . أي : أعدلهم وخيرهم .

قال الشاعر :

هـم وسـط يرضـى الأنام بحكمهم   إذا نـزلت إحـدى اللـيالي بمعظم

وأصل ذلك أن خير الأشياء أوسطها ، والغلوّ والتقصير مذمومان .

قال أبو سليمان الدّمشقي : في هذا الكلام محذوف ، ومعناه جعلت قبلتكم وسطًا

---

(1) المسند (٣/ ٣٢) .

(2) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(3) انظر : صحيح البخاري (٥/ ١٥١) . سنن الترمذي (٥/ ١٩٠) رقم (٢٩٦١) سنن ابن ماجه (٢/ ١٤٣٢) رقم (٤٢٨٤) ، ولم أجده في الصغرى من سنن النسائي ، فلعله في الكبرى منه .

(4) سورة القلم آية : ٢٨ .

بين القبلتين ، فإن اليهود يصلون نحو المغرب ، والنصارى نحو المشرق ، وأنتم بينهما [1] .

٥ - قال صاحب المنار : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [2] (البقرة : من الآية ١٤٣) .

هو تصريح بما فهم من قوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [3] (البقرة : من الآية ٢١٣) . أي على هذا النحو من الهداية جعلناكم أمّة وسطًا .

قالوا : إن الوسط هو العدل والخيار ، وذلك أن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط ، والنّقص عنه تقصير وتفريط ، وكل من الإفراط والتفريط مَيْلٌ عن الجادّة القويمة ، فهو شرّ ومذموم ، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر ، أي المتوسّط بينهما [4] .

٦- وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [5] (البقرة : من الآية ١٤٣) أي : عدلا خيارًا .

وما عدا الوسط فأطراف داخلة تحت الخطر ، فجعل الله هذه الأمة وسطًا في كل أمور الدّين ، وسطًا في الأنبياء بين من غلا فيهم كالنصارى ، وبين من جفاهم كاليهود ، بأن آمنوا بم كل على الوجه اللائق بذلك .

ووسطًا في الشريعة ، لا تشديدات اليهود وآصارهم ، ولا تاون النصارى .

وفي باب الطّهارة والمطاعم ، لا كاليهود الذين لا تصحّ لهم صلاة إلاّ في بِيَعِهِمْ وكنائسهم ، ولا يطهّرهم الماء من النجاسات ، وقد حرّمت عليهم طيبات عقوبة لهم .

ولا كالنصارى الذين لا يُنجسّون شيئًا ولا يُحرّمون شيئًا ، بل أباحوا ما دب ودرج .

---

[1] انظر : زاد المسير (١/ ١٥٤) ، وكلام أبي سليمان الدمشقي فيه غرابة ، فإنه جعل الوسطية وصفًا للقبلة ، والصحيح أنا وصف للأمة كما ثبت في الصحيح ، ثم إنه لم يكن هناك قبلتان قبل الكعبة ، وإنما هي بيت المقدس فقط .

[2] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

[3] سورة البقرة آية : ٢١٣ .

[4] انظر : تفسير المنار (٢/ ٤) .

[5] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

بل طهارتم - أي هذه الأمة - أكمل طهارة وأتمّها ، وأباح لهم الطّيبات من المطاعم ، والمشارب ، والملابس ، والمناكح ، وحرم عليهم الخبائث من ذلك .

فلهذه الأمّة من الدّين أكمله ، ومن الأخلاق أجلّها ، ومن الأعمال أفضلها .

ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان ما لم يهبه لأمة سواهم ، فلذلك كانوا : ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [1] (البقرة : من الآية ١٤٣) كاملين معتدلين ، ليكونوا : ﴿ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [2] (البقرة : من الآية ١٤٣) بسب عدالتهم وحكمهم بالقسط ، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان ، ولا يحكم عليهم غيرهم [3] .

٧- وقال سيد قطب في تفسيره لهذه الآية :

وإنا للأمة الوسط بكل معاني الوسط ، سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل ، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد ، أو من الوسط بمعناه الماديّ والحسيّ .

أمةً وسطًا في **التصوّر والاعتقاد ،** أمةً وسطًا في التّفكير والشّعور ، أمةً وسطًا في التنظيم والتنسيق ، أمة وسطًا في الارتباطات والعلاقات ، أمةً وسطًا في الزمان ، أمةً وسطًا في المكان ، ثم قال : وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانا هذا الذي وهبه الله لها ، إلا أنّها تخلت عن منهج الله الذي اختاره لها ، واتخذت لها مناهج مختلفة ، ليست هي التي اختارها الله لها [4] .

هذه أهمّ أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية ، ومن خلال هذا التفسير اتضحت معانٍ سيأتي اعتبارها عند الحديث عن منهج القرآن في تقرير الوسطية في فصول لاحقة .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٣) انظر : تفسير كلام المنان (١/ ١٥٧) .

(٤) انظر : في ظلال القرآن (١/ ١٣١) .

ثانيا كلمة الوسطى وكلام المفسرين عليها

وقد وردت هذه الكلمة في قوله - تعالى - في سورة البقرة : ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ [1] (البقرة : ٢٣٨) وسأذكر أقوال المفسرين في هذه الآية مما له علاقة مباشرة في معنى " الوسط " حيث سيتضح سبب تسميتها بذلك ، هل لأنا متوسطة بين الصلوات ، أو لأنها أفضل الصّلوات ، أو لكلْيهما معًا ؟ دون الوقوف عند أي الصلوات هي ، وما سيرد حول هذه القضية فهو لبيان المعنى فقط .

١- **ذكر الإمام الطبري** أقوال العلماء في الصلاة الوسطى ، وأطال في ذكر أدلة من قال : إن الصّلاة الوسطى هي العصر ، ثم قال بعد أن رجح أن الصلاة الوسطى هي العصر :

وإنما قيل لها الوسطى : لتوسّطها الصلوات المكتوبات الخمس ، وذلك أن قبلها صلاتين ، وبعدها صلاتين ، وهي بين ذلك وسطاهنّ .

والوسطى : الفعلى من قول القائل : وسطت القوم أسطهم سطة ووسوطًا ، إذا دخلت وسطهم . ويقال للذّكر فيه : هو أوسطنا ، وللأنثى : هي وسطانا [2] . وعندما ذكر قول من قال : إن (الوسطى) هي صلاة المغرب ، وهي قول : قبيصة بن ذؤيب ، عقب الطبري على ذلك قائلا :

ووجه قبيصة بن ذؤيب قوله : (الوسطى) إلى معنى التوسّط ، الذي يكون صفة للشيء يكون عدلا بين الأمرين ، كالرجل المعتدل القامة ، الذي لا يكون مفرطًا طوله ، ولا قصيرة قامته ، ولذلك قال : ألا ترى أنها ليست بأقلها ولا أكثرها .

ومن أجل فهم كلام الإمام الطبري في تعقيبه على ابن ذؤيب أذكر كلام قبيصة بن ذؤيب ، قال : الصلاة الوسطى : صلاة المغرب ، ألا ترى أنا ليست بأقلها ولا أكثرها ،

---

[1] سورة البقرة آية : ٢٣٨ .

[2] انظر : تفسير الطبري (٢/ ٥٦٨) .

ولا تُقصر في السفر ، وأنّ رسول الله ، ﷺ لم يؤخرها عن وقتها ولم يُعجّلها [1] .

٢- **وجه ابن الجوزي أقوال العلماء** في المراد بالصلاة الوسطى قائلا : وفي المراد بالوسطى ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها أوسط الصلوات محلا .

والثاني : أوسطها مقدارًا .

والثالث : أفضلها .

ووسط الشيء خيره وأعدله ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَـٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [2] (البقرة : من الآية ١٤٣) .

فإن قلنا : إن الوُسطى بمعنى الفُضلى ، جاز أن يدّعي هذا كل ذي مذهب فيها . وإن قلنا : إنها أوسطها مقدارًا ، فهي المغرب ، لأن أقل المفروضات ركعتان ، وأكثرها أربعًا .

وإن قلنا : إنها أوسطها محلا ، فللقائلين : إنها العصر أن يقولوا : قبلها صلاتان في النهار ، وبعدها صلاتان في الليل ، فهي الوسطى .

ومن قال هي الفجر ، قال عكرمة : هي وسط بين الليل والنهار ، وكذلك قال ابن الأنباري : هي وسط بين الليل والنهار .

وقال ابن الأنباري : ومن قال : هي الظهر ، قال : هي وسط النهار .

فأما من قال : هي المغرب ، فاحتجّ بأن أوّل صلاة فرضت الظّهر ، فصارت المغرب وُسْطى .

ومن قال : هي العشاء ، فإنه قال : هي بين صلاتين لا تقصران [3] .

ومن خلال ما سبق يتضح ارتباط كل قول بمعنى (الوسط) في ضوء المعاني التي سبق بيانا .

---

[1] انظر : تفسير الطبري (٢/ ٥٦٤) .

[2] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

[3] انظر : زاد المسير (١/ ٢٨٣) .

٣- وقال القاسميّ في تفسيره :

و " **الصلاة الوسطى** " أي : الوسطى بين الصلوات ، بمعنى المتوسّطة ، أو الفضلى منها ، من قولهم للأفضل : الأوسط .

فعلى الأوّل يكون الأمر لصلاة متوسّطة بين صلاتين ، وهل هي : الصّبح ، أو الظهر ، أو العصر ، أو المغرب ، أو العشاء ، أقوال مأثورة عن الصّحابة والتابعين .

وعلى الثاني : فهي صلاة الفطر أو الأضحى أو الجماعة أو صلاة الخوف أو الجمعة أو المتوسطة بين الطّول والقصر ، أقوال - أيضًا- عن كثير من الأعلام .

ثم قال : سنح لي وقوي بعد تمعّن احتمال قوله - تعالى - : ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ﴾ [1] (البقرة : من الآية ٢٣٨) بعد قوله : ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾ [2] (البقرة : من الآية ٢٣٨) لأن يكون إرشادًا وأمرًا بالمحافظة على أداء الصلاة أداءً متوسّطًا ، لا طويلا مُملا ، ولا قصيرًا مُخلا ، أي : والصلاة المتوسطة بين الطول والقصر ، ويؤيّده الأحاديث المروية عنه ، ﷺ في ذلك قولا وفعلا .

ثم مر بي في القاموس حكاية هذا قولا ، حيث ساق في مادة (وسط) الأقوال في الآية ، ومنها قوله : أو المتوسّطة بين الطّول والقصر ، قال شارحه الزّبيدي . وهذا القول ردّه أبو حيّان في البحر .

ثم سنح لي احتمال وجه آخر ، وهو أن يكون قوله : ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ﴾ [3] (البقرة : من الآية ٢٣٨) أريد به توصيف الصلاة المأمور بالمحافظة عليها بأنها فُضلى ، أي ذات فضل عظيم عند الله ، فالوسطى بمعنى الفُضلى من قولهم للأفضل : الأوسط [4] .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٨ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٣٨ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٨ .

(٤) انظر : تفسير القاسمي (٣/ ٦٢٢ ، ٦٢٦) .

٤- أما رشيد رضا فقال :

والصلاة الوسطى هي إحدى الخمس ، والوسطى مؤنث الأوسط ، ويستعمل بمعنى التوسّط بين شيئين أو أشياء لها طرفان متساويان ، وبمعنى الأفضل ، وبكل من المعنيين قال قائلون ، ولذلك اختلفوا في أيّ الصّلوات أفضل ، وأيّتها المتوسّطة [١] .

٥- وأختم كلام المفسّرين حول هذه الآية بما ذكره ابن عاشور في تفسيره ، حيث قال :

فأمّا الذين تعلّقوا بالاستدلال بوصف الوسطى فمنهم من حاول جعل الوصف من الوسط بمعنى الخيار والفضل ، فرجع إلى تتّبع ما ورد في تفضيل بعض الصّلوات على بعض ، ومنهم من حاول جعل الوصف من الوسط ، وهو الواقع بين جانبين متساويين من العدد ، فذهب يتطلّب الصّلاة التي هي بين صلاتين من كل جانب [٢] .

وبذا التفسير لمعنى (الوسطى) من خلال كلام المفسّرين المتقدّم نلحظ الارتباط بين هذه الكلمة وموضوع الوسطية الذي هو مدار هذا البحث ، سواء أكانت بمعنى التوسّط بين شيئين أم بمعنى الخيار الأفضل ، وسيأتي مزيد بيان لهذه القضية - إن شاء الله - بعد عرض جميع الآيات .

---

[١] انظر : تفسير المنار (٢/ ٤٣٧) .

[٢] انظر : التحرير والتنوير (٢/ ٤٦٧) .

ثالثا كلمة أوسط وكلام المفسرين عليها

وقد وردت هذه الكلمة في آيتين :

الأولى في قوله - تعالى - : ﴿ فَكَفَّرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ ﴾ [1] (المائدة : من الآية ٨٩) .

والثانية في سورة القلم في قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ ﴾ [2] (القلم : ٢٨) .

وقد ذكر المفسّرون معنى كل كلمة في موضعها ، فمنهم من جعل معناهما واحدًا ، ومنهم من فرق بين مدلوليهما ، وإليك تفصيل ذلك :

الأولى : آية سورة المائدة :

١- قال الطبري : يعني - تعالى ذكره - بقوله : ﴿ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ ﴾ [3] (المائدة : من الآية ٨٩) أعدله .

قال عطاء : أوسطه : أعدله .

وقال بعضهم : معناه : من أوسط ما يطعم من أجناس الطعام الذي يقتاته أهل بلد المكفر أهليهم ، ومن ذلك قول ابن عمر : من أوسط ما يطعم أهله الخبز والتّمر ، والخبز والسمن ، والخبز والزيت ، ومن أفضل ما يطعمهم : الخبز واللحم .

وقال آخرون : من أوسط ما يُطعم المكفّر أهله ، قال إن كان ممن يشبع أهله أشبع المساكين العشرة ، وإن كان ممن لا يشبعهم لعجزه عن ذلك أطعم المساكين على قدر ما يفعل من ذلك بأهله في عُسره ويُسره .

ثم عقب الطبري على ذلك بقوله :

---

(1) سورة المائدة آية : ٨٩ .

(2) سورة القلم آية : ٢٨ .

(3) سورة المائدة آية : ٨٩ .

وأولى الأقوال عندنا قول من قال : من أوسط ما تُطعمون أهليكم في القلّة والكثرة [1] .

٢- وقال ابن الجوزي :

في قوله : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ [2] (المائدة : من الآية ٨٩) قولان :

أحدهما : من أوسطه في القدر ، قاله عمر ، وعلي ، وابن عباس ، ومجاهد .

الثاني : من أوسط أجناس الطعام ، قاله ابن عمر ، والأسود ، وعَبِيدَة ، والحسن ، وابن سيرين [3] .

٣- وقال القرطبي :

تقدم في سورة البقرة أن الوسط بمعنى الأعلى والخيار ، وهو هنا منـزلة بين المنـزلتين ، ونصفًا بين طرفين ، وعن ابن عباس ، قال : كان الرجل يقوت أهله قوتًا فيه سعة ، وكان الرّجل يقوت أهله قوتًا فيه شدة ، فنـزلت : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ [4] (المائدة : من الآية ٨٩) وهذا يدلّ على أن الوسط ما ذكرناه ، وهو ما كان بين شيئين [5] .

٤- وقال الزمخشريّ :

﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ [6] (المائدة : من الآية ٨٩) من أقصده ، لأن منهم من يُسرف في إطعام أهله ، ومنهم من يُقتّر [7] .

---

[1] انظر : تفسير الطبري (٧/ ١٦ - ٢٢) .
[2] سورة المائدة آية : ٨٩ .
[3] انظر : زاد المسير (٢/ ٤١٤) .
[4] سورة المائدة آية : ٨٩ .
[5] انظر : تفسير القرطبي (٦/ ٢٧٦) .
[6] سورة المائدة آية : ٨٩ .
[7] انظر : الكشاف (١/ ٦٤٠) .

٥- وأختم هذه الأقوال في **معنى (أوسط)** فيما قاله سيد قطب حيث قال :

و(أوسط) تحتمل من (أحسن) ، أو من (متوسّط) ، فكلاهما من معاني اللفظ ، وإن كان الجمع بينهما لا يخرج عن القصد ، لأن المتوسط هو الأحسن ، فالوسط هو الأحسن في ميزان الإسلام [(١)] .

الثانية : آية سورة القلم :

١- قال الطبري :

وقوله : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ [(٢)] (القلم : من الآية ٢٨) . يعني أعدلهم . وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل .

قال ابن عباس : أوسطهم : أعدلهم ، ومثل ذلك قال مجاهد ، وسعيد ، والضّحاك .

وقال قتادة : أي أعدلهم قولا ، وكان أسرع القوم فزعًا ، وأحسنهم رجعة [(٣)] .

٢- وقال القرطبي :

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ [(٤)] (القلم : من الآية ٢٨) أي : أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم [(٥)] .

٣- وقال ابن كثير :

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ [(٦)] (القلم : من الآية ٢٨) قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والربيع بن أنس ، والضّحاك ، وقتادة : أي أعدلهم وخيرهم [(٧)] .

[(١)] انظر : في ظلال القرآن (٢/ ٩٧١) .
[(٢)] سورة القلم آية : ٢٨ .
[(٣)] انظر : تفسير الطبري (٢٩/ ٣٤) .
[(٤)] سورة القلم آية : ٢٨ .
[(٥)] انظر : تفسير القرطبي (١٨/ ٢٤٤) .
[(٦)] سورة القلم آية : ٢٨ .
[(٧)] انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٦) .

٤- وقال ابن الجوزي :

﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ ﴾ [١] (القلم : من الآية ٢٨) أي أعدلهم وأفضلهم [٢] .

٥- قال القاسمّي :

أي : أعدلهم وخيرهم رأيا [٣] .

ومما سبق يتضح لنا أن كلمة (أوسط) في آية المائدة فسرت على عدة أوجه وبعدة معاني ، منها : الأفضل ، وبين القليل والكثير ، وبين الجيّد والرديء ، أو الشدة والسّعة . أما آية القلم فاتفق المفسرون [٤] على تفسيرها بمعنى الأفضل والخيار وهو الأعدل .

رابعا كلمة فوسطن وكلام المفسرين عليها

وردت في قوله - تعالى - : ﴿ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ۝ ﴾ [٥] (العاديات : ٥) وذلك في سورة العاديات ، الآية الخامسة .

وقد ذكر المفسرون أن معناها من التوسط في المكان ، وهذه جملة من أقوالهم :

١- قال الطبري :

يقول - تعالى ذكره - : فوسطن بركبانهن جمع القوم ، يقال : وسطت القوم - بالتخفيف - ، ووسّطته - بالّتشديد - ، وتوسّطته ، بمعنى واحد [٦] .

٢- وقال ابن الجوزي :

قال المفسّرون : المعنى : توسّطن جمعًا من العدوّ .

وقال ابن مسعود : فوسطن به جمعًا ، يعني مزدلفة [٧] .

---

(١) سورة القلم آية : ٢٨ .

(٢) انظر : زاد المسير (٨/ ٣٣٨) .

(٣) انظر : تفسير القاسمي (١٦/ ٥٩٠٠) .

(٤) هذا على حسب اطلاعي وبحثي .

(٥) سورة العاديات آية : ٥ .

(٦) انظر : تفسير الطبري (٣٠/ ٢٧٦) .

(٧) انظر : زاد المسير (٩/ ٢٠٩) ، وتفسير ابن مسعود فيه غرابة .

٣- وقال القرطبي :

﴿ جَمۡعًا ۝ ﴾ [١] (العاديات : ٥) مفعول بـ " وسطن " أي : فوسطن بركبانهن العدوّ .

يُقال : وسطت القوم أسِطُهم وسْطًا وسطَة أي : صرت وسطهم .

يقال : وسطت القوم - بالّتشديد والتخفيف - وتوسّطتهم ، بمعنى واحد .

وقيل : معنى الّتشديد : جعلها الجمع قسمين ، والّتخفيف : صرن وسط الجمع [٢] .

٤- وقال القاسمي :

﴿ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ۝ ﴾ [٣] (العاديات : ٥) أي : فتوسطن ودخلن في وسط جمع من الأعداء ، ففرقته وشتته .

يقال : وسطت القوم - بالتخفيف - ووسّطته - بالتشديد وتوسّطته ، بمعنى واحد [٤] .

٥- وقال سيد قطب :

وهي تتوسّط صفوف الأعداء على غرة ، فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب [٥] .

ومن خلال ما سبق يتضح أن معناها التوسّط والوسط .

أحاديث نبوية في (الوسط) :

السنة شارحة للقرآن ، ومبيّنة له ، وقد وردت بعض الأحاديث التي فيها الدّلالة على معاني (الوسط) .

---

[١] سورة العاديات آية : ٥ .

[٢] انظر : تفسير القرطبي (٢٠/ ١٦٠) .

[٣] سورة العاديات آية : ٥ .

[٤] انظر : تفسير القاسمي (١٧/ ٦٢٣٨) .

[٥] انظر : في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٥٨) .

أحاديث نبوية في الوسط

ولأهمّية التعمّق في فهم مدلول هذا المصطلح ، فسأذكر بعض الأحاديث التي ورد فيها ما يدلّ على هذا المعنى ، مع توضيح المراد حسب سياق الحديث ، حيث قد يكون فيه دلالة على الوسط لا على الوسطية .

١- عن أبي سعيد الخدريّ ﵁ قال : قال رسول الله ، ﷺ ﴿ يدعى نوح يوم القيامة ، فيقول : لبيك وسعديك يا ربّ ، فيقول : هل ّبلغت ؟ فيقول : نعم ، فُيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير! فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيشهدون أنه قد بلغ ، ويكون الرسول عليكم شهيدًا ، فذلك قوله - جل ذكره - : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [1] . والوسط : العدل رواه البخاري [2] .

والمراد بذا الحديث واضح ، وهو أن الوسط فسّر هنا بالعدل ، وهو المقابل للظّلم ، حيث إن أمّة محمد ، ﷺ شهدوا بما علموا ، ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ [3] (يوسف : من الآية ٨١) . وهو الحق ، فلم تكن شهادتم لهوًى مع نوح ، عليه السلام - وحاشاهم من ذلك - ولم يشهدوا مع قوم نوح بالباطل ، وأنّى لهم [4] ذلك ، وهذا هو العدل ، لأن الظّلم له طرفان والعدل وسط بينهما ، فالشهادة مع أحد الخصمين بدون حق ظلم ، والشّهادة بالحقّ دون النّظر لصاحبه عدل ، فأمة محمد ، ﷺ ممّن قال الله فيهم : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ [5] (الأعراف : ١٨١) .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٤٣ .
(٢) المسند (٣/ ٣٢) .
(٣) سورة يوسف آية : ٨١ .
(٤) أي لقوم نوح .
(٥) سورة الأعراف آية : ١٨١ .

٢- روى الترمذي قال : لما نـزل قوله - تعالى - : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ ﴾ [1] (الروم : ١-٤)

خرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ ﴾ [2] (الروم : ١-٤) قال ناس من قريش لأبي بكر ، فذلك بيننا وبينك ، زعم صاحبك أن الرّوم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟! قال : بلى - وذلك قبل تحريم الرّهان - فارتن أبو بكر والمشركون ، وتواضعوا الرّهان ، وقالوا لأبي بكر : كم تجعل البضع : ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فسمّ بيننا وبينك وسطًا ننتهي إليه ، فسمّوا بينهم ست سنين [3] .

والستّ هنا هي الوسط بين ثلاث وتسع ، فقبلها ثلاث وبعدها ثلاث .

٣- عن عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ، ﷺ ﴿ ثلاث من فعلهنّ فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمان : من عبد الله وحده ، وعلم أنه لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيّبة با نفسه ، رافدة عليه كل عام ، ولم يعط الهرمة ، ولا الدرنة ، ولا المريضة ، ولا الشّرط اللئيمة ، ولكن من وسط أموالكم ، فإن الله لم يسألكم خيره ، ولم يأمركم بشرّه ﴾ [4] [5] .

والوسط هنا ما بين أجود الغنم وبين السيئ والمعيب ، وهو مثل قوله - تعالى - : ﴿ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ ﴾ [6] (المائدة : من الآية ٨٩) . كما سبق .

---

[1] سورة الروم آية : ١ - ٤ .
[2] سورة الروم آية : ١ - ٤ .
[3] أخرجه الترمذي (٥/ ٣٢١ ، ٣٢٢) رقم (٣١٩٤ ، ٣١٩٥) ، قال فيهما الترمذي : حسن صحيح غريب .
[4] أبو داود الزكاة (١٥٨٢) .
[5] أخرجه أبو داود (٢/ ١٠٣ ، ١٠٤) رقم (١٥٨٢) ، والطبراني في الصغير ص (١١٥) ، والبيهقي في السنن (٤/ ٩٥) ، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٣٠٤١) والسلسلة الصحيحة رقم (١٠٤٦) .
[6] سورة المائدة آية : ٨٩ .

٤- **عن جابر بن عبد الله** رضي الله عنه قال : ﴿ كنا عند النبي ﷺ ، فخطّ خطًّا ، وخط خطين عن يمينه ، وخط خطين عن يساره ، ثم وضع يده على الخطّ الأوسط ، فقال : " هذه سبيل الله " ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾[١] ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ١٥٣] [٢] .

والوسط هنا : هو الشيء بين الشيئين ، متوسّط بينهما .

ونجد بيان هذا الصّراط في الحديث الآتي :

عن النّواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ، ﷺ ﴿ ضرب الله مثلا صراطًا مستقيمًا ، وعلى كَنفي الصّراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مُرخاة ، وعلى الصّراط داعٍ يدعو يقول : يا أيها الناس اسلكوا الصّراط جميعًا ، ولا تعوجّوا ، وداعٍ يدعو على الصّراط ، فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب قال : ويلك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه ، فالصراط : الإسلام ، والسّتور حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، والداعي الذي على رأس الصّراط كتاب الله ، والدّاعي من فوقه واعظ الله يذكر في قلب كل مسلم ﴾ [٣] [٤] .

---

[١] سورة الأنعام آية : ١٥٣ .

[٢] أخرجه ابن ماجه (١/ ٦) رقم (١١) . قال البوصيري في الزوائد (١/ ٤٥) : هذا إسناد فيه مقال من أجل مجالد بن سعيد . قلت : مجالد بن سعيد هو ابن عمير الهمداني أبو عمرو الكوفي . قال الحافظ في التقريب ص (٥٢٠) : ليس بالقوي ، وقد تغير في آخر عمره . اهـ . ولكن يشهد لهذا الحديث ما رواه عبد الله بن مسعود ، قال : خط لنا رسول الله ، خطًّا ، ثم قال : " هذه سبيل الله " . ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله ، وقال : " هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه " . ثم قرأ : (وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتّبعوه) . [سورة الأنعام ، الآية : ١٦٣] . أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٧) . والدارمي (١/ ٧٨ ، ٧٩) رقم (٢٠٢) . وحسنه الألباني كما في المشكاة رقم (١٦٦) ونقل عن الحاكم تصحيحه .

[٣] الترمذي الأمثال (٢٨٥٩) ، أحمد (٤/ ١٨٣) .

[٤] أخرجه أحمد (٤/ ١٨٢ ، ١٨٣) . والحاكم في المستدرك (١/ ٧٣) . وقال : صحيح على شرط مسلم ، ولا أعرف له علّة ، ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي . قال الألباني : وهو كما قالا ، انظر : المشكاة رقم (١٩١) .

٥- وقال ﷺ ﴿ إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، أو أعلى الجنة ﴾ [١] [٢] .

قال الحافظ ابن حجر : قوله : ﴿أوسط الجنة أو أعلى الجنة ﴾ [٣] المراد بالأوسط هنا : الأعدل والأفضل ، كقوله - تعالى - : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [٤] (البقرة : من الآية ١٤٣) [٥] .

٦- وقال ﷺ ﴿ البركة تنـزل وسط الطّعام ، فكلوا من حافتيه ، ولا تأكلوا من وسطه ﴾ [٦] [٧] .

والوسط هنا : نقطة الالتقاء بين أطراف متساوية . أو هو أشبه ما يكون بمركز الدّائرة ومنتصفها .

٧- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴿ أن رسول الله ، ﷺ خط خطّا مربعًا ، وخطّ وسط الخطّ المربّع ، وخطوطًا إلى جانب الخطّ الذي وسط الخطّ المربّع ، وخطّا خارجًا من الخطّ المربّع ، فقال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا الإنسان

وروى هذا الحديث الترمذي - أيضًا - (٥/ ١٣٣) رقم (٢٨٥٩) . وقال : هذا حديث غريب . قال الألباني : وكأنه عنى الطريق التي أخرجها منه ، وهي إحدى طريقي المسند .

[١] البخاري الجهاد والسير (٢٦٣٧) ، أحمد (٣٣٥/٢) .

[٢] أخرجه البخاري (٣/ ٢٠٢) . والترمذي (٤/ ٥٨٢) رقم (٢٥٣٠) .

[٣] البخاري الجهاد والسير (٢٦٣٧) ، أحمد (٢/ ٣٣٩) .

[٤] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

[٥] انظر : فتح الباري (٦/ ١٣) .

[٦] الترمذي الأطعمة (١٨٠٥) ، أبو داود الأطعمة (٣٧٧٢) ، ابن ماجه الأطعمة (٣٢٧٧) .

[٧] أخرجه الترمذي (٤/ ٢٢٩) رقم (١٨٠٥) . وقال : هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه (٢/ ١٠٩٠) رقم (٣٢٧٧) . وأحمد (١/ ٢٧٠ ، ٣٤٣ ، ٣٦٤) والدارمي (٢/ ١٣٧) رقم (٢٠٤٦) والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٥٠٢) وتخريج المشكاة رقم (٤٢١١) .

الخطّ الأوسط ، وهذه الخطوط إلى جانبه الأعراض تنهشه ﴾ [1] [2] .

والوسط هنا : هو ما كان بين عدة أطراف والمسافة بينه وبين كل طرف متساوية .

٨- وقال ﷺ ﴿ وسّطوا الإمام وسدوا الخلل ﴾ [3] [4] . أي اجعلوه وسط الصّف - في منتصفه - من أمامه ، بحيث يكون طرفا الصّفّ متساويين بالنّسبة لموقف الإمام .

٩- وقال ﷺ ﴿ لعن الله من جلس وسط الحلقة ﴾ [5] [6] . وهو الذي يجلس في وسط الحلقة ، ولو لم يكن في منتصفها تمامًا ، وإنما من جلس في داخلها بعيدًا عن أطرافها فهو في وسطها .

١٠- وقال ﷺ ﴿ أنا زعيم بيت في رَبَضَ الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقّا ، وبيتٍ في وسطِ الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا ، وبيتٍ في أعلى الجنة لمن حَسُنَ خُلُقُه ﴾ [7] [8] .

والوسط هنا ما كان بين الرّبض والأعلى .

١١- وقال ﷺ ﴿ لأن أمشي على جمرة أو سيف أو أخصف نعلي برجلي أحبّ إلي من أن أمشي على قبر مسلم ، وما أبالي أوسط القبر قضيت حاجتي أو وسط السّوق ﴾ [1] [2] .

---

[1] البخاري الرقاق (٦٠٥٤) ، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٤) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٣١) ، أحمد (٣٨٥/١) ، الدارمي الرقاق (٢٧٢٩) .

[2] أخرجه البخاري (٧/ ١٧١) . وابن ماجه (٢/ ١٤١٤) رقم (٤٢٣١) . وأحمد (١/ ٣٨٥) .

[3] أبو داود الصلاة (٦٨١) .

[4] أخرجه أبو داود (١/ ١٨٢) رقم (٦٨١) . وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع رقم (٦١٢٢) وضعيف أبي داود رقم (١٠٥) .

[5] الترمذي الأدب (٢٧٥٣) ، أبو داود الأدب (٤٨٢٦) ، أحمد (٥/ ٣٩٨) .

[6] أخرجه الترمذي (٥/ ٨٤) رقم (٢٧٥٣) . قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وأبو داود (٤/ ٢٥٨) رقم (٤٨٢٦) . وأحمد (٥/ ٣٨٤ ، ٣٩٨ ، ٤٠١) . وصححه الحاكم (٤/ ٢٨١) ووافقه الذهبي .

[7] أبو داود الأدب (٤٨٠٠) .

[8] أخرجه أبو داود (٤/ ٢٥٣) رقم (٤٨٠٠) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١٤٦٤) .

السّوق ﴾ [(١)] [(٢)] .

والمراد بالوسط - هنا - الوسط المكاني .

١٢- وقال ﷺ ﴿ ليس للنساء وسط الطّريق ﴾ [(٣)] .

ومعنى الوسط كما في الحديث الذي سبقه الوسط المكاني ، وهو ما كان بين الشيئين وهو منه ، لأن المشروع في حقّ المرأة أن تكون بجانب الطّريق لا في وسطه ، لما يحدث من فتنة بسبب بروزها وتعرّضها للرّجال .

هذه بعض الأحاديث التي وردت وفيها لفظ (الوسط) . ومعناه ، ومنها ما يدلّ على معنى الوسطية ، ومنها ما ليس كذلك ، إذ لا تلازم بين (الوسط) و(الوسطية) ، فكل وسطية فهي وسط ، ولا يلزم من كل وسط أن يكون دليلا على الوسطية ، فقد يكون من الوسط المكاني أو الزّماني ونحوه ، كما سيأتي بيانه - إن شاء الله - .

تحرير معنى الوسطية

من خلال ما سبق اتضح لنا أن كلمة (وسط) ، تستعمل في معانٍ عدة أهمّها :

١- بمعنى **الخيار** والأفضل والعدل .

٢- **قد ترد** لما بين شيئين فاضلين .

٣- **وتستعمل** لما كان بين شرّين وهو خير .

٤- **وتستعمل** لما كان بين الجيّد والرديء ، والخير والشرّ .

٥- **وقد تُطلق** على ما كان بين شيئين حسا ، كوسط الطّريق ، ووسط العصا .

---

(١) ابن ماجه ما جاء في الجنائز (١٥٦٧) .

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٩٩) رقم (١٥٦٧) . قال البوصيري في الزوائد (١/ ٥١٢) : هذا إسناد صحيح محمد بن إسماعيل - شيخ ابن ماجه - وثقه أبو حاتم والنسائي وابن حبان ، وباقي رجال الإسناد على شرط الشيخين . والحديث صححه الألباني كما في إرواء الغليل رقم (٦٣) وصحيح الجامع رقم (٥٠٣٨) .

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢/ ٤١٦- الإحسان) رقم (٥٦٠١) . وابن عدي في الكامل (٤/ ١٣٢١) . وأخرجه -أيضًا- أبو يعلى في مسنده بلفظ : " ليس للنساء باحة الطريق " كما في المطالب العالية (٢/ ٤٤٠) . قال في النهاية (١/ ٦٠) : أي وسطه وباحة الدار : وسطها . اهـ .

وقد تأتي لمعانٍ أخرى قريبة من هذه المعاني سبق ذكرها ، ولا أجد حاجة لإعادتها .

والمهمّ - هنا - متى يُطلق لفظ (الوسطية) ؟ بل على ماذا يُطلق هذا المصطلح ؟

فهناك من جعل مصطلح الوسطية مُرادفًا للفظ الخيرية ، ولو لم يكن بين شيئين - حسا أو معنى - قال فريد عبد القادر :

ومن جملة ما سبق بيانه نستطيع أن نستخلص تعريفًا خاصا محدّدًا للوسطية ، فنقول : بأن الوسطية هي : مؤهل الأمة الإسلامية من : العدالة ، والخيرّية للقيام بالشهادة على العالمين ، وإقامة الحجة عليهم . ثم قال :

أما ما شاع عند الناس وانتشر من الوقوف عند أصل دلالتها اللغوية ، أي التوسّط بين طرفين ، مهما كان موضع هذا الوسط - الذي تم اختياره - من صراط الله المستقيم ، التزامًا وانحرافًا ، فليس بمفهوم صحيح وفق ما تبينه الآيات والأحاديث [1] .

ويؤكّد هذا المعنى في موضع آخر ، فيقول :

ولا يلزم لكل ما يعتبر وسطًا في الاصطلاح أن يكون له طرفان ، فالعدل وسط ولا يقابله إلا الظّلم ، والصّدق وسط ولا يقابله إلا الكذب [2] .

وهناك من جعل (الوسطية) من التوسّط بين الشيئين دون النظر إلى معنى الخيرية التي دل عليها الشرع ، قال الأستاذ فريد عبد القادر :

وقد شاع كذلك عند كثير من الناس استعمال هذا الاصطلاح الربانيّ ، استعمالا فضفاضًا يلبس أي وضع أو عرف أو مسلك أرادوه ، حتى أصبحت الوسطية في مفهومهم تعني التساهل والتنازل . . إلخ [3] .

وما ذكره الأستاذ فريد في تعريفه للوسطية ، وكذلك ما نقله عن غيره ففيه نظر ، ويتضح ذلك فيما سيأتي :

---

[1] انظر : الوسطية في الإسلام - مخطوط - ص (٢٩) .
[2] انظر : الوسطية في الإسلام ص (٣٣) .
[3] انظر : الوسطية في الإسلام ص (٣٠) .

وقد تأملت ما ورد في القرآن والسنة والمأثور من كلام العرب فيما أطلق وأريد به مصطلح (الوسطية) ، فتوصلت إلى أن هذا المصطلح لا يصحّ إطلاقه إلا إذا توافرت فيه صفتان :

١- الخيرية ، أو ما يدلّ عليها كالأفضل والأعدل أو العدل .

٢- البينية ، سواء أكانت حسية أو معنوية .

فإذا جاء أحد الوصفين دون الآخر فلا يكون داخلا في مصطلح الوسطية .

والقول بأن الوسطية ملازمة للخيرية - أي أنّ كلّ أمر يوصف بالخيرية فهو (وسط) - فيه نظر ، والعكس هو الصّحيح ، فكل وسطية تلازمها الخيّرية [١] فلا وسطية بدون خيرية ، ولا عكس .

فلا بد مع الخيرية من البينية حتى تكون وسطًا .

وكذلك البينية - أيضًا - فليس كل شيء بين شيئين أو أشياء يُعتبر وسطيا وإن كان وسطًا . فقد يكون التوسّط حسيا أو معنويا ، ولا يلزم أن يوصف بالوسطية كوسط الزمان أو المكان أو الهيئة ونحو ذلك .

ولكن كل أمر يوصف بالوسطية فلا بد أن يكون بينيا حسا أو معنى .

ومن هنا نخلص إلى أن أي أمر اتصف بالخيرية والبينية جميعًا فهو الذي يصحْ أن نُطلق عليه وصف : الوسطية ، وما عدا ذلك فلا [٢] .

وسأذكر بعض الأمثلة التي توضّح ذلك :

١- جاء وصف هذه الأمة بالوسطية في قوله - تعالى - : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً

---

[١] قال ابن عاشور بعد بيان معنى الوسط : فمن أجل ذلك صار معنى النفاسة والعزة والخيار من لوازم معنى الوسط عرفًا ، فأطلقوه على الخيار النفيس . انظر : التحرير والتنوير (٢/ ١٧) ، وقال رشيد رضا : فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر ، أي : المتوسط بينهما . انظر : تفسير المنار (٢/ ٤) .

[٢] سيأتي مزيد تفصيل لهذا عند الحديث عن ملامح الوسطية ، حيث سأذكر بعض الضوابط لإطلاق هذا المصطلح - إن شاء الله - .

وَسَطًا ﴾ [1] (البقرة : من الآية ١٤٣) وصح عنه ، ﷺ أنه فسر الوسط هنا بالعدل [2] وفي رواية : ((عدولا)) [3] . والمعنى واحد .

وإذا نظرنا إلى العدل وجدناه يتضمن معنى الخيرية ، والعدل كذلك يُقابله الظّلم ، والظّلم له طرفان ، فإذا مال الحاكم إلى أحد الخصمين فقد ظلم ، والعدل وسط بينهما ، دون حيف إلى أي منهما [4] .

ولذلك فقول صاحب (الوسطية في الإسلام) [5] .

" ولا يلزم لكل ما يعتبر وسطًا في الاصطلاح أن يكون له طرفان ، فالعدل وسط ولا يقابله إلا الظلم " . قول غير مسلم في أصله ومثاله ، أما الأصل فقد بيّنته سابقًا ، وأمّا المثال : فإن الظلم له طرفان كل منهما يصدق عليه وصف الظلم ، والعدل وسط بينهما . ويوضّح وسطية الإسلام ووسطية هذه الأمة ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حيث قال : والفرقة الناجية أهل السّنة ، وهم وسط في النحل ، كما أن ملة الإسلام وسط في الملل ، فالمسلمون وسط في أنبياء الله ، ورسوله ، وعباده الصّالحين ، لم يغلو فيهم كما غلت النصارى فـ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [6] (التوبة : ٣١) ولا جفوا عنهم كما جفت اليهود ، فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حقّ ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، وكلما جاءهم

---

[1] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

[2] كما عند البخاري وقد تقدّم تخريجه ص (١٩) .

[3] كما في رواية الطبري . انظر : ص (٢٠) .

[4] ومثل ذلك - أيضًا - قوله - تعالى - : (قال أوسطهم) . [سورة القلم ، الآية : ٢٨] . فإن جمهور المفسرين فسروها " بأعدلهم " كما سبق ، والعدل وسط بين طرفي الظلم كما قررت هنا ، فاجتمعت الصفتان : البينية والخيرية .

[5] انظر : الوسطية في الإسلام ص (٣٣) .

[6] سورة التوبة آية : ٣١ .

رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقًا وقتلوا فريقًا .

بل المؤمنون آمنوا برسل الله ، وعزروهم ، ونصروهم ، ووقّروهم ، وأحبّوهم ، وأطاعوهم ، ولم يعبدوهم ، ولم يتّخذوهم أربابًا ، كما قال - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [1] (آل عمران : ٧٩ ، ٨٠)

ومن ذلك أن المؤمنين توسّطوا في المسيح ، فلم يقولوا هو الله ، ولا ابن الله ، ولا ثالث ثلاثة ، كما تقول النصارى ، ولا كفروا به ، وقالوا على مريم بهتانًا عظيمًا ، حتى جعلوه ولد بغيّة ، كما زعمت اليهود .

بل قالوا : هو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، وروح منه .

وكذلك المؤمنون وسط في شرائع دين الله ، فلم يُحرّموا على الله أن ينسخ ما يشاء ، ويمحو ما يشاء ويثبت ، كما قالته اليهود ، كما حكى الله عنهم ذلك بقوله: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [2] (البقرة : من الآية ١٤٢)

وبقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ ﴾ [3] (البقرة : من الآية ٩١) .

ولا جوّزوا لأكابر علمائهم وعبّادهم أن يغيّروا دين الله ، فيأمروا بما شاءوا وينهوا عما شاءوا ، كما يفعله النّصارى ، كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ

---

[1] سورة آل عمران آية : ٧٩ ، ٨٠ .
[2] سورة البقرة آية : ١٤٢ .
[3] سورة البقرة آية : ٩١ .

﴿ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [1] (التوبة : من الآية ٣١) .

والمؤمنون قالوا : لله الخلق والأمر ، فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره ، وقالوا : سمعنا وأطعنا .

إلى أن قال - رحمه الله - وهذا باب يطول وصفه . . . [2] .

ومما سبق يتضح معنى الوسطية في قوله - تعالى - : ﴿ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [3] (البقرة : من الآية ١٤٣) .

والقارئ لكلام شيخ الإسلام ، يتضح له التلازم بين الخيرية والبينية في استخراج معنى الوسطية في ضوء المنهج الذي سلكه ابن تيمية - رحمه الله - للوصول إلى تحقيق هذه المسألة ، وبيان اتّصاف هذه الأمة بذه الصّفة الحميدة .

وقبل ذلك سلك الطبري هذا المنهج في تفسـيره لقوله - تعالى - : ﴿ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [4] (البقرة : من الآية ١٤٣) كما سبق .

٢- عن عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ، ﷺ ﴿ثلاث من فعلهن فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمان : من عبد الله وحده ، وعلم أنه لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيّبة با نفسه ، رافدة عليه كل عام ، ولم يعط الهرمة ولا الدرة ولا المريضة ، ولا الشّرط اللئيمة ، ولكن من وسط أموالكم ، فإن الله لم يسألكم خيره ، ولم يأمركم بشرّه﴾ [5] رواه أبو داود . [1] .

---

[1] سورة التوبة آية : ٣١ .

[2] من أراد مزيد بيان لما ذكره شيخ الإسلام فليرجع إلى كتابه العقيدة الواسطية ، وتفسير القاسمي (٢/ ٢٨٧) فقد ذكر كلامه كاملا .

[3] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

[4] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

[5] أبو داود الزكاة (١٥٨٢) .

وهنا نجد أن الوسطية واضحة في هذا التوجيه النبويّ ، فالبينية صريحة في الحديث ، أمّا الخيرية فهي ظاهرة لمن تأمل من خلال ما يلي :

١- أمر الرسول ، ﷺ بذلك دليل على هذه الخيرية ، فلا يأمر ، ﷺ إلا بخير ، ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّى بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ [٢] (الأعراف : من الآية ٢٩) . وهل أمرُ الرسول ، ﷺ إلا وحي يُوحى .

٢- أننا عندما نُريد أن نستخرج معنى الخيرية لا ننظر من طرف واحد فقط ، فإذا نظرنا إلى مصلحة الفقير فقط قلنا : إن الخيرية في السّمينة السّليمة الأفضل مما هو من أجود الأغنام وأغلاها .

وإذا نظرنا إلى خيرية الغني - في الدنيا - قلنا إن الأسهل عليه أن يُخرج الضعيفة الهزيلة ونحوها .

ولكن الخيرية الكاملة أن ننظر إلى مصلحة الفقير ومصلحة الغني - صاحب المال - جميعًا ، دون ترجيح لإحدى المصلحتين على الأخرى ، وهذه هي الوسطية ، وذلك باستخراج ما بين أفضلها وأضعفها - وهي الوسط - وذلك مثل قوله - تعالى - : ﴿ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ ﴾ [٣] (المائدة : من الآية ٨٩) .

وهنا اتضح لنا التلازم بين الخيرية والبينية في تحقيق معنى الوسطية .

٣- روى الإمام البخاريّ في **صحيحه** أن أبا بكر رضي الله عنه خطب يوم السّقيفة ، وكان مما قال يُخاطب الأنصار : ((ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش ، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا)) الحديث [٤] .

---

[١] أخرجه أبو داود (٢/ ١٠٣ ، ١٠٤) رقم (١٥٨٢) ، والطبراني في الصغير ص (١١٥) . والبيهقي في السنن (٤/ ٩٥) . وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٣٠٤١) .

[٢] سورة الأعراف آية : ٢٩ .

[٣] سورة المائدة آية : ٨٩ .

[٤] صحيح البخاري (٤/ ١٩٤) . وأحمد في المسند (١/ ٥٥ ، ٥٦) .

والوسطية المرادة هنا يظهر فيها معنى الخيرية جليا لا لُبْسَ فيه ، فأين البينية ؟

إن التأمّل والتّمعنّ في هذه الوسطية يوصّل الباحث إلى حقيقة مهمة ، وهي أن قريشًا امتازت بصفات أهّلتها لأن تكون خير العرب ، وهذه الصّفات من الشّجاعة والكرم وسائر الصّفات الحميدة ، هي في حقيقتها صفات وسطية بينية بين مجموعة من الصّفات المتضادّة ، وهم اّتصفوا بأفضل هذه الصّفات ، دون إفراط أو تفريط ، أو غلوّ أو جفاء ، ولذلك فقد نالوا هذه المنـزلة الرفيعة من كون العرب لا تدين إلا لهم ، وما ذلك إلا لثقتهم في عدلهم وتميّزهم عن غيرهم ، واجتماع العرب عليهم دليل على قبولهم من قبائل وأطراف متنافرة في أخلاقها ، متباينة في طباعها ، وذلك لخصيصة الوسطية فيهم ، ويصدق فيهم قول زهير : إن التأمّل والتّمعنّ في هذه الوسطية يوصّل الباحث إلى حقيقة مهمة ، وهي أن قريشًا امتازت بصفات أهّلتها لأن تكون خير العرب ، وهذه الصّفات من الشّجاعة والكرم وسائر الصّفات الحميدة ، هي في حقيقتها صفات وسطية بينية بين مجموعة من الصّفات المتضادّة ، وهم اّتصفوا بأفضل هذه الصّفات ، دون إفراط أو تفريط ، أو غلوّ أو جفاء ، ولذلك فقد نالوا هذه المنـزلة الرفيعة من كون العرب لا تدين إلا لهم ، وما ذلك إلا لثقتهم في عدلهم وتميّزهم عن غيرهم ، واجتماع العرب عليهم دليل على قبولهم من قبائل وأطراف متنافرة في أخلاقها ، متباينة في طباعها ، وذلك لخصيصة الوسطية فيهم ، ويصدق فيهم قول زهير :

هم وسـط يرضى الأنام بحكمـهم ... إذا نـزلت إحـدى الليـالي بمعـظم[1]

العدل هو سبب قبول حكمهم ، والعدّل فيه صفة البينية بين نوعي الظلم ، ولذلك كان وسطًا ، فكذلك سائر صفاتم .

وبذا يتضح أن الخيرية والبينية - المعنوية -هي التي أهّلتهم لأن يكونوا وسطًا نسبًا ودارًا .

[1] انظر : تفسير الطبري (٢/ ٦) .

وتأمّل معي ما قاله رشيد رضا في تفسيره : قالوا إن الوسط هو العدل والخيار ، وذلك أن الزّيادة على المطلوب في الأمر إفراط ، والنّقص عنه تفريط وتقصير ، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر أي : المتوسّط بينهما [1] .

وأختم هذا المبحث بكلام جيد يتفق مع ما ذكرتُ وقرّرتُ ، ذَكَرَهُ الدكتور زيد في كتابه : (الوسطية في الإسلام) . وكان مما قال [2] .

الوسط من كل شيء أعدله ، فالوسط إذن ليس مجرّد كونه نقطة بين طرفين ، أو وسطية جزئية ، كما يقال فلان وسط في كرمه ، أو وسط في دراسته ، ويُراد أنه وسط بين الجيد والرّديء ، فهذا المفهوم وإن درج عند كثير من الناس ، فهو فهم ناقص مجتزأ ، أدى إلى إساءة فهم معنى الوسطية المقصودة .

وعلى هذا فالوسط المراد والمقصود هنا ، هو العدل الخيار والأفضل ، إلى أن قال :

وبالتالي لم يبق معنى الوسطية مجرد التّجاور بين الشيئين فقط ، بل أصبح ذا مدلول أعظم ، ألا وهو البحث عن الحقيقة ، وتحصيلها والاستفادة منها .

ثم يقول : وهو معنى يتسع ليشمل كل خصلة محمودة لها طرفان مذمومان ، فإن السّخاء وسط بين البخل والتّبذير ، والشّجاعة وسط بين الجبن والتهوّر ، والإنسان مأمور أن يتجنب كل وصف مذموم ، وكلا الطرفين هنا وصف مذموم ، ويبقى الخير والفضل للوسط .

ومن خلال ما سبق من الأمثلة ، وما ذكرته من الأدلة من الكتاب والسنة ، والكلام المأثور من لسان العرب وأقوال السّلف اتضح لنا ما بيّنته من التلازم بين الخيرية والبينية -

---

[1] انظر : تفسير المنار (٢/ ٤) .

[2] انظر : الوسطية في الإسلام ص (١٨) وما بعدها .

حسية أو معنويّة - في إطلاق مصطلح (الوسطية) .

ولهذا فعندما أستخدم هذا المصطلح في هذا البحث فإنني أعني به ما يصدق عليه هذا المدلول دون سواه .

وما عدا ذلك فلا يدخل في هذا البحث ، وإن كان داخلا في معنى الوسط ، كما سبق بيانه ، فهو من الوسط لا الوسطية .

وكذلك ما كان خيرًا أو فاضلا فلا يلزم أن يكون (وسطًيا) وإن كان محمودًا .

قال يوسف كمال : فهناك فضائل ليست وسطية كالصدق الذي يقابله الكذب [1] .

---

[1] انظر : مستقبل الحضارة ليوسف كمال ص (١٢٧) ، وإن كان بعض العلماء يرى أن كل أمر أمر الله به فهو وسط بين خلقين ذميمين ، والصدق قد أمر الله به . انظر : القواعد الحسان لتفسير القرآن للسعدي ص (٩٠) .

أسس فهم الوسطية

بعد أن تبين لنا أن الوسطية لا بدّ لها من توافر أمرين ، وهما : الخيرية والبينية ، فإن هناك أُسُسًا لا بدّ من بيانا ، ليتحدد معنى الوسطية على الوجه الدّقيق . وتلك الأسس مطردة مع شَرْطَي الخيرية والبينية ، وهذه الأسس هي :

١- الغلوّ أو الإفراط .

٢- الجفاء أو التفريط .

٣- الصّراط المستقيم .

فالصّراط المستقيم يُمثل الخيرية ويُحقّق معناها ، وهو وسط بين الغلوّ والجفاء ، أو الإفراط والتفريط ، وهذا يُحقّق وصف البينية وشرطها الذي ذكرت أنه من لوازم الوسطية .

وسأقف مبيّنًا هذه الأُسس مبتدئًا بالغلوّ والإفراط ، ثم الجفاء والتفريط ، ثم أُبين معنى وحقيقة الصّراط المستقيم ، وبضدّها تتبين الأشياء .

وحيث إن هذا البحث مستمد من كتاب الله - تعالى - فسأُركز على تحديد معنى هذه الأُسس من خلال القرآن الكريم والسنة المبينة لذلك ، ثم كلام المفسّرين وغيرهم من العلماء ، ومن الله أستمدّ العون والتوفيق .

أولا الغلو والإفراط

الغلو عند أهل اللغة

أما الغلوّ فقد عرفه أهل اللغة بأنه مجاوزة الحدّ ، فقال ابن فارس :

غلّو : الغين واللام والحرف المعتلّ أصل صحيح يدلّ على ارتفاع ومجاوزة قدر ، يُقال : غلا السّعر يغلو غلاء ، وذلك ارتفاعه ، وغلا الرجل في الأمر غلوا ، إذا جاوز حده ، وغلا بسهمه غلوا إذا رمى به سهم أقصى غايته [(١)] .

وقال الجوهري : وغلا في الأمر يغلو غلوا ، أي جاوز فيه الحدّ [(٢)] .

وقال في **لسان العرب :** وغلا في الدّين والأمر يغلو غلوا : جاوز حده ، وفي التّنـزيل : ﴿ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ ﴾ [(٣)] (النساء : من الآية ١٧١) .

وقال بعضهم : غلوْتَ في الأمر غلوا وغلانية وغلانيًا إذا جاوزت فيه الحدّ وأفرطّت فيه .

وفي الحديث : ﴿ إيّاكم والغلوّ في الدّين ﴾ [(٤)] [(٥)] أي : التشدّد فيه ومجاوزة الحدّ ، كالحديث الآخر : ﴿ إن هذا الدّين متين فأوغل فيه برفق ﴾ [(٦)] [(٧)] . وغلا السّهم نفسه : ارتفع في ذهابه وجاوز المدى ، وكلّه من الارتفاع والتجاوز .

ويقال للشيء إذا ارتفع : قد غلا ، وغلا النبت : ارتفع وعظم [(٨)] .

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة مادة (غلو) (٤/ ٣٨٧) .

(٢) انظر : الصحاح مادة (غلا) (٦/ ٢٤٤٨) .

(٣) سورة النساء آية : ١٧١ .

(٤) النسائي مناسك الحج (٣٠٥٩) ، ابن ماجه المناسك (٣٠٢٩) ، أحمد (٢١٥/١) .

(٥) أخرجه النسائي (٥/ ٢٦٨) رقم (٣٠٥٧) . وابن ماجه (٢/ ١٠٠٨) رقم (٣٠٢٩) وأحمد (١/ ٢١٥ ، ٣٤٧) ، وصححه الحاكم (١/ ٤٦٦) ، ووافقه الذهبي ، وصححه - أيضًا- الألباني كما في السلسلة الصحيحة رقم (١٢٨٣) ، وصحيح الجامع رقم (٢٦٨٠) .

(٦) أحمد (٣/ ١٩٩) .

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٩) وحسنه الألباني ، وعزاه أيضًا للبزار والبيهقي ، كما في صحيح الجامع رقم (٢٢٤٦) ، ولفظ الحديث : " فأوغلوا " .

(٨) انظر : لسان العرب ، مادة : " غلا " .

الغلو عند أهل التفسير

هذا معنى الغلوّ في اللغة ، وقد ورد في القرآن الكريم آيتان فيهما النهي عن الغلوّ بلفظه الصريح ، قال - تعالى - في سورة النساء : ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾ [1] (النساء : من الآية ١٧١) قال الطبري :

يقول : لا تجاوزوا الحقّ في دينكم فتُفْرِطُوا فيه .

وأصل الغلوْ في كل شيء مجاوزة حدّه الذي هو حدّه ، يقال منه في الدّين : قد غلا فهو يغلو غلوا [2] .

وقال ابن الجوزي في تفسير هذه الآية :

والغلوّ : الإفراط ومجاوزة الحدّ ، ومنه : غلا السعر ، وقال الزجاج : الغلوّ : مجاوزة القدر في الظّلم .

وغلوّ النصارى في عيسى قول بعضهم : هو الله ، وقول بعضهم : هو ابن الله ، وقول بعضهم : هو ثالث ثلاثة .

وعلى قول الحسن : غلوّ اليهود فيه قولهم : إنه لغير رشده . وقال بعض العلماء : لا تغلو في دينكم بالزّيادة في التّشدد فيه [3] .

وقال ابن كثير : يَنهى - تعالى -أهل الكتاب عن الغلوّ والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحدّ في عيسى حتى رفعوه فوق المنـزلة التي أعطاها الله إياها ، فنقلوه من حيز النّبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه كما يعبدونه ، بل غلوًا في أتباعه وأشياعه ، ممن زعم أنه على دينه ، فادّعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه ، سواء كان حقا أو باطلا ، أو ضلالا أو رشادًا ، أو صحيحًا أو كذبًا ، ولهذا

---

[1] سورة النساء آية : ١٧١ .

[2] انظر : تفسير الطبري (٦/ ٣٤) .

[3] انظر : زاد المسير (٢/ ٢٦٠) .

قـال - تعالى - : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [1] (التوبة : من الآية ٣١) [2] .

أما الآية الثانية فجاءت في سورة المائدة ، قال - تعالى - : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [3] (المائدة : ٧٧)

قال الطبري : يقول : لا تُفْرِطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح فتجاوزوا فيه الحقّ إلى الباطل ، فتقولوا فيه : هو الله ، أو هو ابنه ، ولكن قولوا : هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه [4] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : والنصارى أكثر غلوا في الاعتقادات والأعمال من سائر الطّوائف ، وإياهم نهى الله عن الغلوّ في القرآن [5] .

ومِنْ غُلوّ النّصارى ما ذكره الله في سورة الحديد : ﴿ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ ﴾ [6] (الحديد : من الآية ٢٧) .

قال ابن كثير في آية المائدة :

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [7] (المائدة : من الآية ٧٧) .

---

(١) سورة التوبة آية : ٣١ .
(٢) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٥٨٩) .
(٣) سورة المائدة آية : ٧٧ .
(٤) انظر : تفسير الطبري (٦/ ٣١٦) .
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٨٩) .
(٦) سورة الحديد آية : ٢٧ .
(٧) سورة المائدة آية : ٧٧ .

أي لا تجاوزوا الحدّ في اتّباع الحقّ ، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه من حيز النبوة إلى مقام الإلهية ، كما صنعتم في المسيح ، وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهًا من دون الله [١] .

ذكر الغلو في الحديث النبوي

وقد وردت بعض الأحاديث التي تنهى عن الغلّو ، وذِكْرُ بعضها يساعد على فَهم معناه وحدّه :

١- عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ، ﷺ غداة جمع : ﴿ هلّم القط لي الحصى ﴾ [٢] ، فلقطت له حصيات من حصى الحذف ، فلما وضعهن في يده قال : ﴿ نعم بأمثال هؤلاء وإّياكم والغلّو في الدّين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلّو في الدّين ﴾ [٣] [٤] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وهذا عام في جميع أنواع الغلّو في الاعتقادات والأعمال ، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار ، وهو داخل فيه ، مثل الرّمي بالحجارة الكبار بناء على أنها أبلغ من الصّغار ، ثم علله بما يقتضي مجانية هديهم ، أي هدي من كان قبلنا إبعادًا عن الوقوع فيما هلكوا به ، وأن المشارك لهم في بعض هديهم يُخاف عليه من الهلاك [٥] .

---

[١] انظر : تفسير ابن كثير (٢/ ٨٢) .

[٢] النسائي مناسك الحج (٣٠٥٧) ، ابن ماجه المناسك (٣٠٢٩) ، أحمد (١/ ٢١٥) .

[٣] النسائي مناسك الحج (٣٠٥٧) ، ابن ماجه المناسك (٣٠٢٩) ، أحمد (١/ ٢١٥) .

[٤] أخرجه النسائي (٥/ ٢٦٨) رقم (٣٠٥٧) . وابن ماجه (٢/ ١٠٠٨) رقم (٣٠٢٩) وأحمد (١/ ٢١٥ ، ٣٤٧) ، وصححه الحاكم (١/ ٤٦٦) ، ووافقه الذهبي ، وصححه - أيضًا- الألباني كما في السلسلة الصحيحة رقم (١٢٨٣) ، وصحيح الجامع رقم (٢٦٨٠) .

[٥] انظر : تيسير العزيز الحميد ص (٢٧٥) والغلو في الدين لعبد الرحمن بن معلا اللويحق ص (٦٨) .

٢- عن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ، ﷺ ﴿ هلك المتنطّعون ﴾ [(١)] قالها ثلاثًا [(٢)] .

قال النوويُ : هلك المتنطّعون : أي المتعمقون المغالون الـاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم [(٣)] .

٣- وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ، ﷺ كان يقول : ﴿ لا تشدّدوا على أنفسكم فُيشدد الله عليكم ، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والدّيار ﴿ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَـٰهَا عَلَيۡهِمۡ ﴾ [(٤)] ﴾ (الحديد : من الآية ٢٧) .

٤- وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ، ﷺ قال : ﴿ إن هذا الدّين ُيسر ، ولن ُيشاّدّ الدّين أحد إلا غلبه ، فسدّدوا ، وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشيء من الدلجة ﴾ [(٥)] [(٦)] . وفي لفظ : ﴿ القصد القصد تبلغوا ﴾ [(٧)] [(٨)] .

قال ابن حَجَر : والمعنى : لا يتعمّق أحد في الأعمال الدّينية ، ويترك الرّفق إلا عجز وانقطع فُيغلب [(٩)] .

قال عبد الرحمن بن معلا : وحتى لا يقع ذلك جاء ختام الحديث آمرًا بالتسديد

---

(١) مسلم العلم (٢٦٧٠) ، أبو داود السنة (٤٦٠٨) ، أحمد (١/ ٣٨٦) .
(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٥٥) رقم (٢٦٧٠) . وأبو داود (٤/ ٢٠١) رقم (٤٦٠٨) . وأحمد (١/ ٣٨٦) .
(٣) شرح مسلم للنووي (١٦/ ٢٢٠) .
(٤) سورة الحديد آية : ٢٧ .
(٥) البخاري المرضى (٥٣٤٩) ، مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٣٤) ، أحمد (٢/ ٥١٤) .
(٦) أخرجه البخاري (١/ ١٥) . والنسائي (٨/ ١٢٢) رقم (٥٠٣٤) .
(٧) البخاري الرقاق (٦٠٩٨) ، أحمد (٢/ ٥١٤) .
(٨) أخرجه البخاري (٧/ ١٨١ ، ١٨٢) ، وأحمد (٢/ ٥١٤) .
(٩) انظر : فتح الباري (١/ ٩٤) .

والمقاربة ، قال ابن رجب : والتّسديد العمل بالسداد ، وهو القصد والتوسّط في العبادة ، فلا يقصر فيما أمر به ، ولا يتحمل منها ما لا يُطيقه [(١)] .

٥- وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الرحمن بن شبل أن رسول الله ﷺ ، قال : ﴿اقرأوا القرآن ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به ، ولا تجفوا عنه ، ولا تغلو فيه﴾ [(٢)] [(٣)] .

٦- وروي عنه ، ﷺ أنه قال : ﴿يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين﴾ [(٤)] .

وكلّ هذه الأحاديث تدلّ على أن الغلّو خروج عن المنهج ومجاوزة للحدّ ، وفعل ما لم يشرعه الله ولا رسوله ، ﷺ ولست بصدد ذكر الأحاديث التي تنهى عن الغلّو وتذمّه دون تصريح به ، فهي كثيرة جدا ، ومن أشهرها قصة الذين جاءوا وسألوا عن عمل الرسول ، ﷺ في السرّ ، فكأنهم تقالّوا ، فكان من مقولتهم ما هو معروف ، وكيف واجه رسول الله ، ﷺ هذا الأمر [(٥)] .

بل لم أرد حصر جميع الأحاديث التي ورد فيها لفظ الغلّو مصرحًا به ، وإنما اخترتُ هذه الأحاديث للدلالة على ما نحن بصدده ، وهو تحديد معنى الغلّو ومفهومه وحكمه ، ومن ثم علاقته بالوسطية .

---

(١) انظر : الغلو في الدين ص (٦٩) . والمحجة في سير الدلجة لابن رجب ص (٥١) .

(٢) أحمد (٣/٤٢٨) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٢٨ ، ٤٤٤) . قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٧٠ ، ١٧١) : رواه أحمد والبزار بنحوه ، ورجال أحمد ثقات . وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١١٦٨) .

(٤) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن بسنده عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري ، عن رسول الله . به . قال الألباني في تعليقه على أحاديث المشكاة رقم (٢٤٨) : ثم إن الحديث مرسل؛ لأن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري هذا تابعي مقلّ ، كما قال الذهبي ، وراويه عنه : معاذ بن رفاعة ليس بعمدة . لكن الحديث قد روي موصولا من طريق جماعة من الصحابة ، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي- في " بغية الملتمس " .

(٥) وهو حديث أنس المشهور في قصة الثلاثة ، وسيأتي بعد قليل .

وأختم تعريف الغلوّ بذين التّعريفين :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الغلوّ : مجاوزة الحدّ بأن يُزاد في الشيء ، في حمده أو ذمّه على ما يستحقّ ونحو ذلك [1] .

وقال ابن حجر في **تعريفه للغلوّ :** المبالغة في الشيء والتّشديد فيه بتجاوز الحدّ [2] .

وضابط الغلوّ بينة الشيخ سليمان بن عبد الوهاب ، حيث قال : وضابطه تعدّى ما أمر الله به ، وهو الطّغيان الذي نهى الله عنه في قوله : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ [3] (طـه : من الآية ٨١) [4] .

ومما سبق من التعريف اللّغوي للغلوّ وما ورد فيه من آيات وأحاديث ، وكذلك تعريف العلماء يتضح لنا أن الغلوّ هو : مجاوزة الحدّ في الأمر المشروع ، وذلك بالزّيادة فيه أو المبالغة إلى الحدّ الذي يُخرجه عن الوصف الذي أراده وقصده الشارع .

حقائق في بيان حدود الغلو ومعالمه وأنواعه

وإيضاحًا لحقيقة الغلوّ ، وكشفًا لحدوده ومعالمه ، أذكر هذه الحقائق .

أولا : أن منشأ الغلو بحسب متعلقه ينقسم إلى ما يلي [5] .

١ - أن يكون الغلوّ متعلقًا بفقه النّصوص ، كتفسيرها تفسيرًا متشدّدًا يتعارض مع السمة العامة للشريعة ومقاصدها الأساسية فيشدّد على نفسه وعلى الآخرين .

٢- أن يكون الغلوّ متعلّقًا بالأحكام ، ومن صور ذلك :

(أ) إلزام النفس أو الآخرين بما لم يوجبه الله ﷻ عبادة وترهبًا ، ومعيار ذلك الطاقة الذاتية حيث إنّ تجاوز الطاقة في أمر مشروع يعتبر غلوا .

---

[1] انظر : اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٨٩) .

[2] انظر : فتح الباري (١٣/ ٢٧٨) .

[3] سورة طه آية : ٨١ .

[4] انظر : تيسير العزيز الحميد ص (٢٥٦) والغلو في الدين ص (٨٢) .

[5] انظر : كتاب الغلو في الدين فقد ذكر هذه الأقسام ص (٨٣) .

ومن الأدلة على ذلك ، ما رواه أنس بن مالك ﷺ قال : ﴿ دخل النبي ، ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين فقال : ما هذا الحبل ؟ فقالوا : هذا حبل لزينب ، فإذا فترت تعلقت به ، فقال النبي ، ﷺ حلّوه ليصلّ أحدكم نشاطه ، فإذا فتر فليرقد ﴾ [(١)] [(٢)] .

قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث : وفيه الحثّ على الاقتصاد في العبادة ، والنهي عن التعمّق فيها . [(٣)] .

(ب) تحريم الطيبات التي أباحها الله على وجه التعبّد ، أو ترك الضّرورات أو بعضها ، ومن أدلّة ذلك قصة النفر الثّلاثة ، حيث روى أنس بن مالك ﷺ قال : ﴿ جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ، ﷺ يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها ، فقالوا : أين نحن من النبي ، ﷺ فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال أحدهم : أما أنا فأُصلي الليل أبدًا ، وقال آخر : أنا أصوم الدّهر ولا أُفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا .

فجاء رسول الله ، ﷺ فقال : " إنّي لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنّي أصوم وأفطر ، وأصلّي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رَغِبَ عن سنتي فليس مني ﴾ [(٤)] [(٥)] .

وكذلك لو اضطرّ إنسان إلى محرم ، كأكل الميتة أو حيوان محرم ، وَتَرْكُ ذلك يؤّدي به إلى الهلكة ، فإن ذلك من التّشدّد ، وبيان ذلك : أن الله هو الذي حرم هذا الشّيء في حالة اليسر ، وهو - سبحانه - الذي أباح أكله في حالة الاضطرار ، قال - سبحانه - :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ

(١) البخاري الجمعة (١٠٩٩) ، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٨٤) ، النسائي قيام الليل وتطوع النهار (١٦٤٣) ، أبو داود الصلاة (١٣١٢) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٧١) .

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٤٨) ومسلم (١/ ٥٤٢) رقم (٧٨٤) .

(٣) انظر : فتح الباري (٣/ ٣٧) .

(٤) البخاري النكاح (٤٧٧٦) ، مسلم النكاح (١٤٠١) ، النسائي النكاح (٣٢١٧) ، أحمد (٣/ ٢٨٥) .

(٥) أخرجه البخاري (٦/ ١١٦) . ومسلم (٢/ ١٠٢٠) رقم (١٤٠١) .

﴿وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [1] (البقرة : ١٧٣) .

٣- أن يكون الغلوّ متعلّقًا بالحكم على الآخرين ، حيث يقف من بعض الناس موقف المادح الغالي ، ويقف من آخرين موقف الذامّ ، الجافي ويصفهم بما لا يلزمهم شرعًا ، كالفسق أو المروق من الدّين ونحو ذلك .

وفي كلا الحالين يترتب على ذلك أعمال هي من الغلوّ في السلب أو الإيجاب ، كالحبّ والبغض ، والولاء والهجر ، ونحو ذلك .

ثانيًا : أن الغلو في حقيقته حركة في اتجاه القاعة الشرعية والأوامر الإلهية ، ولكنها حركة تتجاوز في مداها الحدود التي حدها الشارع ، فهو مبالغة في الالتزام بالدّين ، وليس خروجًا عنه في الأصل ، بل هو نابع من الرغبة في الالتزام به [2] .

ثالثًا : أن الغلو ليس هو الفعل فقط بل قد يكون تركًا [3] فترك الحلال كالنوم والأكل ونحوه نوع من أنواع الغلو ، إذا كان هذا الترك على سبيل العبادة والتقرّب إلى الله كما يفعل بعض الصّوفية والنباتّيين [4] .

رابعًا : الغلو على نوعين : اعتقاديّ وعمليّ .

والاعتقاديّ على قسمين :

اعتقادي كلّي ، واعتقادي (فقط) .

والمراد بالغلوّ الكلّي الاعتقادي ما كان متعلّقًا بكلّيات الشريعة ، وأمهات مسائلها .

أما الاعتقادي - فقط - فهو ما كان متعلّقًا بباب العقائد دون غيرها ، كالغلوّ في الأئمة وادعاء العصمة لهم ، أو الغلوّ في البراءة من التمع العاصي ، أو تكفير أفراده واعتزالهم .

---

[1] سورة البقرة آية : ١٧٣ .

[2] الغلو في الدين ص (٨٤) .

[3] مع أن الترك قد يكون فعلا .

[4] انظر : الغلو في الدين ص (٨٤) .

ويدخل في الغلوّ الكلّي الاعتقادي الغلوّ في فروع كثيرة إذ إن المعارضة الحاصلة به للشرع مماثلة لتلك المعارضة الحاصلة بالغلوّ في أمر كلّيّ [1] .

أما الغلوّ الجزئي العمليّ ، فهو ما كان غلوا في جزئية من جزئيات الشريعة ومتعلّقًا بباب العمليات دون الاعتقاد ، فهو محصور في جانب الفعل سواءً أكان قولا باللّسان أو عملا بالجوارح [2] .

والغلوّ الكّليّ الاعتقاديّ أشدّ خطرًا ، وأعظم ضررًا من الغلوّ العمليّ ، إذ أن الغلوّ الكليّ الاعتقاديّ هو المؤدّي إلى الشّقاق والانشقاق ، وهو المظهر للفرق والجماعات الخارجة عن الصّراط المستقيم ، وذلك كغلوّ الرّافضة والخوارج [3] .

خامسًا : أنه ليس من الغلو طلب الأكمل في العبادة ؛ بل الغلوّ تجاوز الأكمل إلى ما يؤدّي إلى المشقة ونحوها ، إذ ليس الأكمل في كمية العبادة ، بل يدخل في تحديد الأكمل أمور عدة تتعلّق بالعمل ، ومن قام بالعمل ، وكذلك من له صلة بهذا العمل .

فالصدقة - مثلا - : يُراعى فيها : المتصدق ، والمتصدق عليه ، والمال المتصدق به ، ولا يُسمى كمالا كليا بالنظر للكمال الجزئيّ .

قال ابن المنّير : وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة ، فإنه من الأمور المحمودة ، بل منع الإفراط المؤدّي إلى الملال أو المبالغة في التطوّع المفضي إلى ترك الأفضل [4] .

سادسًا : أن الحكم على العمل بأنه غلو ، أو أن هذا المرء من الغُلاة ، باب خطير ، لا يقدر عليه إلا العلماء الذين يُدركون حدود هذا العمل ، ويعلمون أبواب العقيدة وفروعها ، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوّره ، فقد يكون الأمر مشروعًا ويوصف صاحبه بالغلوّ ، وها نحن نرى اليوم أن الملتزمين بشرع الله ، المتمسكين بالكتاب والسنة يُوصفون بالغلوّ والتّطرف والتزمت ونحوها .

---

[1] ينظر اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٨٩) والغلو في الدين ص (٧٠) .

[2] انظر : الغلو في الدين ص (٧٧) .

[3] انظر : الغلو في الدين ص (٧٠) .

[4] انظر : فتح الباري (١/ ٩٤) والغلو في الدين ص (٨٥) .

ولذلك فإنّ المقياس في الحكم على الأعمال والأفراد والجماعات هو الكتاب والسنة ، وليست الأهواء والأعراف ، وما تواضع عليه الناس ، وقد ضل في هذا الباب أُممٌ وأفراد وجماعات .

وبعد أن تبين لنا معنى (الغلّو) لغة وشرعًا ، وما يتعلق به من معانٍ وأقسام ، أبين معنى (الإفراط) بإيجاز ، حيث ستتضح صلته بالغلّو :

تعريف الإفراط

لغة هو : التقدّم ومجاوزة الحدّ .

قال ابن فارس : يُقال : أفرط : إذا تجاوز الحدّ في الأمر ، يقولون : إياك والفرط ، أي لا تجاوز القدر ، وهذا هو القياس ، لأنه إذا جاوز القدر فقد أزال الشيء عن وجهته [١] .

وقال الجوهري : وأفرط في الأمر : أي : جاوز فيه الحدّ [٢] .

وفي لسان العرب : وأمر فُرُط ، أي : مجاوز فيه الحدّ .

والفُرطة - بالضم - : اسم للخروج والتقدّم ، ومنه قول أم سلمة لعائشة : إن رسول الله ، ﷺ نهاك عن الفُرْطَة في البلاد ، وفي رواية : نهاك عن الفُرْطَة في الدّين ، يعني السّبق والتقدّم ومجاوزة الحدّ .

والإفراط : الإعجال والتقدّم ، وأفرط في الأمر : أسرف وتقدم .

وكل شيء جاوز قدره فهو مفرط [٣] .

قال - تعالى - : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [٤] (طـه: من الآية ٤٥).

قال الطبري : وأما الإفراط فهو الإسراف والإشطاط والتعدّي ، يقال منه ، أفرطت

---

[١] انظر : معجم مقاييس اللغة مادة (فرط) (٤/ ٤٩٠) .
[٢] انظر : الصحاح مادة (فرط) (٣/ ١١٤٨) .
[٣] انظر : لسان العرب مادة (فرط) .
[٤] سورة طه آية : ٤٥ .

في قولك ، إذا أسرف فيه وتعدى .

وأما التفريط فهو التواني ، يُقال منه : فرطت في هذا الأمر حتى فات ، إذا توانى فيه .

قال ابن زيد : ﴿ نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ ﴾ [1] (طـه : من الآية ٤٥) قال : نخاف أن يعجل علينا إذ نبلّغه كلامك أو أمرك ، يفرط ويعجّل [2] .

وقال الفراء : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ ﴾ [3] (طـه : من الآية ٤٥) قال : يعجّل إلى عقوبتنا [4] .

ونخلص مما سبق أن معنى الإفراط : تجاوز الحدّ ، والتقدّم عن القدر المطلوب ، وهو عكس التفريط - كما سيأتي- .

ومن خلال ما سبق يتضح من تعريفي الغلوّ والإفراط أن كلا منهما يصدق عليه : تجاوز الحدّ ، وقد فسر الغلوّ بالإفراط كما سبق .

وإن كان كل واحد منهما يحمل معنى أبلغ من الثاني في بعض ما يستعمل فيه .

فالذي يُشدّد على نفسه بتحريم بعض الطيبات ، أو بحرمان نفسه منها وصف الغلوّ ألصق به من الإفراط ، والذي يُعاقب من اعتدى عليه عقوبة يتعدى بها حدود مثل تلك العقوبة فوصف الإفراط ألصق به من الغلوّ ، فنقول : عاقبه وأفرط في عقوبته . وهكذا .

والذي يعنينا في هذا المبحث أن كلا من الغلوّ والإفراط خروج عن " الوسطية " فكل أمر استحقّ وصف (الغلوّ) أو (الإفراط) فليس من الوسطية في شيء .

---

(1) سورة طه آية : ٤٥ .

(2) انظر : تفسير الطبري (١٦/ ١٧٠) .

(3) سورة طه آية : ٤٥ .

(4) انظر : لسان العرب مادة (فرط) .

ثانيا التفريط والجفاء

تعريف التفريط

بعد أن عرفنا معنى الغلوّ والإفراط ، وما يدّل عليه كل منهما ، نقف الآن مع ما يقابلهما ، وهو : التفريط والجفاء . والتفريط في اللغة هو التضييع كما في لسان العرب .

وقال الزجاج : ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [1] (الكهف : من الآية ٢٨) . أي كان أمره التفريط وهو تقديم العجز .

وفي حديث عليّ رضي الله عنه لا يرى الجاهل إلا مفْرِطًا أو مفرطًا ، وهو بالتخفيف : المسرف في العمل ، وبالّتشديد المقصر فيه .

ومنه الحديث : « أنه نام عن العشاء حتى تفرّطت » أي : فات وقتها قبل أدائها .

وفرّط في الأمر يُفرط فرطًا ، أي : قصر فيه وضيعه حتى فات ، وكذلك الّتفريط [2] .

ومنه قول الرسول ﷺ ، « أما إنه ليس في النوم تفريط » [3] [4] . وإذن فالتفريط هو التقصير والتضييع والترك .

قال ابن فارس : وكذلك التفريط ، وهو التقصير ، لأنه إذا قصر فيه فقد قعد به عن رتبته التي هي له [5] .

وقال الجوهري : فرط في الأمر فرطًا : أي قصر فيه ، وضيعه ، حتى فات ، وكذلك التفريط [6] .

---

[1] سورة الكهف آية : ٢٨ .

[2] انظر لكل ما سبق : لسان العرب ، مادة (فرط) .

[3] مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٦٨١) ، الترمذي الصلاة (١٧٧) ، أبو داود الصلاة (٤٣٧) ، أحمد (٢٩٩/٥) .

[4] جاءت هذه العبارة في حديث أبي قتادة الطويل . أخرجه مسلم (١/ ٤٧٣) رقم (٦٨١) . وأخرجه مختصرًا : أبو داود (١/ ١٢١) رقم (٤٤١) . والترمذي (١/ ٣٣٤) رقم (١٧٧) . والنسائي (١/ ٢٩٤) رقم (٦١٤) . وغيرهم .

[5] معجم مقاييس اللغة مادة (فرط) (٤/ ٤٩٠) .

[6] انظر : الصحاح مادة (فرط) (٣/ ١١٤٨) .

وقد وردت مادة (فرط) في القرآن في عدة مواضع .

قال - تعالى - : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [1] (الأنعام : من الآية ٣١) .

قال الطبري : يقول : يا ندامتنا على ما ضيّعنا فيها .

قال السّدي : أما ﴿ يَـٰحَسْرَتَنَا ﴾ [2] (الأنعام : من الآية ٣١) فندامتنا على ما فرطنا فيها ، فضيعنا من عمل الجنة [3] .

وقال القرطبي: وفرطنا معناه ضيعنا ، وأصله التقدّم ، فقولهم: ﴿ فَرَّطْنَا ﴾ [4] (الأنعام : من الآية ٣١) أي : قدمنا العجز .

وقيل : " فرطنا " أي : جعلنا غير الفارط السابق لنا إلى طاعة الله وتخلّفنا [5] .

وقال - تعالى- في سورة الأنعام أيضًا : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ﴾ [6] (الأنعام : من الآية ٣٨) .

قال الطبريّ : معناه : ما ضيعنا إثبات شيء منه [7] .

وقال ابن عباس : ما تركنا شيئًا إلا وقد كتبناه في أمّ الكتاب [8] .

وقال ابن زيد : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ﴾ [9] (الأنعام : من الآية ٣٨) قال :

---

(١) سورة الأنعام آية : ٣١ .
(٢) سورة الأنعام آية : ٣١ .
(٣) انظر : تفسير الطبري (٧/ ١٧٨) .
(٤) سورة الأنعام آية : ٣١ .
(٥) انظر : تفسير القرطبي (٦/ ٤١٣) .
(٦) سورة الأنعام آية : ٣٨ .
(٧) انظر : تفسير الطبري (٧/ ١٨٨) .
(٨) انظر : تفسير الطبري (٧/ ١٨٨) .
(٩) سورة الأنعام آية : ٣٨ .

لم نغفل ، ما من شيء إلا وهو في الكتاب [١] .

وقال - تعالى - : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [٢] (الأنعـام : من الآية ٦١) .

قال الطبري : قد بينا أن معنى التفريط : التضييع فيما مضى قبل ، وكذلك تأوّله المتأولون في هذا الموضع .

قال ابن عباس : " لا يُفرّطون " . لا يضيعون .

وكذلك قال السّديّ : " لا يفرّطون " . لا يضيعون [٣] .

وفي سورة يوسف : ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾ [٤] (يوسف : من الآية ٨٠) .

قال الطبري : ومن قبل فعلتكم هذه تفريطكم في يوسف ، يقول : أولم تعلموا من قبل هذا تفريطكم في يوسف [٥] .

قال القاسمّ : ﴿ فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾ [٦] (يوسف : من الآية ٨٠) قصرتم في شأنه [٧] .

وقال - تعالى - في سورة النحل : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [٨] (النحل : ٦٢) .

---

[١] انظر : تفسير الطبري (٧/ ١٨٨) .
[٢] سورة الأنعام آية : ٦١ .
[٣] انظر : تفسير الطبري (٧/ ٢١٨) .
[٤] سورة يوسف آية : ٨٠ .
[٥] انظر : تفسير الطبري (١٣/ ٣٥) .
[٦] سورة يوسف آية : ٨٠ .
[٧] انظر : تفسير القاسمي (١٣/ ٣٥) .
[٨] سورة النحل آية : ٦٢ .

قال سعيد بن جبير : ﴿ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [1] (النحل : من الآية ٦٢) منسّيون مضيّعون .

وقال الضحاك : متروكون في النار .

وقال قتادة : مضاعون .

وقال آخرون : إنهم معجلون إلى النار مقدّمون إليها ، وذهبوا في ذلك إلى قول العرب : أفرطنا فلانًا في طلب الماء إذا قدّموه لإصلاح الدّلاء والأرشية . وقيل غير ذلك .

ورجّح الطبري أن معنى ﴿ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [2] (النحل : من الآية ٦٢) مخلّفون متروكون في النار ، منسّيون فيها [3] .

وقال - تعالى - في سورة الكهف : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [4] (الكهف : من الآية ٢٨) .

روي عن مجاهد : ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [5] (الكهف : من الآية ٢٨) ضائعًا .

وروي عنه : ضياعًا .

قال الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصّواب ، قول من قال : معناه : ضياعًا وهلاكًا ، من قولهم : أفرط فلان في هذا الأمر إفراطًا ، إذ أسرف فيه وتجاوز قدره ، وكذلك قوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [6] (الكهف : من الآية ٢٨) معناه : وكان أمر هذا الذي أغفلنا قلبه عن ذكرنا في الرّياء والكبر ، واحتقار أهل الإيمان ، سرفًا قد

---

(١) سورة النحل آية : ٦٢ .
(٢) سورة النحل آية : ٦٢ .
(٣) انظر لما سبق : تفسير الطبري (١٤/ ١٧٧) .
(٤) سورة الكهف آية : ٢٨ .
(٥) سورة الكهف آية : ٢٨ .
(٦) سورة الكهف آية : ٢٨ .

تجاوز حدّه ، فضيّع بذلك الحقّ وهلك [1] .

وقال ابن الجوزي : في الآية أربعة أقوال :

أحدها : أنّه أفرط في قوله ، روي عن ابن عباس .

والثاني : ضياعًا ، قاله مجاهد ، وقال أبو عبيدة ، سرقًا وتضّييعًا .

الثالث : ندمًا ، حكاه ابن قتيبة عن أبي عبيدة .

الرابع : كان أمره التفريط ، والتفريط : تقديم العجز ، قاله الزجاج [2] .

وفي سورة الزمر : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [3] (الزمر : ٥٦) .

قال الطبري : يقول : على ما ضيعت من العمل بما أمرني الله به ، وقصرت في الدنيا في طاعة الله .

وروي مثل ذلك عن مجاهد والسّدّي [4] .

وقال القاسمي : ﴿ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ ﴾ [5] (الزمر : من الآية ٥٦) أي قصرت . ﴿ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [6] (الزمر : من الآية ٥٦) أي في جانب أمره ونيه [7] .

هذه هي الآيات التي ورد فيها ما يدلّ على التفريط ، كما بينت من خلال أقوال المفسّرين ، وكلّها تدلّ على التضييع والتقصير ، والترك والتهاون ، مع اختلاف يسير بين مدلول هذه المعاني .

وكلّها في مقابل الإفراط والغلوّ ، كما سبق بيانها .

---

(1) انظر : تفسير الطبري (١٥/ ٢٣٦) .

(2) انظر : زاد المسير (٥/ ١٣٣) .

(3) سورة الزمر آية : ٥٦ .

(4) انظر : تفسير الطبري (٢٤/ ١٩) .

(5) سورة الزمر آية : ٥٦ .

(6) سورة الزمر آية : ٥٦ .

(7) انظر : تفسير القاسمي (١٤/ ٥١٤٦) .

تعريف الجفاء

أما الجفاء:

فقال ابن فارس : الجيم والفاء والحرف المعتلّ يدلّ على أصل واحد : نبو الشيء عن الشيء ، من ذلك : جفوت الرجل اجفوه ، وهو ظاهر الجفوة ، أي : الجفاء ، وجفا السرج عن ظهر الفرس ، وأجفيته أنا .

وكذلك كل شيء إذا لم يلزم شيئًا يُقال جفا عنه يجفو .

والجفاء : خلاف البّر ، والجفاء : ما نفاه السّيل ، ومنه اشتقاق الجفاء [1] .

وقال ابن منظور [2] جفا الشيء يجفو جفاءً وتجافى : لم يلزم مكانه ، كالسرج يجفو عن الظّهر ، وكالجّنب يجفو عن الفراش ، وفي التنـزيل : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [3] (السجدة : من الآية ١٦) وفي الحديث : ﴿أنه كان يجافي عضديه عن جنبيه في السّجود﴾ [4] [5] أي يباعدهما .

وفي الحديث : ﴿إذا سجدت فتجاف﴾ وهو من الجفاء : البعد عن الشيء ، ومنه الحديث : ﴿اقرءوا القرآن ولا تجفوا عنه﴾ [6] [7] . أي تعاهدوه ولا تبتعدوا عن تلاوته .

---

[1] انظر : مقاييس اللغة مادة (جفو) (١/ ٤٦٥) .
[2] انظر : لسان العرب مادة (جفا) .
[3] سورة السجدة آية : ١٦ .
[4] أبو داود الصلاة (٩٠٠) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (٨٨٦) ، أحمد (٣٤٢/٤) .
[5] أخرجه مسلم (١/ ٣٥٧) رقم (٤٩٧) من حديث ميمونة - رضي الله عنها - . وأخرجه أبو داود (١/ ١٩٤) رقم (٧٣٠) . والنسائي (٢/ ٢١١) رقم (١١٠١) من حديث أبي حميد الساعدي . وأخرجه أحمد (٣/ ٢٩٥) من حديث جابر . وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٤٧٣٨) .
[6] أحمد (٤٢٨/٣) .
[7] أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٢٨ ، ٤٤٤) . قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٧٠ ، ١٧١) : رواه أحمد والبزار بنحوه ، ورجال أحمد ثقات . وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١١٦٨) .

قال أبو عبيد في معنى الجفاء في الحديث : والجافي عنه التارك له ، وللعمل به .

وفي الحديث عن أبي هريرة ، قال : قال ، ﷺ ﴿ الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء في النار ﴾ [1] [2] .

وفي الحديث الآخر : ﴿ مّنْ بدا جفا ﴾ [3] [4] . بالدّال المهملة ، خرج إلى البادية ، أي : من سكن البادية غلظ طبعه ، لقلّة مخالطة الناس .

والجفاء غلظ الطّبع .

وفي صفته ، ﷺ ليس بالجافي المهين ، أي ليس بالغليظ الخلقة ، ولا الطّبع [5] .

وقال - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ ﴾ [6] (الرعد : من الآية ١٧) . قال الطبري : وأما الجفاء ، فإني حدّثت عن أبي عبيدة معمر بن المثنى ، قال : قال أبو عمرو بن العلاء : يُقال : قد أجفأت القدور ، وذلك إذا غلت فانصبّ زبدها ، أو سكنت فلا يبقى منه شيء .

وقد زعم بعض أهل العربية من أهل البصرة أن معنى قوله : ﴿ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ ﴾ [7] (الرعد : من الآية ١٧) تنشفه الأرض ، وقال : يقال : جفا الوادي وأجفى : في معنى نشف [8] .

---

[1] الترمذي البر والصلة (٢٠٠٩) ، أحمد (٢/٥٠١) .

[2] انظر : غريب الحديث (١/ ٤٨٣) ووسطية أهل السنة ص (١٤) وهذا الحديث أخرجه الترمذي (٤/ ٣٢١) رقم (٢٠٠٩) . وقال : حديث حسن صحيح . وابن ماجه (٢/ ١٤٠٠) رقم (٤١٨٤) . وأحمد (٢/ ٥٠١) . وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٣٢٠٠) .

[3] أبو داود الصيد (٢٨٥٩) ، أحمد (٢/٣٧١) .

[4] أخرجه أحمد (٢/ ٣٧١ ، ٤٤٠) . وصححه الألباني كما في السلسلة الصحيحة رقم (١٢٧٢) .

[5] انظر : لسان العرب مادة (جفا) .

[6] سورة الرعد آية : ١٧ .

[7] سورة الرعد آية : ١٧ .

[8] انظر : تفسير الطبري (١٣/ ١٣٧) .

وقال - تعالى - : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [1] (السجدة : من الآية ١٦) .

قال الطبري : تتنحى جنوب هؤلاء الذين يؤمنون بآيات الله ، الذين وصفت صفتهم ، وترتفع عن مضاجعهم التي يَضْطَجعون لمنامهم ، ولا ينامون .

وتتجافى : تتفاعل من الجفاء ، والجفاء : النبو .

وإنما وصفهم - تعالى ذكره - بتجافي جُنوبهم عن المضاجع لتركهم الاضطجاع للنوم شغلا بالصّلاة .

ثم قال : إن الله وصف هؤلاء القوم بأن جنوبهم تنبو عن مضاجعهم ، شغلا منهم بدعاء ربّهم وعبادته ، خوفًا وطمعًا ، وذلك نبوّ جنوبهم عن المضاجع ليلا . . إلخ [2] .

ومما سبق يتضح أن الجفاء هو النبوء والترك والبعد ، وهو غالبًا ما يحدث خلاف الأصل والعادة .

وأكثر ما يرد الجفاء لما هو محظور ومنهيّ عنه ، كالجفاء بما يقابل الصلة والبّر ، والجفاء الذي هو من الشّدة والغلظة ، ونحو ذلك .

أمثلة للتفريط الجفاء

وسأذكر بعض الأمثلة التي يتضح فيها معنى التفريط والجفاء :

١- تأخير الصلاة عن وقتها تفريط ، ولذلك ورد في الحديث : ﴿ أما إنّه ليس في النوم تفريط ، إنما التفريط على من لم يصلّ الصّلاة حتى يجيء وقت الصلاة الآخر ﴾ [3] [4] .

---

[1] سورة السجدة آية : ١٦ .

[2] انظر : تفسير الطبري (٢١/ ٩٩-١٠٢) .

[3] مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٦٨١) ، الترمذي الصلاة (١٧٧) ، أبو داود الصلاة (٤٣٧) ، أحمد (٢٩٩/٥) .

[4] جاءت هذه العبارة في حديث أبي قتادة الطويل . أخرجه مسلم (١/ ٤٧٣) رقم (٦٨١) . وأخرجه مختصرًا : أبو داود (١/ ١٢١) رقم (٤٤١) . والترمذي (١/ ٣٣٤) رقم (١٧٧) . والنسائي (١/ ٢٩٤) رقم (٦١٤) . وغيرهم .

٢- رؤية المنكرات وعدم إنكارها مع القدرة تفريط .

٣- إهمال تربية الأولاد ، تفريط .

٤- ترك الأخذ بالأسباب ، تفريط .

٥- تأخير عمل اليوم إلى الغد - دون سبب - تفريط .

٦- الغلظة في المعاملة ، جفاء .

٧- عقوق الوالدين ، جفاء .

٨- قطع الأرحام وعدم صلتهم ، جفاء وتفريط .

٩- عدم القيام بحقوق العلماء وضعف الصلة بهم ، جفاء وتفريط .

١٠- السلبية مع واقع المسلمين وشئونهم وشجونهم ، جفاء وتفريط .

وبذا يتبين معنى التّفريط والجفاء ، وأن بينهما عمومًا وخصوصًا . وهما يُقابلان معنى الغلوّ والإفراط .

وعند التأمّل في استعمال العرب لهما يلحظ أن الجفاء يستعمل - غالبًا - فيما فيه قصد الأمر من الترك والبعد وسوء الخلق . أما التفريط فمنشؤه - غالبًا - التساهل والتهاون .

الخلاصة

أن كل أمرٍ اتصف بالتفريط أو بالجفاء ، فإنه يُخالف الوسطية ، وبمقدار اتّصافه بأيّ من هذين الوصفين يكون بعده عن الوسطية وتجافيه عنها .

ثالثا الصراط المستقيم

تفسير الصراط المستقيم

بعد أن عرفنا مدلول الغلوّ والجفاء والإفراط والتفريط ، نأتي للحديث عن الصّراط المستقيم .

إننا بدون فهم معنى (الصّراط المستقيم) ، وتحديد مدلوله ، لا نستطيع فهم (الوسطية) على معناها الصّحيح .

وقد ورد لفظ (الصّراط المستقيم) ، في القرآن الكريم عشرات المرات ، وجاء - أيضًا - بلفظ ﴿ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [1] (النساء : من الآية ٦٨) و ﴿ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [2] (الأعراف : من الآية ١٦) و ﴿ صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ [3] (الأنعام : من الآية ١٥٣) ونحو ذلك .

ففي سورة الفاتحة نجد قوله - تعالى - : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [4] (الفاتحة : ٦) ثـم يفسّـره بأنـه: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [5] (الفاتحة : ٧) .

وفي البقرة جاء قوله - تعالى - : ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [6] (البقرة : من الآية ١٤٢) . وجاء بعد هذه الآية مباشرة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [7] (البقرة : من الآية ١٤٣) . وسيأتي بيان العلاقة بين هاتين الآيتين . وعيسى ، عليه السلام ، في سورة آل عمران يقول لقومه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [8] (آل عمران : ٥١) .

ونجد أن سورة الأنعام من أكثر السّور التي ورد فيها الحديث عن الصّراط المستقيم : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [9] (الأنعام : من الآية ٣٩)

---

(١) سورة النساء آية : ٦٨ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٦ .
(٣) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .
(٤) سورة الفاتحة آية : ٦ .
(٥) سورة الفاتحة آية : ٧ .
(٦) سورة البقرة آية : ١٤٢ .
(٧) سورة البقرة آية : ١٤٣ .
(٨) سورة آل عمران آية : ٥١ .
(٩) سورة الأنعام آية : ٣٩ .

﴿ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ﴾ [1] (الأنعام : من الآية ٨٧) ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ ﴾ [2] (الأنعام : من الآية ١٢٦) ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ ﴾ [3] (الأنعام : من الآية ١٥٣) ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [4] (الأنعام : من الآية ١٦١) وفي سورة إبراهيم سماه صراط العزيز الحميد . ﴿ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [5] (إبراهيم : من الآية ١) وفي طه ، وصفه بالسّويّ ، فقال : ﴿ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [6] (طـه : من الآية ١٣٥) وفي الحجّ أضافه للحميد فقال : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [7] (الحج : ٢٤) وفي المؤمنون عرفه دون وصف أو إضافة : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [8] (المؤمنون : ٧٤) وفي مريم يقول إبراهيم ، عليه السلام ، لأبيه : ﴿ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ ﴾ [9] (مريم : من الآية ٤٣) ويقول الله في سورة الأنعام : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ

---

(١) سورة الأنعام آية : ٨٧ .
(٢) سورة الأنعام آية : ١٢٦ .
(٣) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .
(٤) سورة الأنعام آية : ١٦١ .
(٥) سورة إبراهيم آية : ١ .
(٦) سورة طه آية : ١٣٥ .
(٧) سورة الحج آية : ٢٤ .
(٨) سورة المؤمنون آية : ٧٤ .
(٩) سورة مريم آية : ٤٣ .

﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [1] (الأنعام : من الآية ١٥٣) .

هذه بعض الآيات التي وردت في " الصّراط " فما معناه ؟ :

قال الطبري : في قوله - تعالى- : ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [2] (الفاتحة : ٦) .

أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن الصّراط المستقيم هو الطّريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ، وكذلك في لغة جميع العرب ، من ذلك قول جرير الخطفي : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن الصّراط المستقيم هو الطّريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ، وكذلك في لغة جميع العرب ، من ذلك قول جرير الخطفي :

أمــير المؤمــنين علــى صــراطٍ   إذا اعــوج المــوارد مســتقيم [3]

وقال ابن عباس : قال جبريل لمحمد ، ﷺ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [4] يقول : ألهمنا الطّريق الهادي ، وهو دين الله الذي لا عَوجَ له)) [5] .

قال الطبري : وإّنما وصفه الله بالاستقامة ، لأنه صواب لا خطأ فيه [6] .

وقال : كل حائد عن قصد السّبيل ، وسالك غير المنهج القويم فضالّ عند العرب ، لإضلاله وجه الطّريق [7] .

وقال ابن كثير : واختلفت عبارات المفسّرين من السلف والخلف في تفسير الصّراط ، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد ، وهو المتابعة لله ورسوله [8] .

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .

(٢) سورة الفاتحة آية : ٦ .

(٣) انظر : تفسير الطبري (١/ ٧٣) .

(٤) سورة الفاتحة آية : ٦ .

(٥) انظر : تفسير الطبري (١/ ٧٤) .

(٦) انظر : تفسير الطبري (١/ ٧٥) .

(٧) انظر : تفسير الطبري (١/ ٨٤) .

(٨) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٢٧) .

وأعرِضُ الآن بعض أقوال المفسّرين الذين أشار إليهم ابن كثير - رحمه الله - [1] .

فقد روى الطبري عن عليّ بن أبي طالب ﷺ عن النبي ، ﷺ أنه قال : ((وذكر القرآن فقال : هو الصّراط المستقيم)) [2] .

وقال أبو العالية : هو رسول الله ، ﷺ وصاحباه من بعده أبو بكر وعمر ، قال الحسن : صدق أبو العالية ونصح .

وقال القاسمي في تفسير لهذه الآية في سورة الفاتحة : أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في مبحث له مهمّ نأثره عنه هنا لما فيه من الفوائد الجليلة ، قال - رحمه الله تعالى - : ينبغي أن يُعلم أن الاختلاف الواقع من المفسّرين وغيرهم على وجهين :

أحدهما ليس فيه تضادّ وتناقض ، بل يمكن أن يكون كل منهما حقّا ، وإنما هو اختلاف تنوّع ، أو اختلاف في الصّفات أو العبارات .

وعامّة الاختلاف الثابت عن مفسّري السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب .

فالله - سبحانه وتعالى - إذا ذكر في القرآن اسمًا مثل قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [3] (الفاتحة : ٦) فكل من المفسّرين يعبّر عن الصّراط المستقيم بعبارة تدلّ بها على بعض صفاته ، وكل ذلك حقّ ، بمنـزلة ما يُسمي الله ورسوله ، وكتابه بأسماء ، كل اسم منها يدلّ على صفة من صفاته .

فيقول بعضهم : الصّراط المستقيم : كتاب الله أو اّتباع كتاب الله .

ويقول الآخر : الصّراط المستقيم : هو الإسلام أو دين الإسلام .

---

[1] انظر هذه الأقوال في : تفسير الطبري (١/ ٧٤ ، ٧٥) . وزاد المسير (١/ ١٥) .

[2] أخرجه الترمذي (٥/ ١٥٨ ، ١٥٩) رقم (٢٩٠٦) وقال : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول ، وفي الحارث مقال . وأخرجه - أيضًا - الدارمي (٢/ ٥٢٧) رقم (٣٣٣٢) . وأخرجه أحمد مختصرًا (١/ ٩١) . قال الحافظ ابن كثير في فضائل القرآن ص (١١ ، ١٢) : وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي وقد وهم بعضهم في رفعه ، وهو كلام حسن صحيح .

[3] سورة الفاتحة آية : ٦ .

ويقول الآخر : الصّراط المستقيم : هو السنة والجماعة .

ويقول الآخر : الصّراط المستقيم : هو العبودية ، أو طريق الخوف والرضى والحبّ ، وامتثال المأمور ، واجتناب المحظور ، أو متابعة الكتاب والسنة ، أو العمل بطاعة الله ، أو نحو هذه الأسماء والعبارات .

ومعلوم أن المسمى هو واحد ، وإن تنوّعت صفاته وتعددت أسماؤه وعباراته [(١)] .

ثم **قال** في **موضع آخر :** فإن الصّراط المستقيم أن تفعل في كل وقت ما أمرت به في ذلك الوقت من علم وعمل ، ولا تفعل ما نُهيت عنه ، وهذا يحتاج في وقت إلى أن تعلم ما أمر به في ذلك الوقت ، وما نُهي عنه ، وإلى أن يحصل لك إرادة جازمة لفعل المأمور ، وكراهة لترك المحظور ، والصراط المستقيم قد فسّر بالقرآن ، والإسلام ، وطريق العبودية ، وكل هذا حقّ ، فهو موصوف بذا وبغيره [(٢)] .

قال القاسمي : الصّراط المستقيم : أصله الطّريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف .

ويُستعار لكل قول أو عمل يبلغ به صاحبه الغاية الحميدة ، فالطّريق الواضح للحسّ ، كالحقّ للعقل ، في أنه : إذا سير بما أبلغا السّالك النّهاية الحسنى [(٣)] .

قال ابن عاشور : والصّراط في هذه الآية (آية الفاتحة) مستعار لمعنى الحقّ الذي يبلغ به مدركه إلى الفوز برضاء الله ؛ لأن ذلك الفوز هو الذي جاء الإسلام بطلبه .

والمستقيم : اسم فاعل من استقام ، مطاوع قوّمته فاستقام .

والمستقيم : الذي لا اعوجاج فيه ولا تعاريج ، وأحسن الطرق الذي يكون مستقيمًا ، وهو الجادّة ، لأنه باستقامته يكون أقرب إلى المكان المقصود من غيره ، فلا يضلّ فيه سالكه ، ولا يتردّد ولا يتحير .

---

(١) انظر : تفسير القاسمي (١/ ٢٠) .

(٢) انظر : تفسير القاسمي (١/ ٢٢) ، حيث نقل هذا الكلام عن شيخ الإسلام .

(٣) انظر : تفسير القاسمي (١/ ١٩) .

والمستقيم هنا مستعار للحق البّين الذي لا تُخالطه شبهة باطل ، فهو كالطّريق الذي لا تتخلّله بنيات . ثم قال : والأظهر عندي أن المراد بالصّراط المستقيم : المعارف الصالحات كلّها من اعتقاد وعمل [1] .

هذه بعض أقوال المفسّرين في معنى الصّراط المستقيم ، كما ورد في سورة الفاتحة . وحيث وردت آيات كثيرة ذكر فيها الصّراط المستقيم سبق ذكر بعضها ، فإن معناها من هذا المعنى الذي سبق تقريره ، ولبيان ذلك أذكر تفسير بعض هذه الآيات بإيجاز :

قال - تعالى - : ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ [2] (الأنعام : من الآية ٨٧) قال مجاهد : وسددناهم فأرشدناهم إلى طريق غير معوجّ ، وذلك دين الله الذي لا عِوَجَ فيه ، وهو الإسلام الذي ارتضاه ربّنا لأنبيائه ، وأمر به عباده [3] .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ [4] (الأنعام : من الآية ١٢٦) قال الطبري : هو صراط ربك - يقول : طريق ربّك ، ودينه الذي ارتضاه لنفسه دينًا ، وجعله مستقيمًا لا اعوجاج فيه [5] .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [6] (الأنعام : من الآية ١٥٣) قال الطبري : هو صراطه ، يعني طريقه ودينه الذي ارتضاه لعباده ، ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ [7] (الأنعام : من الآية ١٥٣) يعني قويمًا لا اعوجاج به عن الحق [8] .

---

(١) انظر : تفسير التحرير والتنوير (١/ ١/ ١٩٠) .
(٢) سورة الأنعام آية : ٨٧ .
(٣) تفسير الطبري (٧/ ٢٦٢) .
(٤) سورة الأنعام آية : ١٢٦ .
(٥) تفسير الطبري (٨/ ٣٢) .
(٦) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .
(٧) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .
(٨) تفسير الطبري (٨/ ٨٧) .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [(١)] (الأنعام : من الآية ١٦١) **قال الطبري :** يقول : قل لهم : إنني أرشدني ربي إلى الطّريق القويم ، هو دين الله الذي ابتعثه به ، وذلك الحنيفية المسلمة ، فوفّقني له [(٢)] .

وفي سورة الأعراف : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [(٣)] (الأعراف : ١٦) **قال الطبري :** يقول : لأجلسن لبني آدم صراطك المستقيم ، يعني طريقك القويم ، وذلك دين الله الحقّ ، وهو الإسلام وشرائعه .

ونقل نحو ذلك عن مجاهد [(٤)] .

وفي قوله - تعالى - في سورة مريم : ﴿ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ [(٥)] (مريم : من الآية ٤٣) **قال الطبري :** يقول : أبصرك هدي الطّريق المستوي الذي لا تضلّ فيه إن لزمته ، وهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه [(٦)] .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [(٧)] (المؤمنون : ٧٤) **قال الطبري :** يقول عن محجّة الطّريق ، وقصد السّبيل ، وذلك دين الله الذي ارتضاه لعباده العادلون [(٨)] .

وبذا يتضح أن معنى الصّراط في جميع هذه الآيات معنًى واحدًا ، وإن اختلفت العبارة والسّياق .

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٦١ .
(٢) تفسير الطبري (٨/ ١١١) .
(٣) سورة الأعراف آية : ١٦ .
(٤) تفسير الطبري (٨/ ١٣٤) .
(٥) سورة مريم آية : ٤٣ .
(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٩٠) .
(٧) سورة المؤمنون آية : ٧٤ .
(٨) تفسير الطبري (١٨/ ٤٤) .

الصلة بين الوسطية والصراط المستقيم

مما تقدم يتضح أن معنى الصّراط المستقيم يدلّ على الوسطية في مفهومها الشرعي الاصطلاحيّ الذي سبق تقريره ، وبخاصّة أن ما جعلته لازمًا لمفهوم الوسطية وإطلاقها قد تحقق في معنى الصّراط المستقيم ، فالخيرية والبينية ظاهرتان في هذا الأمر .

فنجد في سورة الفاتحة لما قال : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [1] (الفاتحة : ٦) عرفه فقال : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [2] (الفاتحة : من الآية ٧) ثم حدده فقال : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [3] (الفاتحة : من الآية ٧) فجعل الصّراط المستقيم طريق الخيار ، وهم الذين أنعم الله عليهم من النبّيين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين .

وهو بين طريقي المغضوب عليهم والضّالين .

وكذلك في سورة البقرة قال الله - تعالى - : ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [4] (البقرة : من الآية ١٤٢) فقال بعدها مباشرة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [5] (البقرة : من الآية ١٤٣) وقد تحدث المفسّرون عن الكاف في هذه الآية ، وذكر غير واحد أن (الكاف) للرّبط بين جعلهم أمة وسطًا وهدايتهم للصّراط المستقيم [6] .

ونـزيد الأمر وضوحًا في ذكر بعض الأحاديث التي وردت في ذلك :

---

[1] سورة الفاتحة آية : ٦ .
[2] سورة الفاتحة آية : ٧ .
[3] سورة الفاتحة آية : ٧ .
[4] سورة البقرة آية : ١٤٢ .
[5] سورة البقرة آية : ١٤٣ .
[6] انظر : تفسير التحرير والتنوير (٢/ ١/ ١٥) ، وتفسير الطبري (٢/ ٦) .

فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : ﴿ كنا عند النبي ، ﷺ فخط خطًّا وخط خطين عن يمينه ، وخط خطين عن يساره ، ثم وضع يده على الخط الأوسط ، فقال : هذا سبيل الله ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ [(١)] ﴾ [(٢)] .

وذكر القرطبي في **تفسيره ، قال :** ذكر الطبري في آداب النّفوس حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني ، قال : حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن أبان ، أن رجلا قال لابن مسعود : ما الصّراط المستقيم ؟ قال : تركنا محمد ، ﷺ في أدناه ، وطرفه في الجنة ، وعن يمينه جواد ، وعن يساره جواد ، وثم رجال يدعون من مر بم ، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصّراط انتهى به إلى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ [(٣)] (الأنعام : من الآية ١٥٣) [(٤)] .

وبالتأمّل فيما سبق يتضح لنا ما يلي :

١- أن الصّراط المستقيم : يمثل قمة الوسطية وذروة سنامها وأعلى درجاتا ، وآيتا الفاتحة والبقرة حجة قاطعة في ذلك .

٢- أن الوسطية تعني الخيرية ، سواء أكانت خير الخيرين أو خيرًا بين شرّين أو خيرًا

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/ ٦) رقم (١١) . قال البوصيري في الزوائد (١/ ٤٥) : هذا إسناد فيه مقال من أجل مجالد بن سعيد . قلت : مجالد بن سعيد هو ابن عمير الهمداني أبو عمرو الكوفي . قال الحافظ في التقريب ص (٥٢٠) : ليس بالقوي ، وقد تغير في آخر عمره . اهـ . ولكن يشهد لهذا الحديث ما رواه عبد الله بن مسعود ، قال : خط لنا رسول الله ، خطًّا ، ثم قال : " هذه سبيل الله " . ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله ، وقال : " هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه " . ثم قرأ : (وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتّبعوه) . [سورة الأنعام ، الآية : ١٦٣] . أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٧) . والدارمي (١/ ٧٨ ، ٧٩) رقم (٢٠٢) . وحسنه الألباني كما في المشكاة رقم (١٦٦) ونقل عن الحاكم تصحيحه .

(٣) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي (٧/ ١٣٨) ، والوسطية في الإسلام لفريد عبد القادر ص (٢٣) .

بين أمرين متفاوتين ، وقد سبق تفصيل ذلك .

٣- أن المقياس لتحديد الخيرية هو الشرع ، وليس هوى الناس أو ما تعارفوا عليه أو ألفوه ، فإن مفهوم الوسطية عند كثير من الناس تعني التّنازل أو التساهل بل والمداهنة أحيانًا ، حيث يختارون الأمر بين الخير والشرّ وهو إلى الشرّ أقرب في حقيقته ومآله ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا .

٤- أن هناك عوامل كثيرة ، وأصولا معتبرة [(١)] تجب مراعاتها عند تحديد مفهوم الوسطية وتطبيقها على أمر من الأمور ، حيث إن قصر النظر على أمر دون آخر يؤدّي إلى خلاف ذلك ومجانبة للصّواب .

٥- وخلاصة الأمر : أنه يجب عند النظر في أيّ أمر من الأمور لتحديد علاقته بالوسطية ومدى قربه أو بعده منها دقة النّظر والاعتبار في حقيقة هذا الأمر دون الاقتصار على ظاهره فقط ، ثم إلى أي هذه الأسس هو أقرب ، مراعيًا في ذلك أمور عدة - كما أشرت في الفقرة السّابقة - وكلّها تنطلق من القواعد الشّرعية والضّوابط المنهجية ، فإذا اتضح قربه في حقيقته ومآله إلى الصّراط المستقيم فهو داخل في الوسطية التي نتحدث عنها ، أما إذا كان إلى الغلوّ أو الجفاء أو الإفراط أو التفريط أقرب حقيقة ومآلا فليس من الوسطية في شيء ، وإن حسبه الناس كذلك ، وقد زلت في هذه المسألة عقول وأقدام .

---

(١) يختلف ذلك باختلاف الأحوال والقضايا ، ولكل حالة ما يناسبها ضمن الضوابط الشرعية .

ملامح الوسطية

للوسطية ملامح وسمات تحفّ با ، وتُميزها عن غيرها ، بمجموع تلك الملامح لا بآحادها .

وقد توصّلت إلى تحديد أهمّ تلك السّمات والملامح ، باستقراء القرآن الكريم ، وما ورد في وسطية هذه الأمة بين الأمم ، وكذلك ما كتبه بعض الذين بحثوا في الوسطية .

إن تحديد هذه الملامح مهمّة أساسية في مثل هذا البحث ، حتى لا تكون الوسطية مجالا لأصحاب الأهواء وأرباب الشّهوات .

ذلك أن الوسطية مرتبة عزيزة المنال ، غالية الثمن ، كيف لا وهي سمة هذه الأمة ، ومحور تميّزها بين الأمم ؟! جعلها الله خاصية من خصائصها ، تكرّمًا منه وفضلا ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [1] (الحديد : من الآية ٢١) .

إن أهمّ سمات الوسطية ما يلي :

(أ) الخيرية .

(ب) الاستقامة .

(جـ) اليسر ورفع الحرج .

(د) البينية .

(هـ) العدل والحكمة .

وكل سمة من هذه السّمات يندرج تحتها عدد من آحادها .

وسأعرض لكل سمة بما يُناسب المقام ، ويفي بالغرض ، والله الموفّق والمعين .

وأحسب أن هذه الملامح بمجموعها تصلح ضابطًا لتحديد الوسطية ومعرفتها ، بما يجيب عن السّؤال الذي لا بدّ أن يرد في أذهان الكثيرين :

أين ضابط الوسطية ؟ وكيف نميّزها عن غيرها ؟

---

(١) سورة الحديد آية : ٢١ .

أولا الخيرية

تفسير الخيرية

قال الله - تعالى - في سورة البقرة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَـٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [(١)] (البقرة : من الآية ١٤٣) وقال في سورة آل عمران : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ [(٢)] (آل عمران : من الآية ١١٠) وقد ذكرت أن من معاني الوسطية الخيرية ، قال ابن كثير - رحمه الله - : والوسط هنا : الخيار والأجود ، كما يقال لقريش أوسط العرب نسبًا ودارًا ، أي خيرها [(٣)] .

وفي تفسيره لقوله - تعالى - : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ [(٤)] (آل عمران : من الآية ١١٠) قال : يعني خير الناس للنّاس ، والمعنى : أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس ، إلى أن قال : كما في الآية الأخرى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَـٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [(٥)] (البقرة : من الآية ١٤٣) أي خيارًا [(٦)] .

وقال الطبري : مقرّرًا خيرية هذه الأمة (أمة الوسط) : فإن سأل سائل فقال : وكيف قيل : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ ﴾ [(٧)] (آل عمران : من الآية ١١٠) ؟ وقد زعمت أن تأويل هذه الآية أن هذه الأمة خير الأمم التي مضت ، وإنما يقال : كنتم خير أمة لقوم كانوا خيارًا فتغيّروا عمّا كانوا عليه ؟!

قيل : إن معنى ذلك بخلاف ما ذهبت إليه ، وإنما معناه أنتم خير أمة ، كما قيل :

---

(١) سورة البقرة آية : ١٤٣ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١١٠ .
(٣) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ١٩٠) .
(٤) سورة آل عمران آية : ١١٠ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٤٣ .
(٦) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٣٩١) .
(٧) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ ﴾ [1] (الأنفال : من الآية ٢٦) وقد قال في موضع آخر : ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ ﴾ [2] (الأعراف : من الآية ٨٦) فإدخال كان في مثل هذا وإسقاطها بمعنى واحد ، لأنّ الكلام معروف معناه .

ولو قال - أيضًا - في ذلك قائل : ﴿ كُنتُمۡ ﴾ [3] (الأعراف : من الآية ٨٦) بمعنى التمام ، كان تأويله : خلقتم خير أمة ، أو وجدتم خير أمة ، كان معنى صحيحًا [4] .

وفي تفسيره لقوله - تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [5] (البقرة : من الآية ١٤٣) قال : وأمّا التّأويل فإنه جاء بأن الوسط العدل ، وذلك معنى الخيار ، لأن الخيار من الناس عدولهم [6] .

ومما سبق يتضح أن الخيرية مما فسر به معنى الوسطية التي ذكرها الله من خصائص هذه الأمة ، فما هي هذه الخيرية التي نعرف با وسطية هذه الأمة ؟

قال الطبري في تفسير آية الخيرية :

وقال آخرون : معنى ذلك : كنتم خير أمة أُخرجت للناس ، إذ كنتم بذه الشّروط التي وصفهم - جلّ ثناؤه - با ، فكان تأويل ذلك عندهم : كنتم خير أمة تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتُؤمنون بالله ، أخرجوا للناس في زمانكم [7] .

قال رشيد رضا :

والحق أقول : إنّ هذه الأمة ما فتئت خير أمة أُخرجت للناس ، حتى تركت الأمر

---

[1] سورة الأنفال آية : ٢٦ .
[2] سورة الأعراف آية : ٨٦ .
[3] سورة الأعراف آية : ٨٦ .
[4] انظر : تفسير الطبري (٤/ ٤٥) .
[5] سورة البقرة آية : ١٤٣ .
[6] انظر تفسير الطبري (٢/ ٧) .
[7] انظر : تفسير الطبري (٤/ ٤٤) .

بالمعروف ، والنّهي عن المنكر .

ثم قال : وقد بين الفخر الرازي كون وصف الأمة هنا بالأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر ، والإيمان علّة لكونا خير أمة أُخرجت للنّاس ، فقال :

واعلم أن هذا الكلام مستأنف والمقصود منه بيان علّة تلك الخيرية ، كما تقول : زيد كريم ، يطعم الناس ويكسوهم ، ويقوم بما يصلحهم .

وتحقيق الكلام أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقرونًا بالوصف المناسب له يدلّ على كون ذلك الحكم معلّلا بذلك الوصف .

فهنا حكم - تعالى - بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة ، ثم ذكر عقيبه هذا الحكم وهذه الطّاعات ، أعني الأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر ، والإيمان ، فوجب كون تلك الخيرية معلّلة بذه العبادات [1] .

وقال القاسمي :

ثم بيّن وجه الخيرية بما لم يحصل مجموعه لغيرهم ، بقوله : ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [2] (آل عمران : من الآية ١١٠) فبهذه الصفات فضّلوا على غيرهم ممن قال - تعالى - فيهم : ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [3] (المائدة : ٧٩) ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ [4] (النساء : من الآية ١٥٠) .

(١) انظر : تفسير المنار (٤/ ٦٠) .
(٢) سورة آل عمران آية : ١١٠ .
(٣) سورة المائدة آية : ٧٩ .
(٤) سورة النساء آية : ١٥٠ .

قال أبو السّعود :

﴿ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ [1] (آل عمران : من الآية ١١٠) أي إيمانًا متعلّقًا بكلّ ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء ، وإنّما لم يُصرّح به تفصيلا لظهور أنّه الذي يؤمن به المؤمنون ، وللإيذان بأنه هو الإيمان بالله - تعالى - حقيقة [2] .

وقد وردت بعض الأحاديث التي تدلّ على خيرية هذه الأمة منها :

١- روى الترمذي في تفسيره لهذه الآية أن رسول الله ، ﷺ قال : ﴿ إنكم تتّمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله ﴾ [3] [4] .

٢- وقال ﷺ ﴿ أُعطيت ما لم يُعط أحد من الأنبياء ، فقلنا : يا رسول الله ما هو ؟ فقال : نصرُ بالرّعب ، وأُعطيت مفاتيح الأرض ، وسّميت أحمَدَ ، وجعل الّتراب لي طهورًا ، وجعلت أمّتي خير الأمم ﴾ [5] [6] .

فهذه الأحاديث مع آية آل عمران تبّين خيرية هذه الأمة ، التي جعلها الله أمة وسطًا ، وقد جمع المفسّرون بين معنيي الخيرية والوسطية ، حتى جاء أحدهما تفسيرًا للآخر ، كما مر معنا .

ولأهمّية بيان معنى الخيرية ، فسأذكر أبرز أوجه هذه الخيرية ، ليتضح لنا معنى الوسطية .

---

[1] سورة آل عمران آية : ١١٠ .

[2] انظر : تفسير القاسمي (٤/ ٩٣٦) .

[3] الترمذي تفسير القرآن (٣٠٠١) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٨٨) ، الدارمي الرقاق (٢٧٦٠) .

[4] أخرجه الترمذي (٥/ ٢١١) رقم (٣٠٠١) . وابن ماجه (٢/ ١٤٣٣) رقم (٤٢٨٨) وأحمد (٥/ ٥) . والدارمي (٢/ ٤٠٤) رقم (٢٧٦٠) . قال الترمذي : هذا حديث حسن . ووافقه الألباني كما في المشكاة رقم (٦٢٨٥) .

[5] أحمد (٩٨/١) .

[6] أخرجه أحمد (١/ ٩٨ ، ١٥٨) . قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٦٥ ، ٢٦٦) : وفيه عبد الله بن محمد بن عقيل ، وهو سيئ الحفظ . قال الترمذي : صدوق ، وقد تكلّم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه ، وسمعت محمد بن إسماعيل - يعني البخاري - يقول : كان أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن إبراهيم ، والحميد يحتجون بحديث ابن عقيل . قلت : فالحديث حسن . والله أعلم . اهـ .

أبرز أوجه خيرية هذه الأمة [1]

قال الأستاذ سيد قطب :

فهي خير أمة أخرجت للناس ، لا عن مجاملة ، ولا عن محاباة ، ولا عن مصادفة أو جزاف ، - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا - وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [2] (المائدة : من الآية ١٨) . كلا إنّما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر ، وإقامتها على المعروف ، مع الإيمان الذي يُحدّد المعروف والمنكر [3] .

إن هذه الخيرية لها أسباب ، ولها حقيقة ، حقيقة لا بدّ أن توجد في الواقع ، وأن ترى في الحياة ، وليست مجرّد تصوّر ذهني ، وفلسفة غائبة .

إن هذه الخيرية مسألة نسبية بالنسبة للأمة ، فقد ترتفع لتبلغ الذّروة ، كما كانت الحال في جيل الصّحابة والقرون المفضّلة ، وقد تنحسر في مجموعات وأفراد ، كما هي في القرون المتأخرة ، وذلك تبعًا لوجود مقومات الخيرية وصيانتها .

١- الإيمان بالله : قال - سبحانه - : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [4] (آل عمران : من الآية ١١٠) .

فقرن الله - جلّ وعلا - بين خيرية هذه الأمة والإيمان به - تعالى - ، بل جعل الإيمان هو سبب الخيرية ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فرع عن الإيمان ، وأثر من آثاره .

وهل يمكن أن نتصوّر خيرية دون إيمان بالله - تعالى - ؟ والإيمان بالله - تعالى - يشمل جميع أبواب الإيمان والإسلام ، لأن العلماء ذكروا أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا ، وهنا جاء ذكر الإيمان وحده ، فهو يشمل الإيمان والإسلام .

---

[1] انظر : وسطية أهل السُنة ص (٢٢٤) . فقد فصل في ذلك .
[2] سورة المائدة آية : ١٨ .
[3] انظر : في ظلال القرآن (٤/ ٤٤٧) .
[4] سورة آل عمران آية : ١١٠ .

وعند التّأمل في **معنى الإيمان** كما ورد في حديث جبريل المشهور ، قال : ﴿ أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه ﴾ [1] [2] . نجد الشّمول والتكامل ، كما قال - سبحانه- : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾ [3] (البقرة : من الآية ٢٨٥) .

فالإيمان بالله يشمل الأمور العقدية والعملية ، الظاهرة والباطنة ، ما يتعلّق منها بعالم الغيب والشّهادة ، ما كان منها في الدّنيا أو الآخرة .

والإيمان بالله أعمق دلالة وأثرًا ممّا قد يتصوّره كثير من الناس ، فليس هو مجرّد التّصديق كما فسّره بعض المتكلّمين ، ممّا أودي بكثير من الناس إلى اعتناق مبدأ الإرجاء ، وهم لا يعلمون ، وهم بذا السّلوك والتّفسير فرّغوا الإيمان من معناه الحقيقي ومدلوله الصّحيح .

وإنّما هو علم واعتقاد وعمل ، والإسلام من لوازم الإيمان ، فمقتضى الإيمان بالله وكتبه ورسله ، يستلزم العمل بما أمر به الله في كتابه ، وعلى لسان رسوله ، ﷺ ولهذا فإن شرط الإيمان في تحقيق الخيرية جاء مغنيًا عمّا يشمله من أركان الإيمان والإسلام .

ولذلك فإننا قبل أن نحكم بخيرية جماعة أو فرد أو عمل ، لا بدّ من التّحقّق في توافر شرط الإيمان فيه بمعناه الشّامل المتكامل ، فقد قال - سبحانه- : ﴿ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۚ ﴾ [4] (آل عمران : من الآية ١١٠) . مع أنهم يدّعون الإيمان ،

---

[1] مسلم الإيمان (٨) ، الترمذي الإيمان (٢٦١٠) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠) ، أبو داود السنة (٤٦٩٥) ، ابن ماجه المقدمة (٦٣) ، أحمد (١/٢٧) .

[2] أخرجه مسلم (١/ ٣٨ ، ٣٩) رقم (٨ ، ٩) . وأبو داود (٤/ ٢٢٤) رقم (٤٦٩٥) . والترمذي (٥/ ٨ ، ٩) رقم (٢٦٠١) وغيرهم .

[3] سورة البقرة آية : ٢٨٥ .

[4] سورة آل عمران آية : ١١٠ .

ولكن العبرة بالحقائق لا بالدّعاوى .

وعند التّأمّل في قوله- تعالى- : ﴿ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ [1] (آل عمران : من الآية ١١٠) أجد أن فيه معنى الخير والإنشاء ، فهو خبر عن حقيقة واقعة بإيمان هذه الأمة ، حيث تميّزت عن غيرها في شمول هذا الإيمان واستمراره ، ويكفي دليلا عن شمول إيماننا شهادتنا لبعض رسل الله يوم القيامة بأنم قد بلّغوا رسالة ربّهم إلى أقوامهم . فهذا الإيمان الموجود والمتحقّق أهلها لهذه الخيرية .

ثم فيه معنى الإنشاء والطلب ، حيث جعل من لوازم الخيرية وجود هذا الإيمان ، فكما أن هذا الإيمان موجود في هذه الأمة بجملتها وبخاصّة القرون المفضّلة ، فإنّ على من أراد من أفراد هذه الأمة أن يكون من خيارها أن يُحقّق معنى الإيمان في نفسه ، بمعناه الشّامل المتكامل .

فإذا تحقّق الإيمان تحققت الخيرية ، وإذا تحققت الخيرية في صورتنا الشرعية وجدنا الوسطية في أسمى معانيها ، مقرونة بأقوى أركانا ومبانيها .

٢- الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : من خصائص هذه الأمة العملية قيامها بالأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر ، وهذه شهادة الله لها : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ [2] (آل عمران : من الآية ١١٠) .

والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر أوجبه الله على من قبلنا ، ولكنهم فرطوا وضيعوا ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ ﴾ [3] (المائدة : ٧٨ ، ٧٩) . ونجد مصداق خيرية هذه الأمة لقيامها بالأمر

[1] سورة آل عمران آية : ١١٠ .
[2] سورة آل عمران آية : ١١٠ .
[3] سورة المائدة آية : ٧٨ ، ٧٩ .

بالمعروف والنّهي عن المنكر ، أنه منذ بُعِثَ رسول الله ، ﷺ إلى يومنا الحاضر وهذا الرّكن العظيم لم ينقطع ولم يترك كما فعل بنو إسرائيل .

قد نجد ضعفًا في زمان من الأزمنة أو مكان من الأمكنة ، ولكنه لا يصبح حالة مستقرة ، ولا تعدم الأمة آمرًا أو ناهيًا ولو كانوا قلة قليلة ، وهذا مصداق قول الرسول ، ﷺ ﴿ لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك ﴾ [1] [2] . الحديث .

فالطائفة المنصورة موجودة إلى قيام الساعة ، وهي طائفة ظاهرة آمرة بالمعروف ، ناهية عن المنكر .

وكما ذكرت في موضوع الإيمان ، فإن ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الآية خبرًا وإنشاءً ، فهو خبر عن حقيقة واقعة ومستمرة ، حيث إن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر مستمرّ في هذه الأمة إلى قيام الساعة ، وهو كذلك (إنشاء) فمن أراد الخيرية فلا بدّ أن يقوم بذا الرّكن العظيم ، حتى تتحقّق له الخيرية التي جعلها الله من خصائص هذه الأمة ، ففيه معنى الأمر - أيضًا- .

وقد يسأل سائل : أليس الأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر فرعًا عن الإيمان ، فلماذا أفرده دون سائر أبواب الإيمان العملية ؟

وألخّص الجواب على هذا السؤال بما يلي :

١- أهمّية الأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر ، وأثره المباشر في تحقيق الخيرية دون سواه .

٢- أن الأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر ، سياج الإيمان ، وركن أساس لبقائه وحمايته .

---

[1] مسلم الإمارة (١٩٢٠) ، الترمذي الفتن (٢٢٢٩) ، أبو داود الفتن والملاحم (٤٢٥٢) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٥٢) ، أحمد (٢٧٩/٥) .

[2] أخرجه مسلم (٣/ ١٥٢٣) رقم (١٩٢٠) . وأبو داود (٤/ ٩٨) رقم (٤٢٥٢) . وابن ماجه (٢/ ١٣٠٤) رقم (٣٩٥٢) . وأحمد (٥/ ٢٧٨) .

٣- أن أغلب الأعمال خاصّة غير متعدّية ، أمّا الأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر ، فإنّ نفعه لا يقتصر على فاعله بل يتعدّاه إلى المأمور والمنهي ، وكذلك إلى الأمر المأمور به والمنهيّ عنه ، فمثلا الأمر بالصلاة ، لا يقتصر نفع هذا الأمر على جهة واحدة بل يشمل عدّة أطراف :

(أ) **الآمر :** حيث قام بما أوجبه الله عليه ، وهذه عبادة له نفعها وأجرها .

(ب) **المأمور :** حيث ينتفع بذا الأمر إن استجاب له ، وقد يكون هذا الأمر سببًا لهدايته .

(جـ) **المأمور به :** فإن الأمر بالصلاة سبيل للمحافظة عليها واستمرارها ، وهذا فيه من النّفع العظيم ما لا يخفى .

٤- أن الأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر له صفة الشّمول ، فليس متعلّقًا بعمل معّين ، بل يشمل كل معروف وكل منكر ، بينما سائر الأعمال نجدها أعمالا مخصوصة معينة ، فالصيام يتعلّق بعمل مخصوص ، والزّكاة والحج وغيرهما كذلك . ولذلك فهو يشترك مع الإيمان في صفة الشّمول ، حيث إن الأمر بالمعروف يشمل جميع أبواب الإيمان والإسلام .

والرسول ، ﷺ قال في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري : ﴿من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان﴾ [1] [2] . فجاء المنكر هنا مُنَكّرًا دلالة على عمومه ، أي : أيّ منكر يراه المسلم ، فهو يشمل كل منكر ، كما أن الأمر يشمل كل معروف ، فيدخل في ذلك جميع

[1] مسلم الإيمان (٤٩) ، الترمذي الفتن (٢١٧٢) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٠٩) ، أبو داود الصلاة (١١٤٠) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٧٥) ، أحمد (٣/٥٤) .

[2] أخرجه مسلم (١/ ٦٩) رقم (٤٩) . وأبو داود (١/ ٢٩٧) رقم (١١٤٠) . والنسائي (٨/ ١١١) رقم (٥٠٠٨) وغيرهم .

ما شرعه الله ، فيؤمر به وينهى عن مخالفته [1] .

وممّا سبق يتبين لنا أن الأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر ، من أبرز أوجه خيرية هذه الأمة ، والأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر ، له صور متعدّدة ، وليس محصورًا بحالة أو صفة واحدة كالكلام مثلا ، بل قد يكون باليد أو اللسان أو العمل - كالقدوة مثلا - فمن صلّى أمام الناس لم يقوموا إلى الصلاة فهو داخل في الأمر بالمعروف ، وإن لم يتكلّم ، وكذلك من تصدق لُيقتدى به ، فهو من الأمر بالمعروف ، ومن خرج من مجلس فيه منكر فإنه من تغيير المنكر ، ولو لم يتكلّم . ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ ﴾ [2] (الأنعام : من الآية ٦٨) وأضعف أبواب تغيير المنكر أن يكون في القلب كما ورد في الحديث .

وأخيرًا :

فإنّه إذا تحقّق الإيمان بمعناه الشّامل المتكامل ، وجاء الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، يحوطه ويحرسه ، فإنّنا سنرى الخيرية التي أخبرنا الله بها ماثلة أمام أعيننا ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

هذه أبرز أوجه خيرية هذه الأمة ، وما عداهما من أوجه فأرى أنا داخلة فيما ذكرت دلالة أو ضمنًا .

---

[1] انظر : تفسير المنار (٤/ ٦٣) .
[2] سورة الأنعام آية : ٦٨ .

ثانيا الاستقامة

الوسطية استقامة ، ولو لم تكن على نج الاستقامة لكانت انحرافًا ، والانحراف إمّا إفراط أو تفريط ، وذلك ضد الوسطية ومباين لها ، كما سبق بيان ذلك .

وهناك شعور لدى بعض الناس أن الوسطية تعني التنازل - ولو قليلا- عن حقيقة الأمر والنّهي ، ولقد عبر أحد الباحثين عن هذا الشّعور الذي يختلج في صدور بعض الناس ، حيث طرح سؤالا ورّد عليه ، ومّما قاله : هل المقصود بالوسطية مرونة الأمة ، بحيث لا تصطدم بالأفكار والمبادئ الأخرى عند الالتقاء با ، بل قابلّيتها للأخذ والعطاء والّتنازل عن جزء مّما عندها ، من أجل تنازل الطّرف الآخر ، والالتقاء عند نقطة وسط تُرضي جميع الأطراف ؟

ثم ردّ على هذا المسلك وبين مخالفته لحقيقة الوسطية [1] .

ومن هنا فإن من ملامح الوسطية ، بل وضوابطها الاستقامة ، ولذلك فمن ادعى الوسطية مع خروجه عن الاستقامة ، فهذه ليست الوسطية الشّرعية في شيء ، بل هي وسطية نسبية غير التي نتحدث عنها .

ولذا فإن من المناسب - ونحن نتحدث عن ملامح الوسطية - أن أُبين معنى الاستقامة وحدودها ليتضح المراد :

فقد وردت آيات كثيرة تأمر بالاستقامة وتحثّ عليها ، فالله - جلّ وعلا - يقول لرسوله ، ﷺ ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ ﴾ [2] (هود : من الآية ١١٢) . وفي سورة الشورى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ ﴾ [3] (الشورى : من الآية ١٥) .

---

[1] انظر : الوسطية في الإسلام لفريد عبد القادر ص (١٤) .

[2] سورة هود آية : ١١٢ .

[3] سورة الشورى آية : ١٥ .

وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ (١) (فصلت : ٣٠) . وفي سورة الجن : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ (٢) (الجـن : ١٦) . وفي سورة فصلت : ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ ﴾ (٣) (فصلت : من الآية ٦) . فهذه الآيات وغيرها تبيّن منـزلة الاستقامة ومكانتها .

وحيث إن لزوم الصّراط المستقيم استقامة على دين الله وشرعه ، وهذا عين الوسطية وجوهرها ، فسأقف مع (الاستقامة) وقفة مناسبة ، تعريفًا وبيانًا .

تعريف الاستقامة

قال الراغب : استقامة الإنسان لزومه للمنهج المستقيم نحو : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ (٤) (فصلت : من الآية ٣٠) (٥) . **وقال ابن القيّم :** الاستقامة ضد الطّغيان ، وهو مجاوزة الحدود في كل شيء (٦) .

وقال القرطبي : الاستقامة : الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشّمال (٧) .

وقال ابن القيم : قال عمر رضي الله عنه الاستقامة : أن تستقيم على الأمر والنّهي ، ولا تَرُوغ رَوَغَانَ الثّعالب (٨) .

---

(١) سورة فصلت آية : ٣٠ .
(٢) سورة الجن آية : ١٦ .
(٣) سورة فصلت آية : ٦ .
(٤) سورة فصلت آية : ٣٠ .
(٥) انظر : المفردات للراغب مادة (قوم) .
(٦) انظر : مدارج السالكين (٢/ ١٠٤) .
(٧) انظر : تفسير القرطبي (٩/ ١٠٧) .
(٨) انظر : مدارج السالكين (٢/ ١٠٤) ، وتفسير الطبري (٢٤/ ١١٥) .

وقال ابن القيم - أيضًا - : فأمر بالاستقامة وهي السّداد ، والإصابة في النيات والأقوال والأعمال .

ثم قال : فالاستقامة : كلمة جامعة ، آخذة بمجامع الدّين ، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصّدق ، والوفاء بالعهد [1] .

وهذه المعاني متقاربة ، ويفسّر بعضها بعضًا .

أحاديث في الاستقامة

في صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : ﴿ قلت يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدًا غيرك ؟ قال : " قل آمنت بالله ، ثم استقم ﴾ [2] [3] .

وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ، ﷺ قال : ﴿ استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصّلاة ، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن ﴾ [4] [5] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ، ﷺ ﴿ سدّدوا وقاربوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ،

---

(1) انظر : مدارج السالكين (٢/ ١٠٥) .

(2) مسلم الإيمان (٣٨) ، الترمذي الزهد (٢٤١٠) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٧٢) ، أحمد (٤١٣/٣) ، الدارمي الرقاق (٢٧١٠) .

(3) أخرجه مسلم (١/ ٦٥) رقم (٣٨) . وأحمد (٣/ ٤١٣) .

(4) ابن ماجه الطهارة وسننها (٢٧٧) ، أحمد (٢٧٧/٥) ، الدارمي الطهارة (٦٥٥) .

(5) أخرجه ابن ماجه (١/ ١٠١ ، ١٠٢) رقم (٢٧٧) . ومالك في الموطأ (١/ ٣٤) رقم (٣٦) . وأحمد (٥/ ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢) . قال البوصيري في زوائد ابن ماجه (١/ ١٢٢) : هذا الحديث رجاله ثقات أثبات إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان فإنه لم يسمع منه بلا خوف . لكن له طريق أخرى متصلة أخرجها أبو داود الطيالسي في مسنده ، وأبو يعلى الموصلي ، والدارمي ، وابن حبان في صحيحه من طريق حسان بن عطية أن أبا كبشة حدثه أنه سمع ثوبان . اهـ . وصححه الألباني كما في الإرواء رقم (٤١٢) .

إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل ﴾ [1] [2] .

وفي مسند الإمام أحمد عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ ، قال : ﴿ لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ﴾ [3] [4] .

وفي رواية الترمذي عن أبي سعيد مرفوعًا وموقوفًا : ﴿ إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلّها تكفّر اللسان ، فتقول : اتق الله فينا ، فإنما نحن بك ، فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا ﴾ [5] [6] .

وروى الترمذي عن أنس بن مالك ﷺ ﴿ أن رسول الله ، ﷺ قرأ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ [7] قال : " قد قالها الناس ، ثم كفر أكثرهم ، فمن مات عليها فهو ممّن استقام ﴾ [8] .

---

[1] البخاري المرضى (٥٣٤٩) ، مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٣٤) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٠١) ، أحمد (٢/٢٣٥) .

[2] أخرجه البخاري (٧/ ١٨٢) . ومسلم (٤/ ٢١٧٠) رقم (١٨١٦) .

[3] أحمد (٣/١٩٨) .

[4] أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨) . قال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٨) : وفي إسناده علي بن مسعدة ، وثّقه جماعة ، وضعفه آخرون . اهـ . قال الحافظ في التقريب ص (٤٠٥) : صدوق له أوهام .

[5] الترمذي الزهد (٢٤٠٧) ، أحمد (٣/٩٦) .

[6] أخرجه الترمذي (٤/ ٥٢٣) رقم (٢٤٠٧) . وأحمد (٣/ ٩٦) ، وعزاه السيوطي في الجامع لابن خزيمة والبيهقي - أيضًا - وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٣٥١) .

[7] سورة فصلت آية : ٣٠ .

[8] أخرجه الترمذي (٥/ ٣٥١) رقم (٣٢٥٠) . قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب . وضعّفه الألباني كما في ضعيف الجامع رقم (٤٠٧٩) .

من أقوال العلماء في الاستقامة

سُئل الصديق ﷺ عن الاستقامة فقال : ألا تشرك بالله شيئًا . قال ابن القيم : يريد الاستقامة على محض التّوحيد [1] .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ ﴾ [2] (فصلت : ٣٠) . فسر السلف الاستقامة فقالوا : [3]

قال عمر ﷺ استقاموا لله بطاعته ، ولم يروغوا روغان الثّعالب .

وقال عثمان بن عفان ﷺ استقاموا : أخلصوا العمل لله .

وقال علي بن أبي طالب ﷺ استقاموا : أدّوا الفرائض .

ومثل ذلك فسرها ابن عباس رضي الله عنه .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : استقاموا على محّبته وعبوديته ، فلم يلتفتوا عنه يُمنة ولا يُسرة .

ومن أقوال العلماء في الاستقامة :

قال ابن القيم : الاستقامة تتعلّق بالأقوال ، والأفعال ، والأحوال ، والنيات ، فالاستقامة فيها : وقوعها لله ، وبالله ، وعلى أمر الله .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : أعظم الكرامة لزوم الاستقامة [4] .

وأختم الكلام عن الاستقامة بما قاله ابن القّيم في مدارج السالكين مما يتضح معه علاقة الاستقامة بالوسطية ، وأنه لا استقامة بلا وسطية ، ولا وسطية دون استقامة .

قال [1] وهي - أي الاستقامة - على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : الاستقامة

---

[1] انظر : مدارج السالكين (٢/ ١٠٤) .

[2] سورة فصلت آية : ٣٠ .

[3] انظر : تفسير الطبري (٢٤/ ١١٤) ، ومدارج السالكين (٢/ ١٠٤) .

[4] انظر : مدارج السالكين (٢/ ١٠٥) .

على الاجتهاد في الاقتصاد ، لا عاديًا رسم العلم ، ولا متجاوزًا حدّ الإخلاص ، ولا مخالفًا نج السنة .

قال ابن القيم شارحًا قول الهروي : هذه درجة تتضمن ستة أمور : عملا واجتهادًا فيه ، وهو بذل الهود ، واقتصادًا ، وهو السلوك بين طرفي الإفراط - وهو الجور على النّفس - والتفريط بالإضاعة .

ووقوفًا مع ما يرسمه العلم ، لا وقوفًا مع داعي الحال ، وإفراد المعبود بالإرادة ، وهو الإخلاص .

ووقوع الأعمال على الأمر ، وهو متابعة السنة . فبهذه الأمور الستة تتمّ لأهل هذه الدّرجة استقامتهم ، وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة ، إما خروجًا كليا ، وإمّا خروجًا جزئيا .

والسّلف يذكرون هذين الأصلين كثيرًا ، وهما :

الاقتصاد في الأعمال ، والاعتصام بالسنة ، فإن الشّيطان يشمّ قلب العبد ويختبره ، فإن رأى فيه داعية للبدعة ، وإعراضًا عن كمال الانقياد للسنة ، أخرجه عن الاعتصام با ، وإن رأى فيه حرصًا على السنة ، وشدة طلب لها : لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها ، فأمره بالاجتهاد ، والجور على النّفس ، ومجاوزة حدّ الاقتصاد فيها ، قائلا له : إن هذا خير وطاعة ، والزّيادة والاجتهاد فيها أكمل ، فلا تفتر مع أهل الفتور ، ولا تنم مع أهل النّوم ، فلا يزال يحثّه ويحرّضه ، حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها ، فيخرج عن حدّها ، كما أن الأوّل خارج عن هذا الحدّ ، فكذا هذا الآخر خارج عن الحدّ الآخر [٢] .

وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتم مع صلاتم ، وصيامهم مع صيامهم ، وقراءتم مع قراءتم ، وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة ، لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة ، والآخر إلى بدعة الاوزة والإسراف .

---

[١] أي أبو إسماعيل الهروي صاحب منازل السائرين .

[٢] تأمل هذا الكلام تجد علاقته بالوسطية وثيقة .

وقال بعض السلف : ما أمر الله بأمر إلا وللشّيطان فيه نـزغتان : إما إلى تفريط ، وإمّا إلى مجاوزة ، وهي الإفراط ، ولا يبالي بأيّهما ظفر ، زيادة أو نقصان [1] .

وهذا الكلام عن الاستقامة هو عين الوسطية وجوهرها .

ثالثا اليسر ورفع الحرج

إن من أوّل ما يتبادر إلى أذهاننا عندما ننطق كلمة (الوسطية) هو معنى اليسر والتّيسير ، ورفع الحرج ، وهذا الفهم صحيح فإن من أبرز سمات الوسطية : التّيسير ورفع الحرج .

وقد تقرر فيما مضى أن هذا الدّين هو دين (الوسط) ، فلا غلوّ ولا جفاء ، ولا إفراط ولا تفريط .

واليسر ورفع الحرج مرتبة عالية بين الإفراط وبين التفريط ، وبين التشدّد والتنطّع وبين الإهمال والتضييع .

قال الدكتور صالح بن حميد :

رفع الحرج والسّماحة والسّهولة راجع إلى الاعتدال والوسط ، فلا إفراط ولا تفريط ، فالتنطّع والتّشديد حرج من جانب عسر التكليف ، والإفراط [2] والتّقصير حرج فيما يؤدّي إليه من تعطيل المصالح وعدم تحقيق مقاصد الشّرع . قال - تعالى- : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [3] (البقرة : من الآية ١٤٣) . فالتوسّط هو منبع الكمالات ، والتّخفيف والسّماحة ورفع الحرج على الحقيقة هو في سلوك طريق الوسط والعدل [4] .

ولأهمية بيان عناية الإسلام بذا الجانب وتأكيده عليه ، فسأذكر بعض ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة ، وأئمة السّلف من الصّحابة وغيرهم ، مع ذكر أقوال بعض المفسرين

---

[1] انظر : مدارج السالكين (٢/ ١٠٧) .

[2] الصحيح والتفريط ، ولعله خطأ مطبعي .

[3] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

[4] انظر : رفع الحرج في الشريعة الإسلامية ص (١٣) .

حول آيات التّيسير ورفع الحرج .

مع التنبيه إلى أنني لن أستقصي ما ورد في ذلك لصعوبته أوّلا ، ولعدم الحاجة إلى ذلك ثانيًا ، حيث يغني القليل عن الكثير . (وعن البحر اجتزاء بالوشل) .

وقبل أن أدخل في ذكر الأدلّة من الكتاب والسنة أذكر تعريفًا موجزًا للتيسير ورفع الحرج فأقول : [1] .

أولا تعريف اليسر والوسع

قال البقاعي في تفسيره - نقلا عن الحرالي- : اليسر عمل لا يُجهد النّفس ولا يُثقل الجسم [2] .

ونقل هذا القول القاسمي في تفسيره [3] .

وقال الرازي : في معنى الوسع : إنه ما يقدر الإنسان عليه في حال السّعة والسّهولة ، لا في حال الضّيق والشدة ، وأمّا أقصى الطّاقة فيسمى جهدًا لا وسعًا ، قال : وغلط من ظن أن الوسع بذل المجهود [4] .

وقال ابن منظور في تعريف اليسر : [5] .

اليسر : اللّين والانقياد .

والميسرة : السّعة والغنى .

وتيسير الشيء واستيسر : تسهّل .

واليسر : ضدّ العسر .

ويقول الدكتور صالح بن حميد بعد أن ذكر بعض هذه الأقوال :

يظهر من ذلك أن اليسر والوسع : ما يُقدم عليه الإنسان من غير أن يلحقه مشقة

---

[1] انظر لكل ما سيأتي كتاب : رفع الحرج في الشريعة الإسلامية للدكتور صالح بن حميد ص (٤٦) وما بعدها .

[2] انظر : تفسير البقاعي (٣/ ٦٢) .

[3] انظر : تفسير القاسمي (٣/ ٤٢٧) .

[4] انظر : تفسير الرازي (١٤/ ٧٩) .

[5] انظر : لسان العرب مادة (يسر) .

زائدة ، ومن غير أن يحتاج لبذل كلّ ما لديه من طاقة ومجهود ، وعقّب قائلا : ومن هذا فإنّ ما ذكره ابن حزم في أصول الأحكام من أن : (العسر والحرج ما لا يستطاع ، أما ما استطيع فهو يسر) . ليس بدقيق ، ولا سيما في إطلاق الشرع ، إذ أن هناك أمورًا يستطيع المكلّف عملها ، مع لحوق مشقة أو عسر ، فجاء التخفيف فيها إلى ما هو أيسر ، ولو بذل غاية جهده وطاقته لقام با ، ومنه يتبين أن عدم الاستطاعة ليست معيار العسر الشّرعي [1] .

وأختم أقوال العلماء في **تعريف اليسر والوسع** بما **قاله الزمخشري** : " إن الوسع هو ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ، ولا يحرج فيه ، فالله لا يكلّف النّفس إلا ما يّتسع فيه طوقها ، ويتّيسر عليه دون مدى غاية الطّاقة والـهود ، فقد كان في طاقة الإنسان أن يصلّي أكثر من الخمس ، ويصوم أكثر من شهر ، ويحجّ أكثر من حجّة " [2] .

هذا ما يتعلّق بتعريف اليسر والوسع ، أمّا رفع الحرج فإن تعريفه يستلزم تعريف الحرج أولا : قال في لسان العرب :

الحرج : الإثم .

وقال أحمد بن يحيى : والّتحريج : الّتضييق .

وقال ابن الأثير : الحرج في الأصل : الضيق .

وقيل : الحرج : أضيق الضّيق ، ونسبه للزجاج في موضع آخر . وحرج فلان على فلان : إذا ضيق عليه [3] .

هذا تعريف الحرج في اللغة ، أما في الاصطلاح : (كل ما أدى إلى مشقة زائدة في البدن أو النفس أو المال حالا أو مآلا) [4] .

---

[1] انظر : رفع الحرج في الشريعة الإسلامية ص (٤٦) .
[2] انظر : الكشاف (١/ ٤٠٨) .
[3] انظر : لسان العرب مادة (حرج) .
[4] انظر : رفع الحرج في الشريعة الإسلامية ص (٤٧) .

قال ابن عباس في قولـــه – تعالـــــى - : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾ [1] (الحج : من الآية ٧٨) . توسعة الإسلام ، ما جعل الله من التّوبة والكفّارات [2] .

وقال الضّحاك في **تفسير الآية :** جعل الدّين واسعًا ولم يجعله ضيقًا [3] .

وقال مقاتل بن حيان : لم يضيق الدّين عليكم ولكن جعله واسعًا لمن دخله ، وذلك أنه ليس مما فرض عليهم فيه إلا وقد ساق إليهم عند الاضطرار فيه رخصة [4] .

ثانيا تعريف رفع الحرج

وبعد هذا التّعريف للحرج يكون رفع الحرج هو :

(إزالة ما يؤدّي إلى هذه المشاقّ الموضحة في التعريف . ويتوجه الرّفع والإزالة إلى حقوق الله - سبحانه وتعالى - لأنها مبنية على المسامحة ، ويكون ذلك إمّا بارتفاع الإثم عند الفعل ، وإما بارتفاع الطّلب للفعل ، وحينما يرتفع كل ذلك ترتفع حالة الضّيق التي يعانيها المكلّف حينما يستشعر أنه يقدم على ما لا يُرضي الله ، وهذا هو الحرج النفسيّ والخوف من العقاب الأخرويّ .

كما يرتفع الحرج الحسيّ حينما يكون التّكليف شاقًا فيأتي العفو من الله - سبحانه وتعالى - إما بالكفّ عن الفعل الموقع في الحرج ، وإما بإباحة الفعل عند الحاجة إليه) [5] .

ففي قوله ، عليه السلام ، حينما سئل عن التّرتيب بين أعمال يوم النّحر من الرّمي والحلق والطّواف والنحر : ﴿ افعل ولا حرج ﴾ [6] [1] . إباحة لترك التّرتيب بين هذه

---

(١) سورة الحج آية : ٧٨ .

(٢) انظر : تفسير الطبري (١٧/ ٢٠٦) .

(٣) انظر : تفسير الطبري (١٧/ ٢٠٧) .

(٤) انظر : الدر المنثور (٤/ ٣٧٢) .

(٥) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية ص(٤٨) .

(٦) البخاري العلم (٨٣) ، مسلم الحج (١٣٠٦) ، الترمذي الحج (٩١٦) ، أبو داود المناسك (٢٠١٤) ، ابن ماجه المناسك (٣٠٥١) ، أحمد (٢/٢٠٢) ، مالك الحج (٩٥٩) ، الدارمي المناسك (١٩٠٧) .

الشعائر ، ورفع للإثم عمن لم يرّتب كترتيب رسول الله ، ﷺ في نسكه حينما قال : ﴿ خذوا عني مناسككم ﴾ [٢] [٣] .

وبعد أن تبين لنا معنى التّيسير والوسع ورفع الحرج أذكر الأدّلة على ذلك من الكتاب والسنة ، وأقوال السلف في ذلك :

الأدلة من القرآن الكريم على يسر الدين

وردت آيات كثيرة جدا تُبين أن هذا الدّين دين يسر ، وأن الله قد رفع الحرج عن هذه الأمة فيما يشقّ عليها ، حيث لم يكلّفها إلا وسعها .

وسأذكر أدلة التّيسير ، ثم أدلة رفع الحرج ، ثم أدلة عدم التكليف بغير الوسع والطّاقة .

أدلة التيسير والتخفيف:

١- أدلة التيسير والتخفيف قال الله - تعالى- : ﴿ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [٤] (البقرة : من الآية ١٨٥) .

وقال - سبحانه - : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [٥] (النساء : ٢٨) .

وقال ﷻ ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [٦] (الأعلى : ٨) .

---

[١] أخرجه البخاري (٢/ ١٨٧ ، ١٨٨) . ومسلم (٢/ ٩٤٨ ، ٩٤٩) رقم (١٣٠٦) . وأبو داود (٢/ ٢١١) رقم (٢٠١٤) . والنسائي (٥/ ٢٧٢) رقم (٣٠٦٧) . وابن ماجه (٢/ ١٠١٣ ، ١٠١٤) رقم (٣٠٥٠ ، ٣٠٥١ ، ٣٠٥٢) .

[٢] مسلم الحج (١٢٩٧) ، أبو داود المناسك (١٩٧٠) ، أحمد (٣١٨/٣) .

[٣] أخرجه مسلم (٢/ ٩٤٣) رقم (١٢٩٧) . وأبو داود (٢/ ٢٠١) رقم (١٩٧٠) . وأحمد (٣/ ٣٠١ ، ٣١٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٦٧ ، ٣٧٨) . والنسائي (٥/ ٢٧٠) رقم (٣٠٦٢) وغيرهم .

[٤] سورة البقرة آية : ١٨٥ .

[٥] سورة النساء آية : ٢٨ .

[٦] سورة الأعلى آية : ٨ .

وقال في سورة الانشراح : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾ [1] (الشرح : ٥ ، ٦) وفي سورة الطّلاق : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝ ﴾ [2] (الطلاق : من الآية ٤) وقال - جلّ من قائل - : ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝ ﴾ [3] (الطلاق : من الآية ٧) .

هذه بعض الآيات التي تفيد التّيسير على هذه الأمة .

قال القاسمي في تفسير أية البقرة : قال الشعبي : إذا اختلف عليك أمران ، فإن أيسرهما أقربهما إلى الحق لهذه الآية [4] .

وقد ذكر المفسّرون في تفسيرهم لهذه الآيات أن الله أراد لهذه الأمة اليسر ولم يرد لها العسر [5] .

أدلة رفع الحرج:

٢- **أدلة رفع الحرج** من أقوى الأدلّة وأصرحها في الدّلالة على رفع الحرج قوله - تعالى- : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [6] (الحج : من الآية ٧٨) .

قال الطبري في تفسير هذه الآية : جعل الدّين واسعًا ولم يجعله ضيّقًا [7] .

وقال ابن كثير : أي : ما كلّفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشقّ عليكم إلا جعل الله لكم فرجًا ومخرجًا [8] .

---

(١) سورة الشرح آية : ٥ ، ٦ .
(٢) سورة الطلاق آية : ٤ .
(٣) سورة الطلاق آية : ٧ .
(٤) انظر : تفسير القاسمي (٣/ ٤٢٧) .
(٥) انظر : تفسير الطبري (٢/ ١٥٦) وتفسير ابن كثير (١/ ٢١٧) وغيرهما .
(٦) سورة الحج آية : ٧٨ .
(٧) انظر : تفسير الطبري (١٧/ ٢٠٧) .
(٨) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٦) .

وقال- سبحانه- : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [1] (المائدة : من الآية ٦) .

وفي سورة التوبة : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [2] (التوبة : من الآية ٩١) .

وقال في سورة الأحـزاب : ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ [3] (الأحزاب : من الآية ٣٨) .

وفي سورتي الفتح والنور : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [4] (النور : من الآية ٦١) .

وفي هذه الآيات دلالة ظاهرة على رفع الحرج على هذه الأمة ، وأن الله لم يجعل في التّشريع حرجًا ، وبعض هذه الآيات وإن كانت خاصّة في أحكام معّينة ، ولكننا نجد التّعليل عاما ، فكأنّ التّخفيف ورفع الحرج في هذه الأحكام والفروض بإعادة الشيء إلى أصله وهو رفع الحرج عن هذه الأمة ، فكل شيء يؤدّي إلى الحرج لسبب خاصّ أو عامّ فهو معفوّ عنه ، رجوعًا إلى الأصل والقاعدة .

أدلة عدم التكليف بما يضاد الوسع والطاقة

٣- أدلة عدم التكليف بما يضاد الوسع والطاقة قال- سبحانه- في سورة البقرة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [5] (البقرة : من الآية ٢٨٦) . وفي الآية نفسها :

---

(١) سورة المائدة آية : ٦ .
(٢) سورة التوبة آية : ٩١ .
(٣) سورة الأحزاب آية : ٣٨ .
(٤) سورة النور آية : ٦١ .
(٥) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .

﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [(١)] (البقرة : من الآية ٢٨٦) .

وقال الله - تعالى - كما في الحديث الصحيح : ﴿ قد فعلت ﴾ [(٢)] وكذلك قوله :

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ ﴾ [(٣)] (البقرة : من الآية ٢٨٦) .

قال الشيخ الدكتور صالح بن حميد : (والوسع ما يسع الإنسان فلا يعجز عنه ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه ، فقوله - تعالى- : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ [(٤)] (البقرة : من الآية ٢٨٦) أي : لا يحملها إلا ما تسعه وتطيقه ولا تعجز عنه أو يحرجها دون مدى غاية الطّاقة ، فلا يكلّفها بما يتوقف حصوله على تمام صرف القدرة ، فإن عامة أحكام الإسلام تقع في هذه الحدود ، ففي طاقة الإنسان وقدرته الإتيان بأكثر من خمس صلوات وصيام أكثر من شهر ، ولكن الله جلّت قدرته ووسعت رحمته أراد بذه الأمة اليسر ولم يرد با العسر) [(٥)] .

ومن الأدلّة على أن التكليف بحدود الوسع والطّاقة قوله - تعالـى - :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [(٦)] (لأعراف : ٤٢) .

ويقول - سبحانه - في سورة المؤمنون : ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ ﴾ [(٧)] (المؤمنون : من الآية ٦٢) .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .
(٢) أخرجه مسلم (١/ ١١٦) رقم (١٢٦) .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .
(٤) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .
(٥) انظر : رفع الحرج في الشريعة الإسلامية ص (٦٩) ، وتفسير القرطبي (٣/ ٤٢٦) .
(٦) سورة الأعراف آية : ٤٢ .
(٧) سورة المؤمنون آية : ٦٢ .

قال القاسمّي : فسنة الله جارية على أنه لا يكلف النّفوس إلا وسعها [1] .

بل جاء تقرير هذه القاعدة عند ذكر بعض الأحكام الجزئية فقال- سبحانه- : ﴿ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾ [2] (البقرة : من الآية ٢٣٣) .

وكذلك في سورة الطلاق : ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ ﴾ [3] (الطلاق : من الآية ٧) .

وكذلك- أيضًا- في سورة الأنعام : ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ ﴾ [4] (الأنعام : من الآية ١٥٢) .

هذه هي الآيات التي وردت مبّينة أن التّكليف بحسب الوسع والطّاقة ، ولا شك أن الأحكام الشرعية إذا كانت مطلوبة في حدود الوسع والاستطاعة دون بلوغ غاية الطّاقة ، ففي ذلك الدّلالة الظّاهرة على أن الحرج مرفوع ، وأن اليسر سمة هذا الدّين ، والتّوسعة على العباد خاصية من خصائصه ، فهي الحنيفية السّمحة والوسطية التي لا عَنَتَ فيها ولا مشقة [5] .

[1] انظر : تفسير القاسمي (١٢/ ٤٤٠٥) .
[2] سورة البقرة آية : ٢٣٣ .
[3] سورة الطلاق آية : ٧ .
[4] سورة الأنعام آية : ١٥٢ .
[5] انظر : رفع الحرج ص (٧٣) .

الأدلة من السنة النبوية على يسر الدين

جاء في سورة براءة وصف الرسول ، ﷺ ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [1] (التوبة : ١٢٨) .

وكذلك فقد جاءت الأحاديث عنه ، ﷺ تبين يسر هذا الدين ، وتحمل النّهي عن التّشدّد والتّعمّق والغلوّ ، بل ترك ، ﷺ كثيرًا من الأعمال رحمة بأمّته وخشية من أن يشقّ عليها ، وهذا يخالف يسر الدّين وسماحته [2] .

وسأذكر بعض الأحاديث التي تؤكّد حقيقة يسر الإسلام وبعده عما يخرج عن منهج الوسطية .

وقد تنوعت أساليب رسول الله ، ﷺ في توجيه أمّته لهذه الحقائق وتأصيلها .

فنجد في الأحاديث ما جاء صريحًا في بيان أن هذا الدّين دين اليسر والسّماحة ، وأنه ، ﷺ بُعِثَ بذلك .

فقد روت عائشة - رضي الله عنها- أن رسول الله ، ﷺ قال : ﴿ إن الله لم يبعثني معنّتا ولا متعنّتا ، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا ﴾ [3] [4] .

وقال لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن : ﴿ يَسرا ولا تُعسرا وَبشرا ولا تُنفرا ﴾ [5] [6] .

وقال ، ﷺ مبيّنا حقيقة هذا الدين : ﴿ إن الدّين يسر ولن يشادّ الدّين أحد إلا غلبه ،

---

[1] سورة التوبة آية : ١٢٨ .
[2] انظر : رفع الحرج ص (٧٥) ، والإشارة للغلو والمشقة .
[3] مسلم الطلاق (١٤٧٨) .
[4] أخرجه مسلم (٢/ ١١٠٥) رقم (١٤٧٨) .
[5] البخاري الجهاد والسير (٢٨٧٣) ، مسلم الأشربة (١٧٣٣) .
[6] أخرجه البخاري (٥/ ١٠٨) . ومسلم (٣/ ١٣٥٩) رقم (١٧٣٣) .

فسدّدوا وقاربوا وأبشروا ﴾ [(١)] [(٢)] .

وروى ابن عباس عنه ، ﷺ ﴿ أنه قال لما قيل له : يا رسول الله! أي الأديان أحبّ إلى الله ؟ قال : " الحنيفية السمحة ﴾ [(٣)] [(٤)] .

وجاء في روايات أخرى : ﴿ بُعثت بالحنيفية السّمحة ﴾ [(٥)] [(٦)] .

وفي رواية : ﴿ إن أحبّ الدّين إلى الله الحنيفية السّمحة ﴾ [(٧)] [(٨)] .

وعن عروة الفقيمي رضي الله عنه قال : ﴿ كنا ننتظر النبي ، ﷺ فخرج يقطر رأسه من وضوء أو غسل فصلّى ، فلمّا قضى الصّلاة جعل الناس يسألونه : يا رسول الله! أعلينا من حرج في كذا ، فقال رسول الله ، ﷺ " لا أيها النّاس : إن دين الله عز وجل في يسر ، إن دين الله عز وجل في يسر ، إن دين الله عز وجل في يسر ﴾ [(٩)] [(١٠)] . وما خير رسول الله ، ﷺ بين

---

(١) البخاري الإيمان (٣٩) ، مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٣٤) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٠١) ، أحمد (٣٩٠/٢) .

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٥).

(٣) أحمد (٢٣٦/١) .

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٦) . والبخاري معلقًا (١/ ١٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٦٥) : رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط والبزار ، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ، ولم يصرّح بالسماع . اهـ . وحسن الحافظ إسناده في الفتح (١/ ١١٧) .

(٥) أحمد (٢٦٦/٥) .

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) . قال الهيثمي في المجمع : (٥/ ٢٨٢) : رواه أحمد والطبراني ، وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف .

(٧) أحمد (٢٣٦/١) .

(٨) قال الهيثمي في المجمع (١/ ٦٥) . رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه عبد الله بن إبراهيم الغفاري منكر الحديث .

(٩) أحمد (٦٩/٥) .

(١٠) أخرجه أحمد (٥/ ٦٩) . قال الهيثمي في المجمع (١/ ٦٧)؛ : رواه أحمد والطبراني في الكبير وأبو يعلى وفيه عاصم بن هلال ، وثقه أبو حاتم وأبو داود ، وضعفه النسائي وغيره . قال الحافظ في التقريب ص (٢٨٦) : فيه لين .

أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا [1] .

وفي مسند الإمام أحمد ، قال : قال ، ﷺ ﴿ إن خير دينكم أيسره ، إن خير دينكم أيسره ﴾ [2] [3] .

وقال ، ﷺ في حديث محجن بن الأدرع : ﴿ إن الله تعالى رضي لهذه الأمة اليسير وكره لها العسير ﴾ [4] .

وهذه الأحاديث صريحة في بيان يسر هذا الدّين وسماحته .

ونجد من أساليبه ، ﷺ في هذا الجانب ما ورد في النّهي عن الغلوّ والتنطّع .

فعن ابن عبّاس - رضي الله عنهما- قال : قال رسول الله ، ﷺ ﴿ إياكم والغلوّ في الدّين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوّ في الدّين ﴾ [5] [6] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ، ﷺ ﴿ هلك المتنطّعون ﴾ [7] قالها ثلاثًا [8] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ، ﷺ كان يقول : ﴿ لا تُشّددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم ، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فتلك بقاياهم في

---

(1) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٨) ، (٥/ ٣٢) . قال الهيثمي في المجمع (١/ ٦٦) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(2) أحمد (٣/٤٧٩) .

(3) قال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٨) : رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح .

(4) قال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٨) : رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح .

(5) النسائي مناسك الحج (٣٠٥٩) ، ابن ماجه المناسك (٣٠٢٩) ، أحمد (٢١٥/١) .

(6) أخرجه النسائي (٥/ ٢٦٨) رقم (٣٠٥٧) . وابن ماجه (٢/ ١٠٠٨) رقم (٣٠٢٩) وأحمد (١/ ٢١٥ ، ٣٤٧) ، وصححه الحاكم (١/ ٤٦٦) ، ووافقه الذهبي ، وصححه - أيضًا - الألباني كما في السلسلة الصحيحة رقم (١٢٨٣) ، وصحيح الجامع رقم (٢٦٨٠) .

(7) مسلم العلم (٢٦٧٠) ، أبو داود السنة (٤٦٠٨) ، أحمد (٣٨٦/١) .

(8) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٥٥) رقم (٢٦٧٠) . وأبو داود (٤/ ٢٠١) رقم (٤٦٠٨) . وأحمد (١/ ٣٨٦) .

الصوامع والدّيارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ [1] [2] .

ومن أساليبه- أيضًا- ﷺ ترك العمل مخافة المشقة على أمته : ومن ذلك قصة صلاة التراويح ، ﴿ حيث صلى ، ﷺ ذات ليلة في رمضان فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى القابلة فكثر النّاس ، ثم اجتمعوا في الليلة الثالثة أو الرّابعة فلم يخرج إليهم ، فلما أصبح قال : " قد رأيت الذي صنعتم فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أنيّ خشيت أن تُفرض عليكم ﴾ [3] وفي الرّواية الأخرى : ﴿ فتعجزوا عنها ﴾ [4] [5] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ، ﷺ قال : ﴿ لولا أن أشقّ على أمّتي لأمرتم بالسّواك عند كل صلاة ﴾ [6] [7] .

بل إنه يعمل العمل فيندم على ذلك مخافة المشقة على أمّته : فقد روت عائشة - رضي الله عنها- ﴿ أن رسول الله ، ﷺ خرج من عندها وهو مسرور ثم رجع إليها وهو كئيب ، فقال : " إنّي دخلت الكعبة ، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت ما دخلتها ، إنّي أخاف

---

[1] أبو داود الأدب (٤٩٠٤) .

[2] أخرجه أبو داود (٤/ ٢٧٦ ، ٢٧٧) رقم (٤٩٠٤) ، وأخرجه أبو يعلى ، كما في المطالب العالية (١/ ١١٧) رقم (٤٢٢) وفي إسناد هذا الحديث : سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء؛ مختلف في توثيقه . قال الحافظ في التقريب ص (٢٣٨) مقبول . وقال - أيضًا - في التهذيب (٤/ ٥٧) : ذكره ابن حبان في الثقات ، وروى له أبو داود حديثًا واحدًا . . وذكر هذا الحديث . قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٥٩) : رجاله رجال الصحيح ، غير سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء وهو ثقة!! وضعف هذا الحديث العلامة الألباني كما في ضعيف الجامع رقم (٦٢٣٢) ، والأقرب حسن هذا الإسناد . والله - تعالى - أعلم .

[3] البخاري الجمعة (١٠٧٧) ، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٦١) ، النسائي قيام الليل وتطوع النهار (١٦٠٤) ، أبو داود الصلاة (١٣٧٣) ، أحمد (٦/٢٦٨) ، مالك النداء للصلاة (٢٥٠) .

[4] البخاري الجمعة (٨٨٢) ، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٦١) .

[5] أخرجه البخاري (١/ ٢٢٢) . ومسلم واللفظ له (١/ ٥٢٤) رقم (٧٦١) .

[6] البخاري الجمعة (٨٤٧) ، مسلم الطهارة (٢٥٢) ، الترمذي الطهارة (٢٢) ، النسائي الطهارة (٧) ، أبو داود الطهارة (٤٦) ، ابن ماجه الطهارة وسننها (٢٨٧) ، مالك الطهارة (١٤٧) .

[7] أخرجه البخاري (١/ ٢١٤) . ومسلم (١/ ٢٢٠) رقم (٢٥٢) .

أن أكون قد شققت على أمّتي ﴾ [1] [2] .

ووصل من رحمته ، وتيسيره ﷺ على أمّته وكرهه للمشقة عليهم ما يفيده هذا الحديث الذي رواه أبو قتادة ، حيث قال ، ﷺ ﴿ إنّي لأقوم إلى الصّلاة وأنا أريد أن أطوّل فيها فأسمع بكاء الصّبي فأتجوّز كراهية أن أشقّ على أمّه ﴾ [3] [4] .

ومن أساليبه في ذلك نيه ، ﷺ لأصحابه عن أعمال تؤدي إلى المشقة والعسر :

﴿ فقد جاء رجل إلى رسول الله ، ﷺ فقال : إنّي لأتأخّر عن صلاة الصّبح من أجل فلان مما يطيل بنا ﴾ [5] قال أبو مسعود الأنصاري راوي الحديث : فما رأيت النبي ، ﷺ غضب في موعظة قطّ أشدّ مما غضب يومئذ ، فقال : ﴿ أيّها الناس إن منكم منفّرين ، فأيّكم أمّ النّاس فليوجز ، فإن من ورائه الكبير ، والضعيف ، وذا الحاجة ﴾ [6] [7] .

﴿ ودخل مرة المسجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين فقال : ما هذا الحبل ؟ فقالوا : حبل لزينب ، فإذا فترت تعلقت به ، فقال ، ﷺ حلّوه ، ليصلّ أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد ﴾ [8] [1] .

---

[1] الترمذي الحج (٨٧٣) ، أبو داود المناسك (٢٠٢٩) ، ابن ماجه المناسك (٣٠٦٤) .

[2] أخرجه أبو داود (٢/ ٢١٥) رقم (٢٠٢٩) . وابن ماجه (٢/ ١٠١٨ ، ١٠١٩) رقم (٣٠٦٤) . وضعّفه الألباني كما في ضعيف الجامع رقم (٢٠٨٥) .

[3] البخاري الأذان (٨٣٠) ، النسائي الإمامة (٨٢٥) ، أبو داود الصلاة (٧٨٩) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (٩٩١) ، أحمد (٣٠٥/٥) .

[4] أخرجه البخاري (١/ ١٧٣) . وأبو داود (١/ ٢٠٩) رقم (٧٨٩) .

[5] البخاري الأحكام (٦٧٤٠) ، مسلم الصلاة (٤٦٦) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (٩٨٤) ، أحمد (٤/ ١١٨) ، الدارمي الصلاة (١٢٥٩) .

[6] البخاري الأحكام (٦٧٤٠) ، مسلم الصلاة (٤٦٦) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (٩٨٤) ، أحمد (٤/ ١١٨) ، الدارمي الصلاة (١٢٥٩) .

[7] أخرجه البخاري (١/ ١٧٢ ، ١٧٣) . ومسلم (١/ ٣٤٠) رقم (٤٦٦ ، ٤٦٧) .

[8] البخاري الجمعة (١٠٩٩) ، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٨٤) ، النسائي قيام الليل وتطوع النهار (١٦٤٣) ، أبو داود الصلاة (١٣١٢) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٧١) ، أحمد (٢٥٦/٣) .

وجاء في الصّحيحين وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه ﴿أن النبي ﷺ رأى شيخًا يهادي بين ابنيه ، فقال : ما بال هذا ؟ قالوا : نذر أن يمشي ، قال : إن الله عن تعذيب هذا لنفسه لغني ، وأمره أن يركب﴾ [2] [3] .

ومثل ذلك ﴿قصة الثلاثة الذين سألوا عن عبادة الرسول ﷺ ، فلما علموا ذلك كأنهم تقالّوها! فقال أحدهم : أمّا أنا فأصوم ولا أفطر ، وقال الآخر : أمّا أنا فأصّلي الليل أبدًا ، وقال الآخر : لا أتزوجّ النساء ، فقال ﷺ أأنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أمَا والله إني أخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنّي أصوم وأفطر ، وأصلّي وأرقد ، وأتزوج النّساء ، فمن رغب عن سّنتي فليس مني﴾ [4] [5] .

وأختم هذه الأحاديث بهذا الحديث الذي رواه الدارقطني بسنده عن نافع عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما- قال : ﴿خرج رسول الله ، ﷺ في بعض أسفاره فسار ليلا فمر على رجل جالس عند مقراة له- وهي الحوض الذي يجتمع فيه الماء- فقال له عمر : يا صاحب المقراة : ولَغتْ السّباع الليلة في مقراتك ؟

فقال له النبي ، ﷺ " يا صاحب المقراة لا تخبره ، هذا متكلّف ، لها ما حملت في بطونا ، ولنا ما بقي شراب طهور﴾ [6] .

ومما سبق من هذه الأحاديث يتبين لنا سماحة هذا الدّين ويسره ، وبعده عن الغلوّ والّتشدّد وما يؤدّي إلى المشقة والعسر .

---

[1] أخرجه البخاري (٢/ ٤٨) . ومسلم (١/ ٥٤٢) رقم (٧٨٤) .
[2] البخاري الحج (١٧٦٦) ، مسلم النذر (١٦٤٢) ، الترمذي النذور والأيمان (١٥٣٧) ، النسائي الأيمان والنذور (٣٨٥٤) ، أبو داود الأيمان والنذور (٣٣٠١) ، أحمد (٣/١٠٦) .
[3] أخرجه البخاري (٧/ ٢٣٤) . ومسلم (٣/ ١٢٦٣ ، ١٢٦٤) رقم (١٦٤٢ ، ١٦٤٣) .
[4] البخاري النكاح (٤٧٧٦) ، مسلم النكاح (١٤٠١) ، النسائي النكاح (٣٢١٧) ، أحمد (٣/٢٨٥) .
[5] أخرجه البخاري (٦/ ١١٦) . ومسلم بمعناه (٢/ ١٠٢٠) رقم (١٤٠١) .
[6] سنن الدارقطني (١/ ٢٦) .

أقوال السلف في رفع الحرج [1]

ما ذكرته من الأدلّة من الكتاب والسنة يغني عما سواه ، بل إن آية واحدة أو حديثًا واحدًا صحيحًا حجة في ذلك .

ولكن لأبين أن قضيّة يسر هذا الدّين وسماحته ووسطيته أصبحت منهجًا عمليا ، استجابة لله ورسوله ، فسأذكر بعض ما ورد عن السّلف في هذا الباب ، مع الاختصار دون إخلال أو إقلال .

يقول عبد الله بن مسعود ﷺ مبيّنا منهج الصّحابة في ذلك : " من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات ، فإن الحيّ لا تُؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ، ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرّها قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلّها تكلّفًا ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، ﷺ ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتّبعوهم على أثرهم وسيرتم ، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم " [2] .

وقال - أيضًا - إياكم والتّنطّع ، إياكم والتّعمّق ، وعليكم بالعتيق [3] .

وقال أنس بن مالك ﷺ كنّا عند عمر ﷺ فسمعته يقول : " نينا عن التّكلّف " [4] .

قال الدكتور صالح بن حميد : هذه الصّيغة وإن كان لها حكم المرفوع ، غير أنها تدلّ على البعد عن التّكلّف هو منهج عمر وغيره من الصّحابة [5] .

وقد مر عمر ﷺ في طريق فسقط عليه شيء من ميزاب ، فقال رجل مع عمر : يا صاحب الميزاب ، ماؤك طاهر أو نجس ؟ فقال عمر : يا صاحب الميزاب : لا تخبرنا ، ومضى [6] .

---

(1) انظر : رفع الحرج (٨٧) وما بعدها .
(2) إغاثة اللهفان (١/ ١٥٩) ورفع الحرج ص (٨٧) .
(3) انظر : إغاثة اللهفان (١/ ١٥٩) ورفع الحرج ص (٨٨) .
(4) انظر إغاثة اللهفان (١/ ١٥٩) ورفع الحرج ص (٨٨) .
(5) انظر : رفع الحرج ص (٨٨) .
(6) انظر : إغاثة اللهفان (١/ ١٥٤) ورفع الحرج ص (٨٩) .

وروي أن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما- سئل عن الجبن الذي تصنعه المجوس ؟ فقال : ما وجدته في سوق المسلمين اشتريته ولم أسأل عنه [1] .

وقال الإمام الشعبي : إذا اختلف عليك أمران فإن أيسرهما أقربهما إلى الحقّ لقوله- تعالى- : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [2] (البقرة : من الآية ١٨٥) .

وقال معمر وسفيان الثوري : إنما العلم أن تسمع بالرّخصة من ثقة . فأما التّشديد فيحسنه كل أحد [3] .

وقال إبراهيم النخعي : إذا تخالجك أمران فظن أن أحبهما إلى الله أيسرهما [4] .

وروي عن مجاهد وقتادة وعمر بن عبد العزيز : أفضل الأمرين أيسرهما لقوله- تعالى- : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴾ [5] (البقرة : من الآية ١٨٥) [6] .

والآثار في هذا كثيرة جدا ، وما مضى فيه الكفاية- إن شاء الله- .

وبعد :

فإن المتأمّل لهذه الآثار من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة يلحظ أن هذا المعنى غائب عن واقع وفهم كثير من المسلمين ، وقليل منهم من يدرك هذه الحقيقة ويتعامل معها ، حيث إنه يوجد هناك من لو سئل عن هذا الأمر لأجاب الإجابة الصّحيحة ، ولكن عند التأمّل في واقعه وتعامله والتزامه ومنهجه لا نجد إلا الإفراط أو التّفريط .

والعجب أن بعض هؤلاء كأنه أغير على دين الله من رسول الله ، ﷺ بل من الله- جلّ وعلا- الذي يقول : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [7] (الحج : من الآية ٧٨) .

---

[1] انظر : جامع العلوم والحكم ص (٢٦٩) ورفع الحرج ص (٩١) .
[2] سورة البقرة آية : ١٨٥ .
[3] انظر : جامع بيان العلم وفضله ص (٢٨٥) ، ورفع الحرج ص (٩٢) .
[4] انظر : رفع الحرج ص (٩٢) ، والآثار لأبي يوسف ص (١٩٦) .
[5] سورة البقرة آية : ١٨٥ .
[6] انظر : المغني (٣/ ١٥٠) ، ورفع الحرج ص (٩٢) .
[7] سورة الحج آية : ٧٨ .

ويقول : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [1] (البقرة : من الآية ١٨٥) .

ويقول : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [2] (النساء : ٢٨) .

وهذا لا يعني- أيضًا- التّفريط والتساهل والتّهاون بحجّة أن هذا الدّين يسر ، وهو ما يبرّر به كثير من المقصّرين والعصاة أفعالهم ، فإن تحديد مفهوم اليسر والتّوسعة إلى الشارع لا إلى أهواء الناس ورغباتم وما ألفوه ودرجوا عليه ، فلا إفراط ولا تفريط ، ولا غلوّ ولا جفاء (كلا طرفي قصد الأمور ذميم) . ثم إن قضية التّيسير والتّوسعة قضية منهج متكامل وليست تتعلّق بجزئية أو جزئيات كما قد يتصور بعض الناس .

وبهذا التّعريف والشّمول ندرك أن هذا الأمر يندرج في منهج الوسطية التي هي سمة من سمات هذه الأمة ، وخاصية من خصائصها ، فلن نستطيع أن ندرك حقيقة الوسطية إلا إذا فهمنا سمة اليسر والتّوسعة ورفع الحرج ، وإلا تصبح الوسطية معنى مفرغًا من حقيقته ، وقولا نظريا لا وجود له في الواقع ، وبذلك يفقد هذا الدّين خاصية لها أثرها في حياة الناس ومآلهم .

رابعا البينية وأقوال بعض أهل العلم فيها

ذكرت في مبحث سابق أن البينية من لوازم وصفات الوسطية ، وحيث ذكرت ذلك مختصرًا فإنّي أزيده هنا وضوحًا وبيانًا ، فأقول :

إن إطلاق لفظ البينية يدلّ على وقوع شيء بين شيئين أو أشياء ، وقد يكون ذلك حسا أو معنى .

وعندما نقول : إن (الوسطية) لا بدّ أن تتصف بالبينية ، فإننا لا نعني مجرد البينية الظرفية ، بل إن الأمر أعمق من ذلك ، حيث إن هذه الكلمة تعطي مدلولا عمليا على أن هذا الأمر فيه اعتدال وتوازن وبُعد عن الغلوّ والتّطرف أو الإفراط والتفريط .

[1] سورة البقرة آية : ١٨٥ .

[2] سورة النساء آية : ٢٨ .

وبذا تكون البينية صفة مدح ، لا مجرد ظرف عابر .

ومن هذا التفسير جاءت علاقة البينية بالوسطية ، وقد رأيت جمهورًا من العلماء ربطوا بين الوسطية والبينية ، ولا غرابة في ذلك ، فإن لهذا أصلا في اللغة والاشتقاق ، كما سبق بيان ذلك ، وهو المتبادر إلى الأذهان عند إطلاق هذه الكلمة .

ولأهمية هذه القضيّة [1] فسأذكر بعض أقوال العلماء ، ومن قال بذلك منهم في القديم والحديث :

١- الإمام الطبري : حيث قال في تفسيره : وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء ، الذي هو بين طرفين ، مثل وسط الدّار .

وأرى أن الله- تعالى ذكره- إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسّطهم في الدّين ، فلا هم أهل غلوّ فيه ، غلوّ النّصارى الذين غلو بالترهّب ، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه .

ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله ، وقتلوا أنبيائهم ، وكذبوا على ربّهم ، وكفروا به ، ولكنهم أهل توسّط واعتدال فيه ، فوصفهم الله بذلك ، إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوسطها [2] .

٢- شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد ذكرتُ كلامه سابقًا ، وأُعيد بعضه هنا ، حيث قال في العقيدة الواسطية :

فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك ، كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل هم الوسط في فرق الأمة ، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم .

فهم وسط في باب صفات الله- تعالى- بين أهل التّعطيل الجهمية ، وأهل التمثيل المشبّهة .

---

[1] وذلك أن أحد الباحثين ألف رسالة علمية وبناها على عدم التلازم بين الوسطية والبينية ، واعتبر أن ذلك خطأ ممن قال به ، وهو الأستاذ فريد عبد القادر في رسالته : الوسطية في الإسلام .

[2] انظر : تفسير الطبري (٢/ ٦) .

وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهم .

وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم .

وفي باب أسماء الإيمان والدّين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية .

وفي أصحاب رسول الله بين الرافضة والخوارج [١] .

٣- **رشيد رضا** حيث قال : قالوا : إن الوسط هو العدل والخيار ، وذلك أن الزّيادة على المطلوب في الأمر إفراط ، والنّقص عنه تفريط وتقصير ، وكل من الإفراط والتفريط ميْل عن الجادّة القويمة ، فهو شرّ ومذموم ، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر ، أي المتوسط بينهما .

ثم ذكر قولا لأستاذه محمد عبده حيث إنه يرى- أيضًا- أن الوسط هو المتوسّط بين أمرين مع كونه خيارًا [٢] .

٤- **يوسف القرضاوي** فقد قال : ونعني بها- أي الوسطية- التوسّط أو التّعادل بين طرفين متقابلين أو متضادّين ، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتّأثير ، ويطرد الطرف المقابل ، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقّه ، ويطغى على مقابله ، ويحيف عليه ، ثم ذكر بعض الأمثلة في ذلك [٣] .

٥- **محمد قطب** حيث بين في كتابه " منهج التربية الإسلامية " أن الوسطية هي التّوازن ، والتّوازن هو العدل ، حيث قال في قوله- تعالى- : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [٤] (البقرة : من الآية ١٤٣) . وسطًا في كل شيء ، متوازنين ، في كل ما تقومون به من نشاط .

ثم بين أن الوسطية تعني التوفيق بين أشياء كثيرة ، كالتوفيق بين مطالب الفرد

---

[١] انظر : شرح العقيدة الواسطية ص (١٢٤) .

[٢] انظر : تفسير المنار (٢/ ٤) .

[٣] انظر : الخصائص العامة للإسلام ص (١٢٧) ، والوسطية في الإسلام لفريد عبد القادر ص (ج) .

[٤] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

الواحد ، وبين مطالب الجموع ، والتوفيق بين العمل للعاجلة والآجلة . . . وهكذا [1] .

٦- عبد الرحمن بن ناصر السّعدي ، وانظر ما قاله في رسالة القواعد الحسان لتفسير القرآن ، القاعدة (٢٤) : وبالجملة فإن الله العليم الحكيم أمر بالتوسّط في كل شيء بين خلقين ذميمين ، تفريط وإفراط ، وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [2] (البقرة : من الآية ١٤٣) [3] .

٧ - عمر سليمان الأشقر ، فقد اعتبر الوسطية هي الأمر الوسط بين أمرين متطرّفين ، حيث قال : من المعضلات التي لم ينجح المشرّعون من البشر في حلّها التّطرّف في التّشريع ، فبعض القوانين تجنح إلى أقصى اليسار ، وبعض آخر يجنح إلى أقصى اليمين ، وقلّما يوفّق واضعو القوانين إلى التوسّط والاعتدال .

وقال في موضع آخر : وإذا نظرت إلى الشّريعة الإسلامية وجدتا وسطًا في كل أحكامها ، فأحكامها بين الغالي والجافي [4] .

٨- عمر بهاء الدين الأميري ، فقد تناول الوسطية من منطلق التوسّط بين شيئين ، حتى إنه اعتبر من وسطية هذه الأمة التوسّط الجغرافي في المكان والمناخ . ومما قال : وقد كان من تدبير الله الحكيم العليم في هذه الأمة أن جعل وسطيتها في كل مجال :

فهي موطن الرّسالة الأولى ، وفي ساحتها الحضارية المشعّة المترامية الأطراف- من بعد- في مناخ محتمل ، وجوّ مسعف ، لا في مناطق بركانية زلزالية ، ولا لاظية استوائية ، ولا متجمّدة قطبية ، حيث تقعد قساوة الطبيعة بالإنسان عن الحركة والنّشاط والإعمار الحضاري .

وهي وسط في موقعها الجغرافي المهمّ ، حيث كانت مهابط الوحي ، أرض الإسلام ،

---

[1] انظر : منهج التربية الإسلامية (١/ ٢٨) .

[2] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

[3] انظر : القواعد الحسان ص (٩٠) .

[4] انظر : خصائص الشريعة الإسلامية ص (٨٦ ، ٨٧) ، والوسطية في الإسلام لفريد عبد القادر (و) .

ومهد الأمة الإسلاميّة الأولى .

فهي الوسط بين الشّمال والجنوب ، والشرق والغرب ، وهي مركز الوصل بين إفريقيا وآسيا ، وطرف ممتدّ من أوروبا ، وهي الرّباط البريّ بين الطّرق المائية (1) .

٩- يوسف كمال ، حيث قال : أما الوسطية في الإسلام فهي حدود لمنهج الحركة في طريق مستقيم إلى هدف ، بعيد عن انحرافات في سبل شتّى تؤدّي للضّلال .

قال عنه فريد عبد القادر : إلا أنه قد لازم عرضه فكرة التّوسّط بين أمرين (2) .

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن صفة البينية أمر أساسي في تحديد الوسطية ، وأن هؤلاء العلماء والكُتّاب اعتبروا هذا الأمر قضية مسلمة في تحديدهم ، وتعريفهم للوسطية .

وقد ذكرت الأدلّة من القرآن والسنة على أن البينية صفة لازمة للوسطية ، وذلك في مبحث (تحرير معنى الوسطية) .

وهذه البينية ليست مجرّد الظّرفية ، وإنما هي التي تعطي الدلالة على التّوازن والاستقامة والعدل ، ومن ثم الخيرية ، فهذه هي الوسطية الحقة . وبذا يتضح لنا الخطأ الذي وقع فيه الأستاذ فريد عبد القادر عندما ذهب إلى أن الوسطية لا تستلزم البينية ، ومن ثم قام بتخطئة من ذهب إلى ذلك كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره ممن ذكرت سابقًا ، حيث قال :

لقد ركّزت الدّراسات السّابقة حول موضوع الوسطية على مفهوم التّوسّط بين أمرين . (ثم قال) :

فكانت فكرة التّوسّط بين أمرين مسيطرة على الأذهان والعقول أثناء البحث لإظهار وسطية الإسلام ، مع التّعبير عن هذه الوسطية بالخيرية ، (ثم حكم عليها قائلا) : فكانت هذه الدّراسات تخلط أثناء البحث بين ملابسات صحيحة ، ونتائج غير صحيحة .

---

(1) انظر : وسطية الإسلام وأمته في ضوء الفقه الحضاري ص (٥٨) ، والوسطية في الإسلام ص (و) لفريد عبد القادر .

(2) انظر : مستقبل الحضارة ليوسف كمال ص (١٢٧) ، والوسطية في الإسلام ص (ز) .

ثم ذكر أمثلة تدلّ على عدم فهمه لما ذهب إليه أولئك الأعلام ، ومن ثم قام بالحكم الجائر إياه [1] .

خامسا العدل والحكمة

أمّا العدل فقد صحّ فيه الحديث عن رسول الله ﷺ ، حيث فسر قوله - تعالى - : ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [2] (البقرة : من الآية ١٤٣) بقوله : عدولا : وذلك في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري ، حيث قال ، ﷺ ﴿ والوسط والعدل ﴾ [3] .

وفي رواية الطبري : قال : ﴿ أمة وسطًا ﴾ [4] عدولا [5] .

وقد بيّنت أن الوسطية بينية ، ومن ثم لا بد من العدل في اختيار هذا الأمر الذي بين أمرين أو عدة أمور .

قال القرطبي : والوسط : العدل ، وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها .

ثم قال : قال علماؤنا : أنبأنا ربنا- تبارك وتعالى- في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة ، وتولية خطير الشهادة على جميع خلقه ، فجعلنا أولا مكانًا ، وإن كنا آخرًا زمانًا ، كما قال ، عليه السلام : ﴿ نحن الآخرون الأولون ﴾ [6] [7] . وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدول ، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلا [8] .

---

(١) انظر رسالته : وسطية الإسلام ص (ب) ، ومن هنا فإني أنصح طلاب العلم بعدم التعجل بتخطئة العلماء والمفكرين ، وهذا لا يعني عصمتهم ، ولكن كما قال الشاعر : وكم من عاتب قولا صحيحًا وآفته من الفهم السقيم .

(٢) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٣) انظر : تفسير الطبري (٢/ ٧) . والحديث أخرجه الترمذي (٥/ ١٩٠) رقم (٢٩٦١) وأحمد (٣/ ٩) وعندهما " عدلا " بدل " عدولا " .

(٤) البخاري أحاديث الأنبياء (٣١٦١) ، الترمذي تفسير القرآن (٢٩٦١) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٨٤) ، أحمد (٣/ ٥٨) .

(٥) انظر : تفسير الطبري (٢/ ٦) .

(٦) البخاري الجمعة (٨٥٦) ، مسلم الجمعة (٨٥٥) ، النسائي الجمعة (١٣٦٨) ، أحمد (٢/٢٧٤) .

(٧) أخرجه البخاري (١/ ٢١١) . ومسلم (٢/ ٥٨٥) رقم (٨٥٥) .

(٨) انظر : تفسير القرطبي (٢/ ١٥٥) .

ومّما يدلّ على أن العدل من ملامح الوسطية قول الطبري : وأما التّأويل فإنه جاء بأنّ الوسط العدل ، وذلك معنى الخيار ، لأن الخيار من الناس عدولهم [1] .

ثم ساق الأدلّة من السنة وأقوال السّلف في ذلك .

وقال رشيد رضا : قال الأستاذ : إن في لفظ الوسط إشعارًا بالسببية ، فكأنه دليل على نفسه ، أي : أن المسلمين خيار وعدول لأنهم وسط [2] .

وإذا كان الوسط شيء بين شيئين ، فإنه يلزم لأن يكون وسطًا شرعيًا أن يكون عدلا ، لأنه إذا لم يكن كذلك مال وانحرف إلى أحد الطّرفين ، إما إلى الإفراط ، وإما إلى التّفريط ، وهذا خروج عن حقيقة العدل ، ومن ثم خروج عن الوسط ، ولذلك جاءت صفة الحكمة ملمحًا من ملامح الوسطية ، وبيان هذا : أن التوسّط هو توسّط معنوي ، وتحديد هذا التوسّط يكون بمراعاة جميع الأطراف ، تحقيقًا للمصالح ، ودرءًا للمفاسد ، وهذه هي الحكمة الشّرعية . وبعبارة أخرى : فإن الوسطية أمر نسبي ، يخضع تحديده لعوامل عدة لا بد من مراعاتها ، ولا يتحقق ذلك إلا بإتقان الحكمة .

ومن أجل إلقاء مزيد من الضّوء على هذه الحقيقة أذكر بعض ما ورد في الحكمة من أقوال المفسّرين ، وتعريفات العلماء [3] .

قال عبد الرحمن بن سعدي :

الحكمة : هي العلوم النّافعة ، والمعارف الصّائبة ، والعقول المسدّدة ، والألباب الرزينة ، وإصابة الصّواب في الأقوال والأفعال ، ثم قال : وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة التي هي وضع الأشياء مواضعها ، وتنـزيل الأمور منازلها ، والإقدام في محلّ الإقدام ، والإحجام في موضع الإحجام . [4] . .

وقال سيد قطب : الحكمة : القصد والاعتدال ، وإدراك العلل والغايات ، والبصيرة

---

[1] انظر : تفسير الطبري (٢/ ٧) .

[2] انظر : تفسير المنار (٢/ ٤) .

[3] انظر المزيد من التفصيل لتعريف الحكمة : رسالة المؤلف (الحكمة) .

[4] انظر : تفسير ابن سعدي (١/ ٣٣٢) .

المستنيرة التي تديه للصّالح الصّائب من الحركات والأعمال [1] .

وكلام ابن سعدي وسيّد في غاية الدّلالة على صلة الحكمة بالوسطية .

قال ابن القيّم : وأحسن ما قيل في الحكمة قول مجاهد ومالك : إنّها معرفة الحقّ والعمل به ، والإصابة في القول والعمل .

وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن ، والفقه في شرائع الإسلام ، وحقائق الإيمان [2] .

وقال في موضع آخر : هي : فعل ما ينبغي ، على الوجه الذي ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي [3] .

وقوله : (على الوجه الذي ينبغي) من أقوى دلالات الوسطية .

وقال في موضع آخر : الحكمة : أن تعطي كل شيء حقّه ، ولا تعدّيه حدّه ، ولا تعجله عن وقته ، ولا تؤخّره عنه [4] .

ونخلص ممّا سبق : أن الحكمة لا بد من اعتبارها عند تحديد معنى الوسطية ، بل إن الالتزام بالوسطية وعدم الجنوح إلى الإفراط أو التّفريط هو عين الحكمة وجوهرها .

وذلك أن الخروج عن الوسطية له آثاره السلبية ، إما عاجلا أو آجلا ، وهذا يُخالف الحكمة ويُنافيها .

ومن الأمثلة التي توضّح ذلك :

أمر الابن بالصّلاة لسبع سنين ، وضربه عليها ضربًا غير مبرح بعد بلوغ العاشرة ، فإننا نجد التوسّط في هذه القضية ظاهرًا بين الإفراط وبين التّفريط ، وهذه هي الحكمة ، حيث فرق بين من لم يبلغ السّابعة ، وبين من بلغها ، وكذلك من بلغ العاشرة يختلف أمره ، ثم من أدرك الحلم يختلف عما سبق . . . . وهكذا ، فقد نـزّل الأمور منازلها ، ووضع الأشياء مواضعها .

وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [5] (البقرة : من الآية ٢٦٩) .

---

[1] انظر : في ظلال القرآن (١/ ٣١٢) .
[2] انظر : التفسير القيم ص (٢٢٦) .
[3] انظر : مدارج السالكين (٢/ ٤٧٩) .
[4] انظر مدارج السالكين (٢/ ٤٧٨) .
[5] سورة البقرة آية : ٢٦٩ .

دليل تطبيقي لهذه الملامح

بعد أن بّينت ملامح الوسطية سأذكر دليلا عمليا تبرز فيه جميع هذه الملامح ، حيث يمثّل أعلى درجات الوسطية : عن أنس بن مالك ﵁ قال : ﴿ جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ، ﷺ يسألونه عن عبادته ، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها ، فقالوا : أين نحن من النبي ، صلى الله عليه وسلم ؟ فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

فقال أحدهم : أما أنا فأصلّي الليل أبدًا ، وقال آخر : أنا أصوم الدّهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النّساء فلا أتزوّج أبدًا .

فجاء رسول الله ، صلى الله ﷺ فقال : إّني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكّني أصوم وأفطر ، وأصلّي وأرقد ، وأتزوّج النساء ، فمن رغي عن سُنتي فليس مني ﴾ [1] [2] .

وسأذكر ملامح الوسطية واحدة واحدة ، مع بيان موضعها من الحديث :

أولا الخيرية

وهذا يتضح من قوله ، ﷺ ﴿ إّني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ﴾ [3] ثم يبيّن أنه يأخذ بالوسطية : فيصوم ويفطر ، ويصلّي وينام ، ويتزوّج النّساء ، فلولا أن هذا العمل لا يعارض الخشية والّتقوى ، بل يطّرد معهما لم يذكرها في هذا المقام ، واستخدم هذا أفعل التفضيل " أخشاكم - أتقاكم " وهي أعلى درجات الخيرية .

فاتضح أن هذه الوسطية التي يرشدنا إليها رسول الله ، ﷺ تمثّل الخشية والّتقوى ، وهذه هي الخيرية في أفضل صورها .

[1] البخاري النكاح (٤٧٧٦) ، مسلم النكاح (١٤٠١) ، النسائي النكاح (٣٢١٧) ، أحمد (٢٨٥/٣) .
[2] أخرجه البخاري (٦/ ١١٦) . ومسلم بمعناه (٢/ ١٠٢٠) رقم (١٤٠١) .
[3] البخاري النكاح (٤٧٧٦) ، مسلم النكاح (١٤٠١) ، النسائي النكاح (٣٢١٧) ، أحمد (٢٨٥/٣) .

ثانيا الاستقامة

وتبرز هذه الحقيقة في قوله ، ﷺ ﴿ فمن رغب عن سنتي فليس مني ﴾ [1]

إذن فالاستقامة هي بأن يصوم ويفطر ، وينام ويرقد ، ويتزوّج النّساء ، والخروج عنها انحراف عن الاستقامة ، فهذا العمل الذي يمثّل الوسطية ، لا نقول إنه لا يُعارض الاستقامة ؛ بل هو الاستقامة بعينها ، حيث جعله الرسول ، ﷺ من سننه ، وهل الاستقامة إلا الالتزام بسنته والأخذ بها .

ثالثا اليسر ورفع الحرج

وهذا أمر جلّي وبين ، فنحن بين عملين وردا في هذا الحديث :

تبّتل وامتناع عن النّساء والزّواج مع ما في ذلك من مشقة وحرج .

ويقابله تزوّج النّساء مع ما في ذلك من قضاء الوطر ، والمودّة والرّحمة ، وإنجاب الأولاد .

الأول يمثل الانحراف عن سنة النبي ، ﷺ مع ما فيه من مشقّة وعسر ، والثاني يمثّل الوسطية مع ما فيه من تخفيف وتيسير ورحمة ، ودفع للحرج .

وقل مثل ذلك في الصّيام ، والقيام .

إذن فالوسطية في اليسر ورفع الحرج ، وليس في التّكلّف والمشقة والعَنت .

رابعا البينية

والأمثلة تبرهن على ذلك :

١ - امتناع عن الزّواج مطلقًا - إفراط .

ويقابله التفريط وهو اتّباع الشّهوات دون وازع أو قيد .

وبينهما : قضاء الشّهوة والوطر ، ولكن ضمن الضّوابط الشّرعية ، ويتمثل في الزّواج وهذا هو الوسط ، وهو المشروع .

---

[1] البخاري النكاح (٤٧٧٦) ، مسلم النكاح (١٤٠١) ، النسائي النكاح (٣٢١٧) ، أحمد (٢٨٥/٣) .

٢- صيام دائم - إفراط .

الإفطار دائمًا - تفريط .

الصيام أحيانًا - والفطر أحيانًا - وسط بين الأمرين - وهو المشروع في ضوابطه الشرعية .

٣- القيام مطلقًا - إفراط .

النوم مطلقًا - تفريط .

القيام والنوم حسب الطّاقة ودون تكلّف - وسط ، وهذا هو المشروع .

خامسًا : العدل والحكمة : وتبرز صفة العدل بالنّظر إلى مطالب النّفس وواجبات العبادة ، فقد جعل لكل منها نصيبًا ، فعدل بين حقّ الرّبّ وحقّ النّفس ، ولم يكن في ذلك حيف أو شطط ، وحاشاه من ذلك .

أمّا الحكمة : فإنه بالنّظر إلى قدرة النفس ومدى تحمّلها ، وغفلة هؤلاء القوم عن قدرتم في فورة الحماس والاندفاع ، فجاء الرسول ﷺ يضع الأمور مواضعها ، ويجعلها في مسارها الطّبيعي ، فإن أحبّ العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه [1] ولو التزم هؤلاء الرّجال بما قالوا لتعبوا عاجلا أو آجلا . ثم إن هذا الفعل نفسه مخالفة لصريح الحكمة وحقيقتها ، وذلك أن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه ، والإصابة في القول والعمل ، وهذا هو عين ما وجه إليه ، ﷺ .

ومن خلال هذا التّطبيق العمليّ لملامح الوسطية في ضوء هذا الحديث ، يتضح المراد ، مما يساعد على فهم الوسطية ، واستنباطها في المباحث التالية إن شاء الله .

[1] أخرجه البخاري (١/ ١٦) . ومسلم (١/ ٥٤٢) رقم (٧٨٥) .

القرآن يقرر منهج الوسطية

مقدمة توضيحية

نـزل القرآن الكريم هدايةً للنّاس ونورًا ، يُخرج به الله من شاء من الظّلمات إلى النور ، ولزوم منهج الوسطية عين الهداية ، وحقيقتها ، ولذلك فقد جاءت الآيات مستفيضةً ترسم منهج الوسطية وتدلّ عليه .

والوسطية ليست محصورةً في جزئية من الجزئيات ، بل ولا في ركن من الأركان! وإنما هي منهج متكاملٌ شاملٌ ، لا ينفصل بعضه عن بعض ، فالإسلام كلّه وسطٌ ، ولذلك فهذه الأمة هي أمة الوسط : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [1] (البقرة : من الآية ١٤٣) .

والذين يغفلون عن هذه الحقيقة يغفلون عن جوهر القرآن ومقاصده .

ومن هذا المنطلق جاء القرآن الكريم مقرّرًا لمنهج الوسطية في أبواب العبادات ، والاعتقاد ، والحكم والتحاكم ، وفي باب الجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وغيرها من الأبواب والـالات .

والناظر في كتاب الله لا يتلو بضع آيات إلا ويجد فيها ذلك صراحة أو إيماءً .

ولذلك فإن الذين حصروا الحديث عن الوسطية في الآيات التي جاء فيها لفظ (الوسط) أو ما اشتق منه ، قصروا الكل على بعض أجزائه ، وإلا فإن بعض الآيات التي لم يرد فيها لفظ الوسط جاءت أقوى دلالة على الوسطية من آيات ورد فيها هذا اللفظ .

وبيانًا لهذه الحقيقة وتجلية لها ، سنعيش مع كتاب الله متأمّلين بعض ما ورد فيه ، تقريرًا لهذا المنهج وتأصيلا له .

وتسهيلا للوصول إلى الهدف ، سأذكر كل باب وبعض ما ورد فيه من آيات ، معلّقًا على بعض الآيات بما يُبينّ المراد من إيرادها ، ودلالتها على المنهج الذي نحن بصدده .

---

[1] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

وأنبه إلى نقطتين مهمّتين :

الأولى : أن الآيات التي سأذكرها ليست على سبيل الحصر والاستقصاء ، وإنما اكتفيت من الآيات بما كان أكثر دلالة من سواه ، لأن المراد ، هو بيان تقرير القرآن لمنهج الوسطية ، لا الحديث عن كل آية وردت تُقرّر منهج الوسطية .

الثانية : أن الأبواب التي سأذكرها هي أبرز الأبواب التي تصلح منطلقًا للحديث عن هذا المنهج ، وبخاصة أن انحراف الناس فيها عن منهج الوسطية أكثر من غيرها ، ولا يعني ذلك أن ماعداها ليس مهما .

وهذه الأبواب هي :

١- الاعتقاد .

٢- التشريع والتكليف .

٣- العبادة .

٤- الشهادة والحكم .

٥- الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

٦- الجهاد في سبيل الله .

٧- المعاملة والأخلاق .

٨- كسب المال وإنفاقه .

٩- مطالب النفس وشهواتا .

وقد أجد آية من الآيات تصلح دليلا في أكثر من باب ، ولكّني سألحقها بأقرب هذه الأبواب إليها ، مراعاة للاختصار ودفعًا للّتكرار .

وحيث إن هناك عددًا من الآيات الدالة على الوسطية غير داخلة تحت أي باب من هذه الأبواب ، فسأجعلها تحت عنوان : (شواهد أخرى) ، تكون ختامًا لهذه الأبواب ومكمّلة لها .

وسأفتتح الحديث عن تقرير القرآن لمنهج الوسطية بوقفة مع سورة الفاتحة ، في ضوء

ما ورد فيها عن هذا المنهج .

ومن الله استمدّ العون وأسأله التّوفيق والسّداد .

وقفة مع سورة الفاتحة

أجد خير بداية لبيان المنهج القرآني في تقرير الوسطية أن أقف مع أمّ الكتاب ، حيث إنا من أولها إلى آخرها تقرّر هذه الحقيقة وتؤكدها .

ولكن أبرز آية فيها ناطقة بذلك هي قوله - تعالى - ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [1] (الفاتحة : ٦) . وما بعدها .

وهذه الآية صريحة في تحديد المنهج الوسط ، ذلك أنّه بيّن أن هذا الصرّاط هو صراط الذين أنعم الله عليهم .

قال الطبري : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أنّ الصّراط المستقيم هو الطّريقُ الواضحُ الذي لا اعوجاج فيه ، وكذلك ذلك في لغة جميع العرب ، فمن ذلك قول جرير الخطفي : قال الطبري : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أنّ الصّراط المستقيم هو الطّريقُ الواضحُ الذي لا اعوجاج فيه ، وكذلك ذلك في لغة جميع العرب ، فمن ذلك قول جرير الخطفي :

أميـر المؤمـنين علـى صـراطٍ إذا اعـوج المـوارد مسـتقيم

قال ابن عباس :

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [2] (الفاتحة : ٦) يقول : ألهمنا الطّريق الهادي ، وهو دين الله الذي لا عَوَجَ له [3] .

ثم قال : وكلّ حائد عن قصد السّبيل وسالك غير المنهج القويم فضال عند العرب ،

---

(١) سورة الفاتحة آية : ٦ .

(٢) سورة الفاتحة آية : ٦ .

(٣) انظر : تفسير الطبري (١/ ٧٣ ، ٧٤) .

لإضلاله وجه الطّريق [1] .

وقد بيّن الله لنا أن الصّراط المستقيم هو منهج الوسط ، حيث قال واصفًا الصراط المستقيم : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [2] (الفاتحة : من الآية ٧) ومنهج المغضوب عليهم يمثل التفريط ، بينما يمثل منهج الضّالين الإفراط ، فهما منهجان دائران بين الغلوّ والجفاء .

قال ابن كثير : غير صراط المغضوب عليهم ، وهم الذين فسدت إرادتم ، فعلموا الحقّ وعدلوا عنه ، ولا صراط الضّالين ، وهم الذين فقدوا العلم ، فهم هائمون في الضّلالة ، لا يهتدون إلى الحق [3] .

وبذا يّتضح لنا أن هناك ثلاثة سبل : سبيل الذين أنعم الله عليهم ، وسبيل المغضوب عليهم ، وسبيل الضالين .

ونحن مأمورون بالالتزام بسبيل الذين أنعم الله عليهم ، لأنه هو الصّراط المستقيم ، وهو المنهج الوسط بين طريقين منحرفين ، وهما طريقا اليهود والنصارى ، وكل طريق منحرف عن منهج الصّراط المستقيم فله حظّ . من أحد هذين السبيلين .

ولأن الاستقامَة تعني الوسطية كما توضحها آية الفاتحة ، وكما حرّرت ذلك في مبحث سابق ، جاءت الآيات متعدّدة تدعو إلى الاستقامة بأساليب متعدّدة وألفاظ مُتقاربة ، وهي تدور بين الخبر والإنشاء . ومن هذا المنطلق ، وبعد أن تقرّر أن طريق الاستقامة هو طريق الأمة الوسط ، فإن كل آية وردت في الاستقامة فهي آية في تحقيق الوسطية والدّعوة إليها .

والآيات في هذا الباب كثيرة جدا أذكر بعضًا منها دلالة على المراد ، وبيانًا لهذا المنهج .

---

[1] انظر : تفسير الطبري (١/ ٨٤) .

[2] سورة الفاتحة آية : ٧ .

[3] انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٢٩) .

قال - سبحانه - : ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ ﴾ [1] (هود : من الآية ١١٢) . وقال : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ ﴾ [2] (الشورى : من الآية ١٥) .

وأجد في هاتين الآيتين ما يستحقّ التّنبيه عليه ، ونحن بصدد الحديث عن الوسطية ، وذلك أنّه قال في الآية الأولى : ﴿ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ ﴾ [3] (هود : من الآية ١١٢) بعد أن أمر بالاستقامة ، والطغيان هو مجاوزة الحدّ [4] . وهو خروج عن منهج الوسطية إلى الانحراف عن السبيل .

وفي الآية الثانية : قال : ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ [5] (الشورى : من الآية ١٥) واتباع الهوى خروج عن الاستقامة ، وانحراف عن منهج الوسط .

وتتواصل الآيات في هذا الشأن ، ففي سورة البقرة : ﴿ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ١٤٢ ﴾ [6] (البقرة : من الآية ١٤٢) . وفي آل عمران : ﴿ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ١٠١ ﴾ [7] (آل عمران : من الآية ١٠١) . وفي الأنعام : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ ﴾ [8] (الأنعام : من الآية ١٥٣) . وفيها : ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ ﴾ [9] (الأنعام : من الآية ١٦١) .

---

(١) سورة هود آية : ١١٢ .

(٢) سورة الشورى آية : ١٥ .

(٣) سورة هود آية : ١١٢ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي (٩/ ١٠٧) .

(٥) سورة المائدة آية : ٤٨ .

(٦) سورة البقرة آية : ١٤٢ .

(٧) سورة آل عمران آية : ١٠١ .

(٨) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .

(٩) سورة الأنعام آية : ١٦١ .

وفي النحل : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [(1)] (النحل : ٧٦) . وفي الزخرف : ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [(2)] (الزخرف : ٤٣) .

وفي سورة الملك : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [(3)] (الملك : ٢٢) .

إلى غير ذلك من الآيات ، حيث إن كل واحدة منها دالّة على أنّ الصّراط المستقيم هو الطّريق الذي أمرنا باّتباعه واجتناب ما عداه ، لأنّه هو طريق الحقّ والعدل والوسط ، وما عداه طريق الضّلال والغواية والانحراف عن الصّراط المستقيم ، وهاهو الشّيطان يُعلن هذه الحقيقة قائلا كما ذكر الله في سورة الأعراف : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [(4)] (الأعراف : من الآية ١٦) ، وصدق الله العظيم . إذ يقول : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [(5)] (الأنعام : من الآية ٣٩) .

وكما بدأنا في آيات الدعوة للاستقامة نختم با ، قال - سبحانه - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [(6)] (الاحقاف : ١٣) .

---

(١) سورة النحل آية : ٧٦ .
(٢) سورة الزخرف آية : ٤٣ .
(٣) سورة الملك آية : ٢٢ .
(٤) سورة الأعراف آية : ١٦ .
(٥) سورة الأنعام آية : ٣٩ .
(٦) سورة الأحقاف آية : ١٣ .

وفي سورة الجن : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [1] (الجن : ١٦) . وفي التكوير : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [2] (التكوير : ٢٧ ، ٢٨) .

وهذه الآية نصّ في أنّ القرآن كله دعوة للاستقامة والسير على المنهج الحقّ ، قال القرطبيّ : ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ [3] (التكوير : من الآية ٢٧) يعني القرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [4] (التكوير : من الآية ٢٧) أيْ : موعظة وزجر . ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [5] (التكوير : ٢٨) أي يتبع الحق ويُقيم عليه [6] .

ومما سبق يّتضح لنا أن سورة الفاتحة وضَعَت القاعدة والمنطلق ، ورسَمت المنهج وحددت معالمه ، ثم جاءت الآيات بعد ذلك مقرّرة لذلك ، وداعية إليه .

أولا منهج الوسطية في الاعتقاد

لقد جاء تقرير القرآن لمنهج الوسطية في العقيدة شاملا ومتكاملا ، وذلك أنّ العقيدة هي الأساس ، وعليها البناء ، فأيّ انحراف فيها يسري على ما سواها ويؤثر فيه .

والعقيدة من أوسع الأبواب وأكملها ، حيث تشتمل على الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره ، وشرّه .

وكل قسم من هذه الأقسام يشتمل على عدّة موضوعات وأجزاء .

وسأسلك في بيان تقرير القرآن للوسطية - في بعض أبواب الإيمان - المنهج

(١) سورة الجن آية : ١٦ .
(٢) سورة التكوير آية : ٢٧ - ٢٨ .
(٣) سورة التكوير آية : ٢٧ .
(٤) سورة التكوير آية : ٢٧ .
(٥) سورة التكوير آية : ٢٨ .
(٦) انظر : تفسير القرطبي (١٩/ ٣٤٣) .

الإجمالي [١] . دون الدخول في التفاصيل والجزئيات ، لأن ذلك يُؤدي بنا إلى التّفريع والدخول في الجزئيات ، مما لا يستلزمه مثل هذا البحث ، ولا تدعو الحاجة إليه هنا .

وما سيرد في ثنايا ذلك من جزئيات فليست إلا أمثلة مُختارة للوصول إلى تحقيق المعنى المراد وتقريره .

إن أعظم أصول الإيمان وأعلاها مرتبة هو الإيمان بالله ، وتوحيده ، توحيده في ربوبيته ، وألوهيته ، وأسمائه ، وصفاته .

ولقد ضلّت طوائف كثيرة في هذا الباب ، فهم بين إفراط وتفريط ، وغلو وجفاء .

فنجد من الناس - كاليهود - من وصف الله - جل وعلا - بصفات النّقص التي يختصّ بها بعض المخلوقين ، وشبهوا الخالق بالمخلوق ، فقالوا : إنّه بخيل! وإنّه فقير! وإنّه لما خلق السماوات والأرض تعب فاستراح يوم السبت! إلى غير ذلك من صفات النقص التي لا تليق به - سبحانه - !! .

وجاء آخرون - كالنصارى - فوصفوا المخلوق بصفات الخالق التي يختّص بها ، فشبّهوا المخلوق بالخالق ، حيث قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . وقالوا : المسيح ابن الله . وقالوا : إن المسيح يخلق ، ويرزق ، ويغفر ، ويرحم ، ونحو ذلك [٢] .

بل هناك من أنكر وجود الله - جلّ وعلا - ، وآخرون ادعوا الألوهية كفرعون .

﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [٣] (النازعـات : من الآية ٢٤) . وقال : ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [٤] (القصص : من الآية ٣٨) .

وجاء القرآن بالمنهج الوسط ، وأنكر على كل فريق من هؤلاء وغيرهم ما ارتكبوه في جنب الله - تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرًا - .

---

[١] سأقتصر على ركني الإيمان بالله ورسله ، لأنما إذا تحققا على الوجه الصحيح ، فتحقق غيرهما من لوازم ذلك .

[٢] انظر : وسطية أهل السنة ص (٢٥٧) .

[٣] سورة النازعات آية : ٢٤ .

[٤] سورة القصص آية : ٣٨ .

وأزيد الأمور وضوحًا ، فأقول :

جاء اليهود فوصفوا الله - جل وعلا - بالبخل والفقر! وهذه الصفات لا تليق بالبشر ، فكيف بحق الله تعالى ؟ ! وهذا القول والاعتقاد انحراف في العقيدة وضلال مبين .

فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾[1] (آل عمران : ١٨١) .

روى الطّبريّ بسنده عن ابن عباس ، قال : دخل أبو بكر الصديق ﷺ بيت المدارس ، فوجد من يهود ناسًا كثيرًا ، قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، كان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حْبر يُقال له أشيع ، فقال أبو بكر ﷺ لفنحاص : ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم إن محمدًا رسول الله ، قد جاءكم بالحق من عند الله ، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل ، قال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرّع إليه كما تضرّع إلينا ، وإنّا عنه لأغنياء ، ولو كان عّنا غنيًا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنيا عّنا ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة ، وقال : والذي نفسي بيده ، لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله ، فاكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين ، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول الله ، إنّ عدوّ الله قال قولا عظيمًا ، زعم أن الله فقير ، وأنم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ، فضربت وجهه ، فجحد ذلك فنحاص ، وقال : ما قلت ذلك ، فأنـزل الله - تبارك وتعالى - فيما قال فنحاص ردا عليه وتصديقًا لأبي

[1] سورة آل عمران آية : ١٨١ .

بكر : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [1] (آل عمران : من الآية ١٨١) الآية .

وأورد الطّبريّ عددًا من الروايات تُؤكّد سبب هذا النّزول [2] . وكذلك لما قال اليهود يد الله مغلولة ، نـزل قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾ [3] (المائدة : من الآية ٦٤) . وردّ عليهم في قولهم : إنّ الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استراح في اليوم السابع ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [4] (ق : ٣٨) [5]

والشاهد أنّ هذه الآيات وأمثالها جاءت لتردّ على هؤلاء وأمثالهم ، وفي الوقت الذي جاءت لتردّ على هذا الانحراف فإنا تُقرّر المنهج الحق ، وما يجب على المؤمن أن يعتقده في جنب الله - تعالى - .

وكذلك نجد الرّدّ على من أنكر الألوهية وادّعاها لنفسه في قصة إبراهيم مع نمروذ حيث ذكرها الله في سورة البقرة ، فقال - سبحانه - : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [6] (البقرة : ٢٥٨) .

---

[1] سورة آل عمران آية : ١٨١ .
[2] انظر : تفسير الطبري (٤/ ١٩٤) .
[3] سورة المائدة آية : ٦٤ .
[4] سورة ق آية : ٣٨ .
[5] انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٩) .
[6] سورة البقرة آية : ٢٥٨ .

قال ابن كثير في قوله - تعالى - : ﴿ حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ [1] (البقرة : من الآية ٢٥٨) أي : وجود ربه ، وذلك أنَّه أنكر أن يكون له إله غيره ، كما قال بعده فرعون لملئه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [2] (القصص : من الآية ٣٨) [3] .

أما النصارى فقد شبهوا المخلوق بالخالق وأضفوا عليه من الصِّفات والخصائص ما لا يليق إلا بالله ﷻ فقالوا عن المخلوق كقولهم في عيسى : إنه يخلق ويرزق ، ويغفر ويرحم ، ويتوب على الخلق ، ويثيب ويُعاقب ، إلى غير ذلك من خصائص الربوبية ، وصفات الألوهية التي لا تكون إلا لله - سبحانه - [4] وهم بذا القول قد جعلوا المسيح ، عليه السلام ، إلهًا ، فجاء القرآن الكريم ليبيِّن انحرافهم وخروجهم عن الصراط المستقيم ، فقال - سبحانه - : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [5] (المائدة : ١٧) .

وقال : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [6] (المائدة : ٧٣) .

ومن ضلال النصارى وانحرافهم أنم سبّوا الله ﷻ وتنقّصوه من الوجه الذي أرادوا به تعظيمه ، حيث قالوا : إن المسيح ابن الله . ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٥٨ .
(٢) سورة القصص آية : ٣٨ .
(٣) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٣١٣) .
(٤) انظر : وسطية أهل السُّنة ص (٢٧٣) .
(٥) سورة المائدة آية : ١٧ .
(٦) سورة المائدة آية : ٧٣ .

﴿ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [(1)] (التوبة : من الآية ٣٠) . وقد ردّ الله عليهم وعلى أمثالهم مثل هذا القول وبين أنّه انحراف وضلال ، فقال - سبحانه - منـزهًا نفسه : ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ [(2)] (البقرة : من الآية ١١٦) . وقال : ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [(3)] (مريم : ٨٨-٩٣) . وقال في سورة الأنعام : ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾ [(4)] (الأنعام : ١٠١) .

وهناك من أرادوا تنـزيه الله - جل وعلا - فنفوا عنه أسماءه وصفات الكمال التي وصف بها نفسه ، ووصفه بها رسوله ، ﷺ فجاءت الآيات الكثيرة التي تثبت لله صفات الكمال وأسماء ذي الجلال ، ومنها : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ [(5)] (الفاتحة : ٢ ، ٣) . وقوله : ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [(6)] (الأعراف : من الآية ١٥٦) . وقال : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ [(7)] (الحشر : من الآية ٢٣) .

---

(1) سورة التوبة آية : ٣٠ .
(2) سورة البقرة آية : ١١٦ .
(3) سورة مريم آية : ٨٨ - ٩٣ .
(4) سورة الأنعام آية : ١٠١ .
(5) سورة الفاتحة آية : ٢ - ٣ .
(6) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .
(7) سورة الحشر آية : ٢٣ .

﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ [1] (الفتح : من الآية ٦) . إلى غير ذلك من الآيات .

وخلاصة القول :

إن القرآن جاء لِيُبيِّن انحراف أولئك المنحرفين ، ويرد عليهم ضلالهم ، وانحرافهم ، ويُقرِّر المنهج الحقّ ، ويُبيِّن ما يجب أن يعتقده المسلم في الله ، من الإيمان به - جل وعلا - . ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ [2] (البقرة : من الآية ٢٨٥) . ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ [3] (البقرة : من الآية ١٣٦) . ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ [4] (الملك : من الآية ٢٩) . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [5] (النساء : من الآية ١٣٦) . ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ ﴾ [6] (الحديد : من الآية ١٩) .

وكذلك يجب أن يثبت لله ما يثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ، ﷺ وينفي عنه ما نفاه عنه نفسه أو نفاه عنه رسوله ، ﷺ .

قال - سبحانه - : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [7] (الأعراف : ١٨٠) . فالإلحاد في أسماء الله وصفاته خروج عن منهج الوسطية الذي رسمه القرآن وأثبته . ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [8] (الإسراء : من الآية ١١٠) . والذين

---

[1] سورة الفتح آية : ٦ .
[2] سورة البقرة آية : ٢٨٥ .
[3] سورة البقرة آية : ١٣٦ .
[4] سورة الملك آية : ٢٩ .
[5] سورة النساء آية : ١٣٦ .
[6] سورة الحديد آية : ١٩ .
[7] سورة الأعراف آية : ١٨٠ .
[8] سورة الإسراء آية : ١١٠ .

يصفون الله بغير ما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ يُلحدون في آيات الله ، وهذا انحراف عن الصّراط المستقيم . ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ ﴾ [1] (فصلت : من الآية ٤٠) .

والله - جل وعلا - له صفات الكمال وأسماء الإجلال : لا يُشبه أحدًا من خلقه ، ولا يشبهه أحد من خلقه . ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١ ﴾ [2] (الشورى : من الآية ١١) .

والآيات في كتاب الله كثيرة جدا ، جاءت مثبتة ونافية ، ومنـزهة الله عما يصفه بـه الواصفون، - تعالى الله عما يقـول الجاحـدون علوا كبيرًا ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ ﴾ [3] (البقرة : من الآية ١١٦) . ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠ ﴾ [4] (الأنعام : من الآية ١٠٠) . ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣١ ﴾ [5] (التوبة : من الآية ٣١) . ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ ﴾ [6] (النحل : من الآية ٥٧) . ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤٣ ﴾ [7] (الإسراء : ٤٣) . ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٧ ﴾ [8] (الزمـر : من الآية ٦٧) . وصدق الله العظيم . ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ

---

[1] سورة فصلت آية : ٤٠ .
[2] سورة الشورى آية : ١١ .
[3] سورة البقرة آية : ١١٦ .
[4] سورة الأنعام آية : ١٠٠ .
[5] سورة التوبة آية : ٣١ .
[6] سورة النحل آية : ٥٧ .
[7] سورة الإسراء آية : ٤٣ .
[8] سورة الزمر آية : ٦٧ .

يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾ ﴾ [1] (الإخلاص : ١-٤) .

ومما سبق يتضح لنا صفاء عقيدة التوحيد وسلامتها من تأويل المؤولين وجحد الجاحدين ، وتشبيه المشّبهين ، وأن الجميع قد انحرفوا عن الصّراط المستقيم ، نفيًا أو إثبأتا ، إفراطًا أو تفريطًا ، ولذلك جاءت الآيات تلو الآيات ، إثبأتا ونفيًا ، وإنكارًا وردا وتنـزيهًا ، لتقرّر المنهج الحق بين الغلوّ والجفاء ، والنفي والإثبات ، مما يليق به - سبحانه - وتقدّست أسماؤه ، وعلا وعزّ شأنه وسلطانه .

ونجد من أصول الاعتقاد الإيمان برسل الله ، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وذلك يقتضي إنـزالهم منازلهم التي أنـزلهم الله إّياها .

وعند دراسة أحوال الأمم في هذه القضية نجد الاضطراب والتناقض والغلوّ والجفاء .

وكما ذكرنا اليهود والنصارى مثلين للانحراف في باب الإيمان بالله ، فسأذكرهما هنا نموذجين - أيضًا - للانحراف في باب الإيمان بالرسل ، وذلك لأن القرآن ، ذكرهما في مواضع عدة ، ولأنهما أشهر أُمتين قبل أمة محمد ، ﷺ .

موقف اليهود من أنبياء الله ورسله

ولنأخذ موقف اليهود من أنبياء الله ورسله [2] .

١- أنهم فرّقوا بين الله **ورسله ،** وآمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض ، بمجرّد التّشهّي والعادة ، لا عن دليل قادهم إلى ذلك ، فإنه لا سبيل إلى ذلك ، بل بمجرّد الهوى والعصبية [3] قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾ [4] (النساء : ١٥٠) وهذا الأمر وإن كان يشترك فيه اليهود والنصارى ، ولكنه في اليهود أكثر .

---

[1] سورة الإخلاص آية : ١ - ٤ .

[2] انظر : في ذلك رسالة وسطية أهل السنة ص (٢٨٦) وما بعدها .

[3] انظر : تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩٦) .

[4] سورة النساء آية : ١٥٠ .

٢- أنم خذلوا أنبياءهم ، ونقضوا العهود التي أخذوها عليهم ، قال - سبحانه - : ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ﴾ [1] (المائدة : من الآية ١٢) .

وآيات أخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل كثيرة جدًا [2] ولكن ماذا كانت النتيجة : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ [3] (المائدة : من الآية ١٣) . ونقض العهد والغدر يُنبئ عن مكانة الأنبياء في نفوسهم وعقيدتم فيهم .

٣- أنم تنقّصُوا بعض الأنبياء والرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، ورموهم بارتكاب كبائر الذنوب ، ورموهم بالنقائص والعيوب ، والتوراة - المحرفة - مليئة بذا اللون ، وفيها من الخزي والعار ما يَندى له الجبين .

فنسبوا لهارون ، عليه السلام ، أنّه صنع لهم العجل الذي عبدوه من دون الله ، ورموا نبي الله سليمان ، عليه السلام ، بأنه في أواخر أيّامه مال إلى ممالأة نسائه على عبادة الأوثان ، وبني لهن المعابد والأوثان ، وأنّه لم يكن مخلصًا في إيمانه بربه عز وجل .

واتموا نوحًا ، عليه السلام ، بأنّه كان يشرب الخمر ، واتموا داود ولوطًا ، عليهما السلام ، بالزنا ، إلى غير ذلك من النقائص والتهم التي يقشعرّ لها قلب كل مؤمن [4] .

ولا يُستغرب ذلك على أولئك الذين رموا رسولهم ونبيهم موسى ، عليه السلام ،

---

(١) سورة المائدة آية : ١٢ .
(٢) انظر : تفصيل ذلك في كتاب العهد والميثاق في القرآن للمؤلف حيث تجد فصلا خاصا بذلك .
(٣) سورة المائدة آية : ١٣ .
(٤) انظر : تفصيل ذلك وأدلته في وسطية أهل السنة ص (٢٨٩) .

بالنقائص والعيوب . فقال - سبحانه - مخبرًا عنهم ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [1] (الأحزاب : ٦٩) .

٤- قتلهم الأنبياء والرّسل ، وقد ذكر الله ذلك في القرآن في أكثر من موضع : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [2] (البقرة : من الآية ٨٧) . وقال : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [3] (المائدة : ٧٠) . وقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ﴾ [4] (البقرة : من الآية ٦١) .

ومن أشهر من قتل اليهود من الأنبياء زكريا وابنه يحيى ، عليهما السلام [5] .

هذه عقيدة اليهود في أنبياء الله ورسله ، والذي ينظر إلى مواقفهم مع موسى ، عليه السلام ، وهو نبيهم ومنقذهم من فرعون ، يجد العجب [6] . ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ ﴾ [7] (الصف : من الآية ٥) .

فكل من وقف من الأنبياء والرسل موقف تفريط وجفاء في اليهود أسوة وقدوة .

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٦٩ .
(٢) سورة البقرة آية : ٨٧ .
(٣) سورة المائدة آية : ٧٠ .
(٤) سورة البقرة آية : ٦١ .
(٥) انظر : تفسير الطبري ٦/ ٢٨٤ ووسطية أهل السنة ص (٢٩٦) .
(٦) انظر : تفصيل ذلك في ظلال القرآن تفسير سورة الصف ، وكتاب العهد والميثاق في القرآن للمؤلف في فصل نقض بني إسرائيل للعهد .
(٧) سورة الصف آية : ٥ .

عقيدة النصارى في الأنبياء والرسل

أمّا النصارى فإن عقيدتم في الأنبياء والرسل تتلخص في موقفين [1]

الأول : التفريط والجفاء مع أنبياء الله ورسله - عدا عيسى ، عليه السلام ، فلم يؤمنوا ببعضهم ، وكفروا بمحمد ، ﷺ - قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ ﴾ [2] (النساء : ١٥٠) . قال ابن جرير - رحمه الله - ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ [3] (النساء : من الآية ١٥٠) يعني أنم يقولون : نصدق بذا ونكذب بذا ، كما فعلت اليهود في تكذيبهم عيسى ومحمد ، ﷺ وتصديقهم بموسى وسائر الأنبياء قبلهم بزعمهم ، [4] وكما فعلت النصارى من تكذيبهم محمدًا ، ﷺ وتصديقهم بعيسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم [5] .

وقال - تعالى - مبينًا كفرهم بمحمد ، ﷺ ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [6] (الصف : ٦) .

الثاني : الغلو والإفراط ، ويتمثل ذلك في غلوهم في عيسى ، عليه السلام ، حيث رفعوه فوق المكانة التي جعله الله فيها ، وأنـزلوه فوق المنـزلة التي أنـزله الله إياها - زعموا - .

فلم يؤمنوا به عبدًا لله ، ورسولا نبيًا ، وإنما جعلوه هو الله ، أو ابن الله ، أو ثالث

---

[1] انظر : وسطية أهل السنة ص (٣٠١) .
[2] سورة النساء آية : ١٥٠ .
[3] سورة النساء آية : ١٥٠ .
[4] تحفظ الطبري - رحمه الله - في مكانه ، لأنم في الحقيقة لم يؤمنوا بم جميعًا .
[5] انظر : تفسير الطبري (٩/ ٣٥١) .
[6] سورة الصف آية : ٦ .

ثلاثة !! بل عبدوه من دون الله ﷻ وأضافوا إليه من الأفعال والأعمال ما لا يصح إضافته ونسبته إلا إلى الله ﷻ [1] .

قال - تعالى - : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [2] (المائدة : من الآية ٧٢) . ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [3] (المائدة : من الآية ٧٣) . ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [4] (التوبة : من الآية ٣٠) .

وقال ﷺ ﴿ لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا : عبد الله ورسوله ﴾ [5] [6] .

وهذان الموقفان - أي موقف اليهود وموقف النصارى - يمثلان مواقف الناس في الأنبياء والرسل في جانب الإفراط والتفريط والغلو والجفاء [7] . أمّا الموقف الحق وهو الذي قرّره القرآن وبينه ، فإنه بين هذين الموقفين ، فهو وسط بين الغلو والجفاء ، والإفراط والتفريط ، ويمكن تلخيصه فيما يلي :

---

[1] انظر : وسطية أهل السنة ص ٣٠١ .
[2] سورة المائدة آية : ٧٢ .
[3] سورة المائدة آية : ٧٣ .
[4] سورة التوبة آية : ٣٠ .
[5] البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٦١) ، أحمد (٥٦/١) .
[6] أخرجه البخاري (٤/ ١٤٢) وأحمد (١/ ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٧ ، ٥٥) .
[7] قد تكون هناك مواقف لبعض اليهود تتشابه مع موقف النصارى ، كقول بعضهم " عزير ابن الله " وكذلك قد تكون هناك مواقف لبعض النصارى تشابه موقف اليهود ، كخذلان بعضهم لعيسى وعدم نصرته ، والعبرة بالموقف لا بالأشخاص سواء أكانوا من اليهود أم النصارى أم المشركين أم غيرهم .

موقف القرآن الكريم من أهل الإفراط والتفريط في رسل الله

رد الله على أولئك الذين انحرفت عقيدتم في رسل الله وأنبيائه

١- ردّ الله على أولئك الذين انحرفت عقيدتم في رسل الله وأنبيائه ، وردّهم عن الانحراف إلى المنهج الحق تقريرًا لهذا المنهج الذي أمر الله باتباعه والالتزام به ، وهو العدل والصواب فيما يجب أن يعتقده المسلم ويعامل به أنبياء الله ورسله .

فقد ردّ الله على الذين فرّقوا بين الله ورسله ، وآمنوا ببعضهم وكفروا ببعض ، وبيّن خطأ اعتقادهم وضلال طريقهم ، فقال - سبحانه - : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ [1] (النساء : ١٥١) .

قال القرطبي - رحمه الله - : قوله - تعالى - : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ ﴾ [2] (النساء : من الآية ١٥١) تأكيد يزيل التوهّم في إيمانهم حين وصفهم بأنهم يقولون نؤمن ببعض ، وأن ذلك لا ينفعهم إذا كفروا برسوله ، وإذا كفروا برسوله فقد كفروا به ﷻ وكفروا بكل رسول مُبشِّر بذلك الرسول ، فلذلك صاروا الكافرين حقًا [3] .

أمّا الذين نقضوا العهود والمواثيق التي أخذها الله عليهم بالإيمان بالرسل ونصرتهم ، فقد قال - سبحانه - مبيّنًا عاقبة جريرتهم : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ [4] (المائدة : من الآية ١٣) . وقال في موضع آخر مبيّنًا عاقبة نقض العهد والميثاق : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ

---

[1] سورة النساء آية : ١٥١ .
[2] سورة النساء آية : ١٥١ .
[3] انظر : تفسير القرطبي (٦/ ٥) .
[4] سورة المائدة آية : ١٣ .

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۙ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [1] (الرعد : ٢٥) .

والذين كفروا بالأنبياء ، وفرّقوا بينهم قد نقضوا عهد الله وخانوا مواثيقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل .

قال القرطبي : ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [2] (الرعد : من الآية ٢٥) أي : من الأرحام ، والإيمان بجميع الأنبياء [3] .

أمّا الذين آذوا الأنبياء ، وتنقّصوهم ، واتموهم بأبشع التهم ، فقد جاء الردّ عليهم إمّا مباشرًا أو غير مباشر ، فالذين اتموا هارون بأنه أمرهم بالشرك وصنع لهم العجل ، قال الله مبرءا هارون : ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ [4] (طـه : ٩٠) .

وقال عن سليمان ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [5] (ص : من الآية ٣٠) .

أما نوح ولوط وداود ، عليهم السلام ، فقد قال الله عنهم وعن غيرهم من الأنبياء والرسل الذين ذكرهم - سبحانه - في سورة الأنعام : ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [6] (الأنعام : ٨٩) .

وقال بعد ذلك مزكّيا لهم وآمرًا رسوله ﷺ أن يقتدى بم : ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [7] (الأنعام : من الآية ٩٠) . وقال عن نوح : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ

---

(١) سورة الرعد آية : ٢٥ .
(٢) سورة الرعد آية : ٢٥ .
(٣) انظر : تفسير القرطبي (٩/ ٣١٤) .
(٤) سورة طه آية : ٩٠ .
(٥) سورة ص آية : ٣٠ .
(٦) سورة الأنعام آية : ٨٩ .
(٧) سورة الأنعام آية : ٩٠ .

نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴿٣﴾ [1] (الإسراء : ٣) . وقال عن داود : ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ [2] (صٓ : من الآية ١٧) .

أما الذين قتلوا الأنبياء والرسل فماذا كانت عاقبتهم جزاء انحرافهم عن الطريق السوي ؟ تجيب هذه الآيات على هذا السؤال : ﴿ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٦١﴾ [3] (البقرة : من الآية ٦١) . وقال - سبحانه - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ [4] (آل عمران : ٢١) .

وكذلك نجد ردّ الله على النصارى وغلّوهم في عيسى عليه السلام ، حيث حكم عليهم بالكفر واللعن ، قال - سبحانه - : ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ ﴾ [5] (المائدة : من الآيتين ١٧ ، ٧٢) . وقال : ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ [6] (المائدة : ٧٣) .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ [7] (التوبة : ٣٠) .

---

[1] سورة الإسراء آية : ٣ .
[2] سورة ص آية : ١٧ .
[3] سورة البقرة آية : ٦١ .
[4] سورة آل عمران آية : ٢١ .
[5] سورة المائدة آية : ١٧ .
[6] سورة المائدة آية : ٧٣ .
[7] سورة التوبة آية : ٣٠ .

الحكم على الانحراف وبيانه

٢- إن الحكم على الانحراف وبيانه وسيلة مباشرة للوصول إلى الطريق الصحيح ، والمنهج المستقيم ، فبعد بيان خطأ هؤلاء الذين انحرفت عقيدتم وضلوا في رسل الله نأتي إلى بيان المنهج الحق في أنبياء الله ورسله ، كما قرره القرآن الكريم ، ودعا إليه في أكثر من موضع .

قال - تعالى - : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [1] (البقرة : ١٣٦) .

قال قتادة : أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا ويصدّقوا بأنبيائه ورسله كلهم ، ولا يفرقوا بين أحد منهم [2] .

وقال سبحانه : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾ [3] (البقرة : من الآية ٢٨٥) .

وبين الله عبودية الأنبياء والرسل فقال سبحانه : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴿٣﴾ ﴾ [4] (الإسراء : ٣) . وقال : ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [5] (صّ : ٤٥) .

أمّا عيسى فقد بيّن الله المنهج الحق فيه فقال : ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ

---

(١) سورة البقرة آية : ١٣٦ .
(٢) انظر : تفسير الطبري (١/ ٥٦٨) .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .
(٤) سورة الإسراء آية : ٣ .
(٥) سورة ص آية : ٤٥ .

عَبۡدٗا لِّلَّهِ ﴾ [1] (النساء : من الآية ١٧٢) . وقال : ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ﴾ [2] (المائدة : من الآية ٧٥) وقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ ﴾ [3] (النساء : من الآية ١٧١) ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ﴾ [4] (آل عمران : ٥٩) .

أمّا محمد ﷺ فقال فيه - سبحانه- :

﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ﴾ [5] (الإسراء : من الآية ١) . وقال : ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ ﴾ [6] (النجم : ١٠) . وقال له الله ﷻ ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ ﴾ [7] (الأنعام : من الآية ٥٠) .

وقال مبيِّنًا حق رسوله على أمته : ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [8] (الفتح : من الآية ٩) . وقال : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٥٧ ﴾ [9] (الأعراف : من الآية ١٥٧) . وقال : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ

---

(١) سورة النساء آية : ١٧٢ .
(٢) سورة المائدة آية : ٧٥ .
(٣) سورة النساء آية : ١٧١ .
(٤) سورة آل عمران آية : ٥٩ .
(٥) سورة الإسراء آية : ١ .
(٦) سورة النجم آية : ١٠ .
(٧) سورة الأنعام آية : ٥٠ .
(٨) سورة الفتح آية : ٩ .
(٩) سورة الأعراف آية : ١٥٧ .

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [1] (المائدة : من الآية ٩٢) . وبيّن الله بشرية الأنبياء والرسل ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [2] (الكهف : من الآية ١١٠) . وقال : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [3] (إبراهيم : من الآية ١١) . وقال : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ ﴾ [4] (الإسراء : من الآية ٩٣) . ومما يرسم منهج التوسط في الأنبياء قوله - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [5] (الرعد : من الآية ٣٨) . وقال منكرًا على المشركين قولهم في محمد ، ﷺ ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [6] (الفرقان : من الآية ٧) . فقال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [7] (الفرقان : من الآية ٢٠) .

ومما سبق من الآيات اتضح لنا منـزلة الأنبياء والرسل ، وعلوّ مقامهم ، والمنهج الحق فيهم ، فلا يجوز الغلو فيهم مع الغالين قال ، ﷺ ﴿ لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده ، فقولوا : عبد الله ورسوله ﴾ [8] [9] . وقال ، - ﷺ ﴿ يا أيها الناس

---

[1] سورة المائدة آية : ٩٢ .
[2] سورة الكهف آية : ١١٠ .
[3] سورة إبراهيم آية : ١١ .
[4] سورة الإسراء آية : ٩٣ .
[5] سورة الرعد آية : ٣٨ .
[6] سورة الفرقان آية : ٧ .
[7] سورة الفرقان آية : ٢٠ .
[8] البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٦١) ، أحمد (٥٦/١) .
[9] أخرجه البخاري (٤/ ١٤٢) وأحمد (١/ ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٧ ، ٥٥) .

قولوا بقولكم ولا يستجرينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، ورسول الله ، والله ما أحبّ أن ترفعوني فوق ما رفعني الله عَزَّوَجَلَّ ﴾ [1] [2] .

وكذلك لا يجوز الحطّ من قدرهم أو انتقاصهم ، بل يجب احترامهم والإيمان بم وعدم التفريق بينهم ، وكذلك يجب توقيرهم وحفظ جنابم ، فهم صفوة الخلق وأرفعهم مكانة ومنـزلة . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [3] (الأنعام : من الآية ٩٠) .

إن ما ذكرته من تقرير الإسلام لمنهج الوسطية في باب الإيمان بالله ورسله دليل عملي على ما عداه من أبواب الاعتقاد ، كالإيمان بالملائكة والكتب واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه .

وكما ذكرت سابقًا فليس المراد هو استقصاء ما ورد في ذلك ، وإنما المراد إرساء قواعد الوسطية وبيان أنّها منهج إلهي ، فمن انحرف عنها فقد ضلّ سواء السبيل .

ولذلك جاء قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [4] (المائدة : ٧٧) .

بل قال قبل ذلك في سورة النساء : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ ﴾ [5] (النساء : من الآية ١٧١) . وهاتان الآيتان جاءتا في سياق تقرير مسألة من مسائل الاعتقاد ، وهي قضية اعتقاد النصارى في عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، كما سبق بيانا .

---

[1] أحمد (٣/٢٤١) .
[2] أخرجه أحمد (٣/ ٢٤١) واللفظ له ، وأبو داود (٤/ ٢٥٤) رقم (٤٨٠٦) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٤٤١٨) .
[3] سورة الأنعام آية : ٩٠ .
[4] سورة المائدة آية : ٧٧ .
[5] سورة النساء آية : ١٧١ .

وفي إطار تقرير منهج الوسطية في العقيدة يأتي قوله - تعالى - ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ ﴾ [1] (البقرة : من الآية ١٣٠) . وملّة إبراهيم ، عليه السلام ، هي الملة الحنيفية السمحة لا إفراط فيها ولا تفريط .

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طرق الضلالة والغي فأيّ سفه أعظم من هذا ؟ ! قال أبو العالية وقتادة : نـزلت هذه الآية في اليهود ، أحدثوا طريقًا ليست من عند الله ، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه ، ويشهد لصحة هذا القول قوله - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصۡرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسۡلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [2] (آل عمران : ٦٧) [3] .

وفي سورة يونس ﴿ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [4] (يونس : من الآية ١٠٥) .

قال ابن كثير : أي أخلص العبادة لله وحده ، ﴿ حَنِيفًا ﴾ [5] (يونس : من الآية ١٠٥) أي منحرفًا عن الشرك ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [6] (يونس : من الآية ١٠٥) [7] .

وفي يوسف : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [8] (يوسف : من الآية ٤٠) . قال ابن كثير في تفسيرها : أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله

---

(١) سورة البقرة آية : ١٣٠ .
(٢) سورة آل عمران آية : ٦٧ .
(٣) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ١٨٥) .
(٤) سورة يونس آية : ١٠٥ .
(٥) سورة يونس آية : ١٠٥ .
(٦) سورة يونس آية : ١٠٥ .
(٧) انظر : تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٤) .
(٨) سورة يوسف آية : ٤٠ .

وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذي أمر الله به [(١)] .

وخلاصة القول :

إنّ الآيات جاءت متوالية متتالية ، تقرّر حقيقة الوسطية في باب الاعتقاد ، اطّرادًا مع منهج القرآن في تقريره ذلك في جميع الأبواب - كما سيأتي - .

ولولا خوف الإطالة لذكرت أمثلة تُؤكّد هذه الحقيقة وتبينها ، ولكن لا أظن أنّها بعد ذلك تحتاج إلى بيان أو تأكيد .

وأشير إلى أنني اقتصرت على بابي الإيمان بالله ورسله ، دون سواهما من أبواب الإيمان ، لأنه إذا تحقّق الإيمان بالله ورسله على الوجه الصحيح فإن ذلك يستلزم تحقق بقية الأركان لا محالة ، والحمد لله رب العالمين .

ثانيا منهج الوسطية في التشريع والتكليف

سبق أن ذكرت أنّ ملامح الوسطية اليسر ، ورفع الحرج ، وهذا أمر قرّره القرآن في أكثر من موضع ، كقوله - تعالى - : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [(٢)] (الحج : من الآية ٧٨) . وقوله : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [(٣)] (البقرة : من الآية ١٨٥) . وقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [(٤)] (البقرة : من الآية ٢٨٦) وما ذكرته هناك متّصل بما سأذكره هنا في تقرير هذه القضية .

وسأجعل الحديث عن تقرير القرآن لمنهج الوسطية في التشريع والتكاليف في فقرات متتالية ، ليسهل تحرير القضية واستيعابا .

١- امتنّ الله على هذه الأمة في الكتاب العزيز بأن وضع عنها الإصر والأغلال التي كانت على من قبلها ، ولم يحملها ما حَمل من قبلها ، فكان ذلك مظهرًا من مظاهر وسطية هذا الدّين .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٩) .

(٢) سورة الحج آية : ٧٨ .

(٣) سورة البقرة آية : ١٨٥ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .

يقول - تعالى - في وصف نبيه محمد ، ﷺ في كلامه ﷻ مع قوم موسى ، عليه السلام : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [1] (الأعراف : من الآية ١٥٧) . كما أن من جملة دعاء رسول الله ، ﷺ والمؤمنين : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ ﴾ [2] (البقرة : من الآية ٢٨٦) . وقد جاء في الحديث : ﴿ قال الله : قد فعلت ﴾ . وفي رواية : ﴿ قال : نعم ﴾ [3] [4] .

والإصر هو العهد الثقيل الذي في تحمّله أشدّ المشقّة .

والأغلال هي الشّدائد التي كانت في عبادتم .

روى الطبري عن الربيع قوله - تعالى - : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ ﴾ [5] (البقرة : من الآية ٢٨٦) يقول : التّشديد الذي شدّدته على من قبلنا من أهل الكتاب .

وقال مالك : الإصر : الأمر الغليظ [6] .

وقال سعيد : الإصر : شدّة العمل [7] .

وقال مجاهد : من اتبع محمدًا ودينه من أهل الكتاب ، وضع عنهم ما كان عليهم من التّشديد في دينهم [8] .

قال الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الإصر : هو العهد ،

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٥٧ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .

(٣) النسائي مناسك الحج (٣٠٥٧) ، ابن ماجه المناسك (٣٠٢٩) ، أحمد (٢١٥/١) .

(٤) أخرجه مسلم (١/ ١١٦) رقم (١٢٦) .

(٥) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .

(٦) انظر : تفسير الطبري (٣/ ١٥٨) .

(٧) انظر : تفسير الطبري (٩/ ٨٥) .

(٨) انظر : تفسير الطبري (٩/ ٨٥) .

وأن معنى الكلام : ويضع النبي الأمّي العهد الذي كان الله أخذ على بني إسرائيل من إقامة التوراة ، والعمل بما فيها من الأعمال الشّديدة ، كقطع الجلد من البول ، وتحريم الغنائم ، ونحو ذلك من الأعمال التي كانت مفروضة عليهم ، فنسخها حكم القرآن [١] .

وفي آيتي البقرة والأعراف إشارة إلى أنه ، عليه السلام ، قد جاء بالتيسير والسّماحة والوسطية .

قال الجشمي : دلّت آية - الآية الأعراف - على أن شريعته أسهل الشّرائع ، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان في الأمم الماضية [٢] .

وجاء في فوائد أبي عمرو بن مندة بسند صحيح عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : أقرأني النبي ، صلى الله عليه وسلم " إن الدّين عند الله الحنيفية السّمحة لا اليهودية ولا النصرانية " . قال العلائي : وهذا إنما نسخ لفظه وبقي معناه [٣] .

ولبيان وسطية الإسلام في التّكاليف في ضوء ما شرعه الله في كتابه ، وعلى لسان رسوله ، صلى الله عليه وسلم أذكر نماذج من الأحكام التي جاءت في التوراة التي بين أيديهم ، يتبين منها الأغلال والآصار التي كانت عليهم [٤] .

جاء في سفر الخروج في الإصحاح الحادي والعشرين :

" من شتم أباه وأمه يُقتل قتلا . إذا نطح ثور رجلا أو امرأة وكان الثور نطاحًا من قبل ، وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه يقتل " .

وفي الإصحاح الخامس والثلاثين وفي السفر نفسه : " ولا تأخذوا فدية عن نفس القاتل المذنب للموت بل إنه يقتل " .

وفي الإصحاح الحادي عشر من سفر اللاويين : " كل من مسّ حائضًا يكون نجسًا

---

[١] انظر : تفسير الطبري (٩/ ٨٥) .

[٢] انظر : تفسير القاسمي (٧/ ٢٨٨٢) .

[٣] انظر قواعد العلائي لوحة (٢٧) ، نقلا عن رفع الحرج في الشريعة ص (١٥٨) .

[٤] انظر لما سيأتي : رفع الحرج في الشريعة ص (١٥٨) .

إلى المساء ، وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجسًا ، وكل ما تجلس عليه يكون نجسًا ، وكل من مسّ فراشها يغسل ثيابه ، ويستحم بماء ، ويكون نجسًا إلى المساء " .

وفي الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التثنية : " لا تحرث على ثور وحمار معًا ، ولا تلبس ثوبًا مختلطًا صوفًا وكتانًا معًا " .

قال الدكتور صالح بن حميد بعد أن ساق هذه النماذج : وأصدق من ذلك وأبلغ قول الحق - تبارك وتعالى - في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه ، تنـزيل من حكيم حميد : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [1] (النساء : ١٦٠) وقوله - سبحانه - في بيان أنواع من المحرمات عليهم بسبب بغيهم : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [2] (الأنعام : ١٤٦) .

وكل ذلك ساقه الله في كتابه لبيان ما امتنّ به على هذه الأمة من التخفيف ، والتيسير والتسهيل ، ونعت نبيه ، ﷺ بأنه : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [3] (الأعراف : من الآية ١٥٧) .

وقد ذكر علماؤنا - رحمهم الله - شيئًا من الآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا ، منها : قطع موضع النجاسة من الثوب أو منه ، ومن البدن ، وإحراق الغنائم ، وتحريم السبت ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وتعّين القصاص في العمد والخطأ من غير شرع الدّية ، وأمروا بقتل أنفسهم علامة على التوبة ، وطلب منهم أداء ربع المال في الزكاة ، وعدم جواز الصلاة إلا في البيعة ، وحرمة الجماع في أيّام الصوم بعد العتمة والنّوم ،

[1] سورة النساء آية : ١٦٠ .
[2] سورة الأنعام آية : ١٤٦ .
[3] سورة الأعراف آية : ١٥٧ .

وحرمة الطعام بعد النوم ، وعدم التّطهير بالتيمم ، وكتابة ذنب اللّيل بالصّبح على الباب . [1] .

ومما سبق يّتضح دلالة آيتي البقرة والأعراف على تقرير منهج الوسطية في التّشريع والتّكليف .

٢- وردت آيات كثيرة تُبّين أن الله لا يُكلّف نفسًا فوق طاقتها ، ولا يكلّف نفسًا إلا وسعها وقدرتنا ، قال - تعالى - : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [2] (البقرة : من الآية ٢٨٦) . ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [3] (الطلاق : من الآية ٧) . وقال : ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [4] (البقرة : من الآية ٢٣٣) وقال - جل في علاه - : ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [5] (الأنعام : من الآية ١٥٢) وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾ [6] (الأعراف : من الآية ٤٢) وقـال تعـــــالـى : ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ [7] (المؤمنون : من الآية ٦٢) .

وعلى الرغم من أن قوله - تعالى - : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [8] (البقرة : من الآية ٢٨٦) ظاهر الدلالة على عدم التّكليف إلا في حدود القدرة والميسرة ، إلا أن الله - سبحانه وتعالى - قد أعقب هذه الجملة بدعاء على لسان عباده المؤمنين ، يُبّين فيه أن

---

[1] انظر : لكل ما سبق كتاب رفع الحرج في الشريعة ص (١٥٨) وما بعده .
[2] سورة البقرة آية : ٢٨٦ .
[3] سورة الطلاق آية : ٧ .
[4] سورة البقرة آية : ٢٣٣ .
[5] سورة الأنعام آية : ١٥٢ .
[6] سورة الأعراف آية : ٤٢ .
[7] سورة المؤمنون آية : ٦٢ .
[8] سورة البقرة آية : ٢٨٦ .

ما امتنّ عليهم من عدم المؤاخذة بالخطأ والنّسيان ، وحطّ الآصار والأغلال ، وعدم التّكليف بما لا يُطاق ، وقد انتظم ذلك في ثلاثة أمور :

الأول : قوله - تعالى - : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ ﴾ [1] (البقرة : من الآية ٢٨٦) .

الثاني : قولـــــه : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ ﴾ [2] (البقرة : من الآية ٢٨٦) .

الثالث : قوله - تعالى - : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ ﴾ [3] (البقرة : من الآية ٢٨٦) . **قال البقاعي تعليقًا على هذه الآية :** وقد عرف الله عباده المؤمنين مواقع نعمه من دعاء ربّه على الأخف فالأخف على سبيل التعلي ، إعلامًا بأنه لم يؤاخذهم بما اجترحوه نسيانًا ، ولا بما قارفوه خطأ ، ولا حمل عليهم ثقلا ، بل جعل شريعتهم خفيفة سمحة ، ولا حمّلهم فوق طاقتهم ، مع أنه له جميع ذلك ، وأنه عفا عنهم في سترهم فلم يخجلهم بذكر سيئاتهم . [4] .

قال الدكتور صالح بن حميد معلّقًا على آيات عدم التّكليف بما لا يُطاق : ولاشكّ أنّ الأحكام الشّرعية إذ كانت مطلوبة في حدود الوسع والاستطاعة دون بلوغ غاية الطّاقة ، ففي ذلك الدّلالة الظّاهرة على أن الحرج مرفوع ، وأن الشريعة مبنية على التيسير ، وعدم التعسير ، فهي حنيفية سهلة سمحة (وسطية) ، فلله الحمد والمنة [5] .

وقال الإمام الطبري : يعني بذلك - جلّ ثناؤه - : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا

---

[1] سورة البقرة آية : ٢٨٦ .
[2] سورة البقرة آية : ٢٨٦ .
[3] سورة البقرة آية : ٢٨٦ .
[4] انظر : تفسير القاسمي (٣/ ٧٣٣) ، وانظر : لما سبق كتاب رفع الحرج في الشريعة ص (٧١) .
[5] انظر : رفع الحرج في الشريعة ص (٧٣) .

﴿ وُسْعَهَا ﴾ [1] (البقرة : من الآية ٢٨٦) فيتعبدّها إلا بما يسعها ، فلا يضيّق عليها ، ولا يجهدها [2] .

ففي كلام الطبري - رحمه الله - الدّلالة على أن هناك تكليفًا وأمرًا بالتعبد ، ولكنه في حدود الوسع والطاقة ، لا تضييق فيه ولا إجهاد ، وهذه حقيقة الوسطية .

وقال رشيد رضا في **تفسير قولــــــه - تعالى - :** ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [3] (البقرة : من الآية ٢٨٦) ولا يُحاسبها إلا على ما كلّفها ، والتّكليف هو الإلزام بما فيه كلفة ، والوسع ما تسعه قدرة الإنسان من غير حرج ولا عسر ، وقال بعضهم : هو ما يسهل عليه من الأمور المقدور عليها ، وهو ما دون مدى طاقته .

والمعنى : أن شأنه - تعالى - وسنته في شرع الدّين ألا يُكلّف عباده ما لا يطيقون [4] .

وخلاصة القول : إنّ هذه الآيات تُقرّر منهج الوسطية في التكليف ، فهناك أوامر ونواهي ، ولكنها في حدود الوسع ، وعدم المشقّة ، وليس فيها تضييق وعسر وإحراج .

٣- ومما يؤكّد ويقرّر منهج الوسطية في التشريع والتّكليف الآيات التي وردت برفع الحرج ، كقوله - تعالى - : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [5] (المائدة : من الآية ٦) . وقوله : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [6] (الحج : من الآية ٧٨) . وقوله : ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ [7] (الأحزاب : من الآية ٣٨) .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .
(٢) انظر : تفسير الطبري (٣/ ١٥٤) .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .
(٤) انظر : تفسير المنار (٣/ ١٤٥) .
(٥) سورة المائدة آية : ٦ .
(٦) سورة الحج آية : ٧٨ .
(٧) سورة الأحزاب آية : ٣٨ .

ومثل ذلك الآيات التي جاءت تنفي الحرج عن فئة معينة ، كقوله - تعالى - في سورتي النور [(١)] والفتح : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ ﴾ [(٢)] (الفتح : من الآية ١٧) . وبعد أن بيّن - سبحانه - جواز الزواج من زوجة الابن المتبني حيث زوج رسول الله ﷺ من زينب بعد طلاق زيد لها ، قال - سبحانه - : ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ ﴾ [(٣)] (الأحزاب : من الآية ٣٧) .

قال الدكتور صالح بن حميد : إن رفع الحرج ، والسّماحة والسهولة راجع إلى الوسط والاعتدال ، فلا إفراط ولا تفريط ، فالتنطع والتّشديد حرج في جانب عسر التكاليف ، والإفراط [(٤)] والتقصير حرج فيما يؤدي إليه من تعطل المصالح وعدم تحقيق مقاصد الشرع .

قال - تعالى - : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [(٥)] (البقرة : من الآية ١٤٣) . فالتوسط هو منبع الكمالات ، والتّخفيف والسّماحة ورفع الحرج على الحقيقة هو في سلوك طريق الوسط والعدل . [(٦)] .

قال المفسّرون في آيتي المائدة والحج : إن الله - سبحانه وتعالى - ما كلّف عباده ما لا يطيقون ، وما ألزمهم بشيء يشقّ عليهم إلا جعل الله لهم فرجًا ومخرجًا .

ولقد كانت الشّدائد والعزائم في الأمم ، فأعطى الله هذه الأمة من المسامحة واللين ما لم يعط أحدًا قبلها ، رحمة من الله وفضلا .

---

(١) الآية : (٦١) .
(٢) سورة الفتح آية : ١٧ .
(٣) سورة الأحزاب آية : ٣٧ .
(٤) الصحيح : والتفريط ، ولعله خطأ مطبعي .
(٥) سورة البقرة آية : ١٤٣ .
(٦) انظر : رفع الحرج في الشريعة ص (١٣) .

يقول ابن العربي : ولو ذهبت إلى تعديد نعم الله في رفع الحرج لطال المرام [1] .

قال الطوفي الحنبلي : إن الله - تعالى - لم يشرع حكمًا إلا وأوسع الطريق إليه ويسره ، حتى لم يبق دونه حرج ولا عسر .

وقال : ويحتج بهذه الآية ونحوها من رأى أنه إذا تعارض في مسألة حكمان اجتهاديان خفيف وثقيل يرجح الخفيف دفعًا للحرج [2] .

ويقرّر ذلك الكيا الطبري حيث يقول : ويحتج به في نفي الحرج والضّيق المنافي ظاهره للحنيفية السّمحة . وقد علّق على ذلك القرطبي بقوله : وهذا بيّن [3] .

وقال رشيد رضا في تفسير آية المائدة :

ولما بيّن فرض الوضوء وفرض الغسل ، وما يحلّ محلهما عند تعذّرهما أو تعسّرهما ، تذكيرًا بما ومحافظة على معنى التعبّد فيهما - وهو التيمم - بيّن حكمة شرعهما لنا مبتدئًا ببيان قاعدة من أعظم قواعد هذه الشّريعة السمحة . فقال : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٍ ﴾ [4] (المائدة : من الآية ٦) . أي : ما يُريد الله ليجعل عليكم فيما شرعه لكم في هذه الآية - ولا في غيرها أيضًا - حرجًا ما . أي : أدنى ضيق وأقل مشّقة ، لأنه - تعالى - غّني عنكم ، رءوف رحيم بكم ، فهو لا يشرع إلا ما فيه الخير والنفع لكم [5] .

وقال ابن كثير في قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾ [6] (الحج : من الآية ٧٨) . أي ما كلّفكم ما لا تطيقون ، وما ألزمكم بشيء يشقّ عليكم إلا جعل الله

[1] انظر : أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٢٩٣) ورفع الحرج في الشريعة ص (٦٠) .
[2] انظر : الإشارات الإلهية ص (١٣٢) مخطوط ، ورفع الحرج ص (٦١) .
[3] انظر : تفسير القرطبي (٣/ ٤٣٢) ورفع الحرج ص (٦١) .
[4] سورة المائدة آية : ٦ .
[5] انظر : تفسير المنار (٦/ ٢٥٨) .
[6] سورة الحج آية : ٧٨ .

لكم فرجًا ومخرجًا ، ولهذا قال ، عليه السلام : ﴿ بعثت بالحنيفية السمحة ﴾ [(١)] [(٢)] .

وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن : ((بشّر ﴿ ولا تُنفّرا ويسّرا ولا تُعسّرا ﴾ [(٣)] [(٤)] . والأحاديث في هذا كثيرة ، ولهذا قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [(٥)] (الحج : من الآية ٧٨) يعني من ضيق [(٦)] .

وقد اتضح لنا مما سبق أن آيات رفع الحرج دليل واضح وبرهان قاطع على وسطية هذا الدين في تشريعه وتكاليفه .

٤- ونواصل ذكر الأدلة من القرآن الكريم في باب التّشريع والتّكليف التي تقرّر منهج الوسطية ، وأنه سمة هذا الدّين ، وسرّ من أسرار عظمته ، وهذه الآيات هي آيات التّخفيف والتّيسير .

قال - سبحانه - : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [(٧)] (البقرة : من الآية ١٨٥) . وقال - جلّ في علاه - : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [(٨)] (الأعلى : ٨) .

وقال : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [(٩)] (الشـرح : ٥ ، ٦) .

وقال : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [(١٠)] (النساء : ٢٨) .

---

(١) أحمد (٥/٢٦٦) .
(٢) تقدم تخريجه ص (١١٠) .
(٣) البخاري المغازي (٤٠٨٨) ، مسلم الأشربة (١٧٣٣) .
(٤) تقدم تخريجه ص (١٠٩) .
(٥) سورة الحج آية : ٧٨ .
(٦) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٦) .
(٧) سورة البقرة آية : ١٨٥ .
(٨) سورة الأعلى آية : ٨ .
(٩) سورة الشرح آية : ٥ ، ٦ .
(١٠) سورة النساء آية : ٢٨ .

فهذه الآيات تبيّن أن الله أراد بذه الأمة اليسر والتّخفيف ، ونفي إرادة العسر والمشقّة .

وهذه الآيات وإن كان بعضها ورد في سياق قضية خاصة ، كالآية الأولى وردت في شأن الرّخصة في الصيام إلا أن المراد منها العموم ، كما صرح بذلك غير واحد من المفسّرين ، ومثل ذلك آية النساء ، فقد وردت في سياق ما أبيح من نكاح الإماء عند العجز عن الحرائر . إلا أن الذي صرح به كثير من المفسّرين أن المراد عموم التّخفيف في الشّريعة ، وإرادة التيسير ورفع المشقّة [1] .

قال القرطبي : قال مجاهد والضّحاك : اليسر الفطر في السّفر . والعسر : الصّوم في السفر . قال القرطبي : والوجه : عموم اللفظ في جميع أمور الدين ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [2] (الحج : من الآية ٧٨) [3] .

وقال رشيـد رضـــــا في الآية : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [4] (البقرة : من الآية ١٨٥) . وهذا تعليل لما قبله ، أي : يريد فيما شرعه من هذه الرخصة في الصيام ، وسائر ما يشرعه لكم من أحكام ، أن يكون دينكم يسرًا تاما لا عسر فيه [5] .

وقال ابن كثير في قوله تعـــالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [6] (النساء : ٢٨) . أي : في شرائعه ، وأوامره ، ونواهيه ، وما يقدره لكم [7] .

---

(١) انظر : رفع الحرج في الشريعة ص (٦٨) .
(٢) سورة الحج آية : ٧٨ .
(٣) انظر : تفسير القرطبي (٢/ ٣٠١) .
(٤) سورة البقرة آية : ١٨٥ .
(٥) انظر : تفسير المنار (٢/ ١٦٤) .
(٦) سورة النساء آية : ٢٨ .
(٧) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٤٧٩) وتفسير القاسمي (٥/ ١٢٠١) .

وقال مجاهد : أي في نكاح الأمة ، وفي كل شيء فيه يسر [1] . ومن هنا نخلص إلى أن آيات التيسير والتّخفيف جاءت لإرساء قواعد هذا الدين ، وذلك أن الوسطية ركن من أركان ديمومة هذا الدين وعالميته .

٥ - **وأختم هذا الباب بذكر بعض الأدلّة العلمية** التي تؤكّد وسطيه هذا الدين في باب التّشريع والتكليف :

(أ) قال - تعالى - في شأن المطلقات : ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾ [2] (البقرة : من الآية ٢٣٦) . وقال : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾ [3] (البقرة : ٢٤١) . والقضية تدور على عدة محاور ؛ فإما ألا يكون هناك أي تمتيع للمطلقة ، وهذا له آثاره السلبية ، وبخاصة على المطلّقة التي ستستقبل حياة جديدة ، تحتاج إلى تخفيف وقع الطّلاق وأثره حسّيا ومعنويا . وإمّا أن يكون هناك تمتيع مغلّظ ، وهذا فيه إثقال على الزوج المطلق .

وإما أن تكون هناك متعة يُراعى فيها ظروف الزوج وإمكاناته ، مع عدم إهمال حقّ المطلقة في المتعة .

وهذا هو الأمر الوسط الذي أقرّه القرآن ، وأصبح شرعًا من لدن حكيم عليم .

(ب) قال - تعالى - : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾ [4] (البقرة : ٢٢٥) . وفي سورة المائدة : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ ﴾ [5] (المائدة : من الآية ٨٩) .

---

[1] انظر : تفسير الطبري (٥/ ٣٠) .
[2] سورة البقرة آية : ٢٣٦ .
[3] سورة البقرة آية : ٢٤١ .
[4] سورة البقرة آية : ٢٢٥ .
[5] سورة المائدة آية : ٨٩ .

وموضوع الحنث في **اليمين ،** إما أن يكون فيه كفارة بإطلاق ، أو لا يكون فيه كفارة بإطلاق ، أو التفصيل .

والأمر الأول : فيه من المشقّة والعسر ما لا يخفى .

والأمر الثاني : يُؤدّي إلى الاستهانة باليمين ، وهو قادح من قوادح الإيمان .

أمّا التفصيل : وهو التفريق بين لغو اليمين الذي يصعب التحرز منها ، فهذا معفو عنه ، أمّا ما عداه ففيه الكفارة الشّرعية صيانة لليمين والقسم ، فهذا هو الأمر الوسط ، فلا إفراط فيه ولا تفريط .

(جـ) قال - تعالى - في بيان كفارة اليمين : ﴿ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ ﴾ [(١)] (المائدة : من الآية ٨٩) .

والوسطية في هذه الآية من ثلاثة وجوه :

١- أن إطعام المساكين يُراعى في نوعية الطعام أو الكسوة الوسط في ذلك ، وجعل المقياس الذي يُرجع إليه في اختيار هذا الوسط إطعام الرجل لأهله أو كسوتم ، فينظر في ذلك ويخرج الوسط منه .

وفي هذا تتحقق الوسطية من وجهين - أيضًا - .

الأول : مراعاة الوسط في حق كل إنسان ، فلم يؤخذ من أعلى ماله أو أدناه ، بل الوسط منه ، مراعاة للفقير - أيضًا - .

الثاني : مراعاة الفرق بين حال الغني والفقير والمتوسط ، وهذا فيه من معنى الوسطية ما فيه ، فلم يأت الحكم بالتسوية بينهم .

٢- أنه جعل الكفارة تدور على أحد ثلاثة أمور : إمّا الإطعام ، أو الكسوة ، أو

---

(١) سورة المائدة آية : ٨٩ .

الإعتاق ، والحالف مخّير بينها دون إلزام بواحد منها ، وهذا فيه من التوسعة والتيسير ما لا يخفى .

٣- إذا لم يجد الحالف أو لم يستطع على أي نوع من هذه الثلاثة انتقل إلى الصيام ، وهذه رحمة من الله وتوسعة على عباده .

وبذا اجتمعت أطراف الوسطية في هذه القضية ، وهي قضية جزئية يسيرة ، فلا شك أن ما كان أعلى منها وأشدّ كلفة تكون مراعاة الوسطية فيه من باب أولى ، لأن الله غني عنّا وعن أعمالنا ، ولكن التّشريع ميدان للامتحان والابتلاء ، والله بنا رءوف رحيم .

(د) كذلك نلحظ الوسطية في هذا التشريع ، قال - سبحانه - : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ ﴾ [1] (المائدة : من الآية ٥) . والوسطية تبرز في موضوع الطعام ، وموضوع النكاح من أهل الكتاب ، مما لا يحتاج إلى شرح أو تفصيل .

(هـ) وكذلك نرى إقرار منهج الوسطية في موضوع الطّلاق وأحكامُه فلم يحرم الطّلاق ، ولم يجعله مُتاحًا دون قيد أو شرط أو وصف .

بل إنه فرّق بين الحالات التي تبينُ فيها المرأة من طلقة واحدة أو من ثلاث طلقات ، وهكذا .

ولا شك أن موضوع الطّلاق وأحكامه من أقوى الأدلة على هذا المنهج الذي روعيت فيه أحوال وأوضاع تتعلّق بالرجل والمرأة والأسرة .

والآيات التي وردت في سورتي البقرة والطّلاق هي البرهان على ذلك .

هذه بعض الأدلّة العملية على الوسطية التي رسمها القرآن ، وأكدها في أكثر من موضع في باب التشريع والتّكاليف .

---

[1] سورة المائدة آية : ٥ .

ومن خلال ما سبق ، اتضحت المنطلقات الأساسية التي تُبّين المنهج الشّرعي في التّشريع والتّكليف ، حيث ذكرت أن الله وضع عنّا الإصر والأغلال التي كانت على من قبلنا ، وأن الله لا يُكلّف نفسًا فوق طاقتها ، بل لا يكلّف نفسًا إلا وسعها ، وما آتاها ، وآيات رفع الحرج دلالة قوّية على متانة هذا المنهج في وسطية التّشريع ، يؤكد ذلك ويقرّره ما صاحب ذلك من يسر ورفع للعسر والمشقة . كل ذلك أوصلنا للحقيقة التي استهدفناها ، وبدأنا بها ، وهي أن القرآن الكريم عنى عناية تامة في رسم منهج الوسطية وتثبيته .

ثالثا منهج الوسطية في العبادة[١]

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته ، فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها ، فقالوا : أين نحن من النبي ، صلى الله عليه وسلم ؟ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر .

فقال أحدهم : أمّا أنا فأصلي الليل أبدًا .

وقال الآخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أما أنا فلا أتزوج النساء أبدًا .

فجاء رسول الله ، ﷺ فقال : إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »[٢] [٣] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « دخل النبي ، ﷺ المسجد ، فإذا حبل ممدود بين ساريتين فقال : ما هذا الحبل ؟ فقالوا : هذا حبل لزينب ، فإذا فترت تعلّقت به ، فقال

---

[١] الحديث عن العبادة سيشمل معناها الخاص والعام .

[٢] البخاري النكاح (٤٧٧٦) ، مسلم النكاح (١٤٠١) ، النسائي النكاح (٣٢١٧) ، أحمد (٢٨٥/٣) .

[٣] تقدم تخريجه ص (٥٩) .

النبي ، ﷺ حلّوه ، ليصل أحدكم نشاطه ، فإذا فتر فليرقد ﴾ [1] [2] .

وعن عائشة - رضي الله عنها - ﴿ أن النبي ، ﷺ دخل وعندها امرأة قال : من هذه ؟ قالت : فلانة ، تذكر من صلاتا ، قال : مه ، عليكم بما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملّوا ﴾ [3]

وكان أحبّ الدّين إليه ما داوم عليه صاحبه [4] .

هذه الأحاديث صريحة في رسم منهج الوسطية في العبادة فالحديث الأول في غاية البيان والوضوح ، والحديث الثاني - قصة زينب - قال فيه ابن حجر : فيه الحثّ على الاقتصاد في العبادة ، والنهي عن التعمّق فيها [5] والثالث قال فيه ابن حجر - أيضًا - : " عليكم بما تطيقون " : أي اشتغلوا من الأعمال بما تستطيعون المداومة عليه ، فمنطوقه يقتضي الأمر بالاقتصار على ما يُطاق من العبادة ، ومفهومه يقتضي النهي عن تكلّف ما لا يُطاق [6] .

وهذه الأحاديث - وأمثالها - وهي كثيرة جدا - جاءت على نسق ما جاء في القرآن في تحديده مسار العبادة في ضوء المنهج الوسط ، وتشنيعه على أولئك الذين خرجوا بالعبادة عن مسارها الصحيح .

وقبل أن ألجّ في بيان ذلك الإطار الذي حدّده القرآن الكريم ، وأرى أنّ من المناسب ذكر المناهج السائدة فيما يتعلّق بالعبادة تفريطًا وإفراطًا ، فأقول :

---

(1) البخاري الجمعة (١٠٩٩) ، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٨٤) ، النسائي قيام الليل وتطوع النهار (١٦٤٣) ، أبو داود الصلاة (١٣١٢) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٧١) .

(2) أخرجه البخاري (٢/ ٤٨) ، ومسلم (١/ ٥٤٢) رقم (٧٨٤) .

(3) البخاري الإيمان (٤٣) ، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٨٢) ، النسائي القبلة (٧٦٢) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٣٨) ، أحمد (٦/٢٦٨) .

(4) أخرجه البخاري (٢/ ٤٨) ، ومسلم (١/ ٥٤٢) رقم (٧٨٥) .

(5) فتح الباري (٣/ ٣٧) .

(6) فتح الباري (١/ ١٠٢) وانظر : الغلو في الدين ص (٧٨) .

المنهج الأول : ويمثله اليهود في تفريطهم وجفائهم ، فلو نظرنا إلى التوراة - بعد تحريفها - لوجدنا أن تقديس المادة غلب على بنودها ، فلا تقرأ في أسفار التوراة ذكرًا للآخرة ، حتى ما ورد فيها من وعد ووعيد فإنما هو متعلّق بالدنيا فقط ، فلا يعمل الشّخص إلا لتحقيق كسب عاجل ، أو خوفًا من عقوبة عاجلة .

بل بالغوا وطبقوا ماديتهم حتى في معرفة الله ، فقالوا : ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [1] (النساء : من الآية ١٥٣) . وقالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [2] (البقرة : من الآية ٥٥) .

ووفقًا لهذا التصور المادي الدنيوي أغرق هؤلاء في تقديس المحسوسات ، واتخذوها طريقًا للرقي ، وأصبحت القيم المادية محور الحياة ، وتحول الإنسان في نظر هؤلاء إلى آلة تتحرّك ، ومعدة تضم ، وكائن يلهو .

وقد وصفهم القرآن الكريم ، وبين مدى تعلّقهم بالحياة وحرصهم عليها ، فقال - تعالى - : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [3] (البقرة : من الآية ٩٦) . أي حياة ، حتى لو كانت حياة البهائم ونحوها . وذلك لأنم يخشون الموت : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ [4] (البقرة : من الآية ٩٥) . لأنم ربطوا غايتهم بالدنيا ، فعملهم للدنيا ، وعبادتم لمآرب دنيوية : فإذا انتهت الدنيا فقد فاتم كل شيء .

فهم بذا أغرقوا في الشهوات ، وعبدوا أنفسهم للماديات ، فهم كمشركي قريش الذين قالوا : ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [5] (الجاثـية : من الآية ٢٤) [6] .

---

[1] سورة النساء آية : ١٥٣ .
[2] سورة البقرة آية : ٥٥ .
[3] سورة البقرة آية : ٩٦ .
[4] سورة البقرة آية : ٩٥ .
[5] سورة الجاثية آية : ٢٤ .
[6] انظر : لما سبق الوسطية في الإسلام د زيد الزيد ص (٣٩) .

وهذا المنهج يمثل التفريط في أسوأ صوره وحالاته ، ولذلك أمرنا الله أن نستعيذ منه في كل صلاة ، ونسأله أن يجّنبنا إيّاه . ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ [1] (الفاتحة : من الآية ٧) .

أما المنهج الثاني وهو المنهج القائم على الروحانيات ، وذلك بإعلائها وتمجيدها ، وأغرقوا في مفهوم العبادة والرهبنة ، ويمثل هذا المنهج النصارى ، وهو منهج الإفراط والغلو .

وابتدع النصارى رهبانية قاسية على النفس ، تحرّم الزواج ، وتكبت الغرائز ، وترفض كل أشكال الزينة ، وطيبات الرزق ، وترى ذلك رجسًا من عمل الشيطان ، وبالغوا في العبادة ، وأخرجوها عن كيفيتها ، وعن المراد منها ، وأصبحت رهبانية غالية مشوهة ، معذبة للأجساد ، ابتدعوها من أنفسهم ، بلا حجة أو برهان . ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [2] (الحديد : من الآية ٢٧) .

ولذلك كانت حالهم ومآلهم : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ ﴾ [3] (الغاشية : ١- ٤) [4] .

وهذا المنهج يمثل الإفراط والغلو ، وهو الوجه الثاني من وجوه الانحراف عن الصّراط المستقيم ، ولذلك أُمرنا بأن نسأل الله أن يجّنبنا إياه ؛ ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [5] (الفاتحة : من الآية ٧) .

وأمام هذا الغلو المادي الذي يمثّل التفريط في العبادة ، والغلو الروحاني الذي يمثل الإفراط فيها والتفريط في حق البدن ، جاء الإسلام لُيصحح المسألة ، ويهدي الناس لأقوم

---

(١) سورة الفاتحة آية : ٧ .

(٢) سورة الحديد آية : ٢٧ .

(٣) سورة الغاشية آية : ١ - ٤ .

(٤) انظر : الوسطية في الإسلام د زيد الزيد ص (٤١) .

(٥) سورة الفاتحة آية : ٧ .

السّبل ، وأعدل الطّرق ، طريق الوسط بين عبادة المادة ونسيان حق الرّوح ، وبين إرهاق الروح ونسيان حق البدن ، ليعطي كل ذي حقّ حقّه ، وفقًا لقوله - تعالى - : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [1] (القصص : من الآية ٧٧) .

ونجد أن القرآن الكريم قد قرّر هذا المنهج في آيات كثيرة ، تنتظم فيما يلي :

أولا الآيات التي تبين انحراف الذين صرفوا العبادة عن وجهها الصحيح

وذلك مثل قوله – تعالى - : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [2] (الزمر : ٦٤) . وقوله : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [3] (النمل : ٤٣) . وقوله : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ ﴾ [4] (المائدة : من الآية ٧٦) . وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ ﴾ [5] (الزمر : من الآية ٣) . ومثل ذلك قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [6] (الحج : ١١) .

فهذه الآيات وأمثالها ترسم منهج الوسطية في العبادة ببيان انحراف طريق هؤلاء الذين قلبوا العبادة على وجهها الصحيح .

---

(١) سورة القصص آية : ٧٧ .
(٢) سورة الزمر آية : ٦٤ .
(٣) سورة النمل آية : ٤٣ .
(٤) سورة المائدة آية : ٧٦ .
(٥) سورة الزمر آية : ٣ .
(٦) سورة الحج آية : ١١ .

قال ابن كثير في قوله - تعالى - : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ ﴾ [1] (الحج : من الآية ١١) قال مجاهد وقتادة وغيرهما : (على حرف) على شك .

وقال غيرهم : على طرف ، ومنه حرف الجبل ، أي : طرفه ، أي : دخل في الدين على طرف ، فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر [2] .

وانظر إلى قول القرطبي ، حيث إن قوله نصّ في دلالة الآية على المراد . قال : (على حرف) . على شكّ ، قاله مجاهد وغيره . وحقيقته أنه على ضعف في عبادته ، كضعف القائم على حرف مضطرب فيه ، وحرف كل شيء : طرفه وشفيره وحده ، ومنه حرف الجبل ، وهو أعلاه المحدّد .

وقيل : (على حرف) ، أي على وجه واحد ، وهو أن يعبده على السّراء دون الضرّاء ، ولو عبدوا الله على الشكر في السّراء والصبر على الضرّاء لما عبدوا الله على حرف .

وقيل : (على حرف) . على شرط [3] .

وقال ابن كثير في قولـــه – تعـالـــى - : ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [4] (الزمر : من الآية ٣) . أي ليشفعوا لنا ويقرّبونا عنده منـزلة ، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجّوا في جاهليتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك ، وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدّهر وحديثه ، وجاءتم الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بردّها والنهي عنها ، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ، ولا رضي به ، بل أبغضه ونى عنه [5] .

---

[1] سورة الحج آية : ١١ .
[2] انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٢٠٩) .
[3] انظر : تفسير القرطبي (١٢/ ١٧) .
[4] سورة الزمر آية : ٣ .
[5] انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥) .

ثانيا الآيات التي جاءت تأمر بعبادة الله وحده، وتصف عبادته بالاستقامة

وبأن عبادته هي الكلمة السواء ، وغير ذلك مما يدل على أن عبادته هي الطريق الوسط السالم من الانحراف والضّلال : قال - تعالى - : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [1] (آل عمران : من الآية ٦٤) .

وقال في أكثر من موضع [2] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [3] (آل عمران : ٥١) .

وقال : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [4] (الحجر : ٩٩) والآيات التي جاءت تأمر بعبادة الله وحده كثيرة جدا ، فما من نبي إلا قال لقومه : " يا قوم اعبدوا الله " . قال الطبري في قوله تعالى : ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ [5] (آل عمران : من الآية ٦٤) . يعني بذلك - جلّ ثناؤه - قل يا محمد لأهل الكتاب ، وهم أهل التوراة والإنجيل - تعالوا : هلمّوا إلى كلمة سواء ، يعني إلى كلمة عدل بيننا وبينكم .

والكلمة العدل : هي أن نوحّد الله فلا نعبد غيره ، ونبرأ من كل معبود سواه ، فلا نشرك به شيئًا [6] .

وقال ابن كثير في الآية نفسها : ﴿ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [7] (آل عمران : من الآية ٦٤) أي : عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها ، ثم فسرها بقوله : ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ

---

(١) سورة آل عمران آية : ٦٤ .

(٢) ففي سورة مريم ، الآية : (٣٦) (وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) . وفي سورة الزخرف ، الآية : (٦٤) (إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) .

(٣) سورة آل عمران آية : ٥١ .

(٤) سورة الحجر آية : ٩٩ .

(٥) سورة آل عمران آية : ٦٤ .

(٦) انظر : تفسير الطبري (٣/ ٣٠١) .

(٧) سورة آل عمران آية : ٦٤ .

﴿ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [1] (آل عمران : من الآية ٦٤) . لا وثنًا ولا صليبًا ولا صنمًا ولا طاغوتًا ولا نارًا ولا شيء ، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له ، هذه دعوة جميع الرسل ، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [2] (النحل : من الآية ٣٦) [3] .

وقال رشيـد رضا : قال الأستاذ الإمام في قوله - تعالى - : ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ [4] (آل عمران : من الآية ٦٤) لما نكلوا دعاهم إلى أمر آخر ، هو أصل الدين وروحه الذي اتفقت عليه دعوة الأنبياء ، وهو سواء بين الفريقين ، أي عدل ووسط لا يرجح فيه طرف على آخر ، وقد فسّره بقوله : ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [5] (آل عمران : من الآية ٦٤) الآية [6] .

وبذا يتضح لنا أن هذه الآية نصّ في الوسطية في العبادة ، وهي عبادة الله وحده .

أمّا قولـه – تعـالـى - : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [7] (آل عمران : ٥١) . **فقد قال الطبري** في **معناها :** ذلك هو الطريق القويم ، والهدي المتين الذي لا اعوجاج فيه [8] .

وقال في آيـة مريـم : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ

---

[1] سورة آل عمران آية : ٦٤ .
[2] سورة النحل آية : ٣٦ .
[3] انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٣٧١) .
[4] سورة آل عمران آية : ٦٤ .
[5] سورة آل عمران آية : ٦٤ .
[6] انظر : تفسير المنار (٣/ ٣٢٥) .
[7] سورة آل عمران آية : ٥١ .
[8] انظر : تفسير الطبري (٣/ ٢٨٣) .

مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [1] (مريم : ٣٦) . يقول : هذا الذي أوصيتكم به ، وأخبرتكم أن الله أمرني به هو الطريق المستقيم ، الذي من سلكه نجا ، ومن ركبه اهتدى ، لأنه دين الله الذي أمر به أنبياءه [2] .

وقال القاسمي :

﴿ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [3] (مريم : من الآية ٣٦) أي : قويم ، من اتبعه رشد وهدى ، ومن خالفه ضلّ وغوى [4] .

وقد سبق أن بيّنت أن الوسطية تعني الاستقامة وأن قوله - تعالى - : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [5] (الفاتحة : ٦) . من أقوى الأدلة على منهج الوسطية ، كما يقرّره القرآن الكريم .

---

(١) سورة مريم آية : ٣٦ .

(٢) انظر : تفسير الطبري (١٦/ ٨٥) .

(٣) سورة مريم آية : ٣٦ .

(٤) انظر : تفسير القاسمي (١١/ ٤١٣٧) .

(٥) سورة الفاتحة آية : ٦ .

ثالثا الآيات التي جاءت بالتزام منهج الوسط

ثالثًا : الآيات التي جاءت في بعض أنواع العبادة في معناها الخاص كالصلاة والدعاء وغيرهما ، حيث نجد فيها أمرًا بالتزام منهج الوسط ، ونَهيًا عن الإضاعة أو الرهبنة ، وهو ما يمثل الإفراط والتفريط .

وسأذكر بعض الآيات التي وردت في ذلك ، مقتصرًا على ما يُبيّن المراد ، مع بيان دلالة الآية على الوسطية .

١- ذمّ الله الإفراط في العبادة والغلو فيها ، حيث قال في حق بني إسرائيل من النصارى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [1] (الحديد : من الآية ٢٧) .

قال القاسمي : الرهبانية هي المبالغة في العبادة ، والرياضة والانقطاع عن الناس ، وإيثار العزلة والتبتل [2] .

وقال ابن كثير : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ [3] أي ابتدعتها أمة النصارى . ﴿ مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [4] (الحديد : من الآية ٢٧) أي : ما شرعناها لهم ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم ، ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ ﴾ [5] (الحديد : من الآية ٢٧) أي : فما قاموا بما التزموه حق القيام ، وهذا ذمّ لهم من وجهين :

أحدهما : الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله .

---

[1] سورة الحديد آية : ٢٧ .
[2] انظر : تفسير القاسمي (١٦/ ٥٦٩٨) .
[3] سورة الحديد آية : ٢٧ .
[4] سورة الحديد آية : ٢٧ .
[5] سورة الحديد آية : ٢٧ .

الثاني : في عدم قيامهم بما التزموه ، مما زعموا أنه قربة يقرّبم إلى الله ﷻ [(١)] .

وهذه الرّهبانية التي ابتدعها النصارى لم يشرعها الله ، وهي غلوّ في العبادة ، ولذلك كانت النتيجة عدم قدرتم على المحافظة عليها لمشقّتها وصعوبتها .

وقول الله - جل وعلا - : ﴿ مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ ﴾ [(٢)] (الحديد : من الآية ٢٧) دليل على أن الله لا يشرع ولا يكلّف بما فيه غلوّ ومشقّة ، كما سبق بيانه .

ولقد اعترف عدد من متأخري النصارى بخطأ هذا الغلوّ والرهبنة التي ابتدعها أسلافهم ، وأنا ليست من دين الله ، ونحن لسنا بحاجة إلى ذلك لأن الله قد بين هذا الأمر في كتابه ، ولكن هذا الاعتراف له دلالاته التي لا تخفى . وقد ذكر القاسمي بعض هذه الاعترافات تفصيلا ، أذكر نتفًا منها [(٣)] .

قال صاحب ريحانة النفوس - وهو نصراني- : إن الرهبنة قد نشأت من التوهّم بأن الانفراد عن معاشرة الناس ، واستعمال التقشفات والتأملات الدينية ، هي ذات شأن عظيم ، ولكن لا يوجد سند لهذا الوهم في الكتب المقدسة ، لأن مثال المسيح ، ومثال رسله يضادانه باستقامة . ثم قال : ونحن نقول بكل جرأة : إنه لا يوجد في جميع الكتاب المقدس مثال للرهبنة ، ولا يوجد أمر من أوامره يلزم با ، بل العكس .

وفي كتاب البراهين الإنجيلية ضد الأباطيل البابوية : إن ذم الزيجة خطأ ، لأنا عمل الأفضل ، لأن الرسول أخبر بأن الزواج خير من التوقّد بنار الشّهوة .

ثم قال : ومن المعلوم أن الطبيعة البشرية تغصب الإنسان على استيفاء حقها ، ومن العدل أن نستوفيه - إلى أن قال - : ولذلك نرى كثيرًا من القساوسة والأساقفة والشمامسة ، لا بل من البابوات المدعين بالعصمة ، قد تكردسوا في هوة الزنا ، لعدم تحصنهم بالزواج الشرعي .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٥) .
(٢) سورة الحديد آية : ٢٧ .
(٣) انظر : تفسير القاسمي (١٦/ ٥٦٩٨) .

ثم قال : فالطريقة الرهبانية هي اختراع شيطاني قبيح ، لم يكن له رسم في الكتب المقدسة ، ولا في أجيال الكنيسة الأولى .

وختم كلامه - الطويل - بقوله : ولا تتسع الصحف لشرح جميع الأضرار التي وقعت على العالم بسبب الرهبنات .

قال القاسمي معقبًا على ذلك : وهو حجة عليهم منهم [(١)] .

هذه نتيجة الرهبنة والإفراط والغلوّ الذي ذمه الله ، فقال : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ [(٢)] (النساء : من الآية ١٧١) . وقال : ﴿ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ ﴾ [(٣)] (الحديد : من الآية ٢٧) .

٢- وكما ذم الله الغلوّ والرهبنة فقد ذم التفريط والتضييع والإهمال ، فقال – سبحـانه - : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ ﴾ [(٤)] (مريم : ٥٩) . قال ابن كثير مبيِّنا دلالة هذه الآية على الخروج عن منهج الوسطية .

لما ذكر الله - تعالى - حزب السعداء ، وهم الأنبياء ، عليهم السلام ، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله ، وأوامره ، المؤدّين فرائض الله ، التاركين لزواجره ، وذكر أنه ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾ [(٥)] (مريم : من الآية ٥٩) أي قرون أخر . ﴿ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [(٦)] (مريم : من الآية ٥٩) وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع ،

---

(١) انظر : تفسير القاسمي (١٦/ ٥٧٠٠) .
(٢) سورة النساء آية : ١٧١ .
(٣) سورة الحديد آية : ٢٧ .
(٤) سورة مريم آية : ٥٩ .
(٥) سورة مريم آية : ٥٩ .
(٦) سورة مريم آية : ٥٩ .

لأنا عماد الدين وقوامه ، وخير أعمال العباد ، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا با ، فهؤلاء سَيلقَون غيا ، أي : خسارة يوم القيامة [1] .

وقال الشنقيطي في **تفسير الآية :** فخلف من بعد أولئك النبيين خلف ، أي : أولاد سوء .

ثم قال : إن هذا الخلف السيئ الذي خلف من بعد أولئك النبيين الكرام كان من صفاتم القبيحة أنم أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات .

ثم قال : فإذا عرفت كلام العلماء في الآية الكريمة ، وأن الله توعّد فيها من أضاع الصلاة ، واتبع الشهوات ، بالغيّ الذي هو الشرّ العظيم ، والعذاب الأليم ، فاعلم أنه أشار إلى هذا المعنى في مواضع أخر ، كقوله في ذمّ الذين يضيعون الصلاة ولا يحافظون عليها وتديدهم : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ﴾ [2] (الماعون : ٤) ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ﴾ [3] (الماعون : ٥) ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ ﴾ [4] (الماعون : ٦) . وأشار في مواضع كثيرة إلى ذم الذين يتّبعون الشّهوات ، وتديدهم ، كقوله - تعالى - : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ [5] (الحجر : ٣) .

ويفهم من مفهوم مخالفة الآية الكريمة أن الخلف الطيبين لا يضيعون الصلاة ، ولا يتّبعون الشّهوات ، وقد أشار إلى هذا في مواضع كثيرة من كتابه ، كما في سورة المؤمنين في وصف المؤمنين ، وكقوله - تعالى - : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾ [6] (النازعـات : ٤٠ ، ٤١) .

---

[1] انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٧) .
[2] سورة الماعون آية : ٤ .
[3] سورة الماعون آية : ٥ .
[4] سورة الماعون آية : ٦ .
[5] سورة الحجر آية : ٣ .
[6] سورة النازعات آية : ٤٠ ، ٤١ .

٣- وبعد أن ذكرت الآيات التي تدل على النهي عن الغلوّ والإفراط أو التفريط والتضييع أذكر بعض الآيات التي تأمر بالتزام الوسط بين الإفراط والتفريط .

قـال – تعـالـى - : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [1] (الإسراء : من الآية ١١٠) .

قال ابن كثير :

قال الإمام أحمد [2] حدثنا هشيم ، حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : نـزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوار بمكة : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ [3] (الإسراء : من الآية ١١٠) قال : كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فلما سمع ذلك المشركون سبّوا القرآن وسبّوا من أنـزله ، ومن جاء به ، قال : فقال الله - تعالى - لنبيه ﷺ ، ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ [4] " . أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ [5] (الإسراء : من الآية ١١٠) عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك . ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [6] (الإسراء : من الآية ١١٠) أخرجاه في الصحيحين [7] من حديث أبي بشر جعفر بن إياس به [8] .

وقال أشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس : نـزلت في الدعاء [9] .

---

(١) سورة الإسراء آية : ١١٠ .
(٢) المسند (١/ ٢٣ ، ٢١٥) .
(٣) سورة الإسراء آية : ١١٠ .
(٤) سورة الإسراء آية : ١١٠ .
(٥) سورة الإسراء آية : ١١٠ .
(٦) سورة الإسراء آية : ١١٠ .
(٧) صحيح البخاري (٥/ ٢٢٩) . ومسلم (١/ ٣٢٩) رقم (٤٤٦) .
(٨) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٦٨) .
(٩) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٦٩) .

قال القرطبي :

روى مسلم عن عائشة في قوله ﷻ ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ [1] (الإسراء : من الآية ١١٠) قالت : أنـزل هذا في الدعاء [2] . والشاهد أن هذه الآية تأمر بالتوسط بين أمرين منهي عنهما ، وهما الجهر الشديد أو المخافتة والإسرار ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [3] (الإسراء : من الآية ١١٠) .

وقـال – تعـالى - : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [4] (لأعراف : من الآية ٢٠٥) .

قال القرطبي : (ودون الجهر) أي دون الرفع في القول ، أي : أسمع نفسك ، كما قال : ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [5] (الإسراء : من الآية ١١٠) . أي بين الجهر والمخافتة [6] .

وقال ابن كثير :

﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [7] (الأعراف : من الآية ٢٠٥) أي اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة ، وبالقول لا جهرًا ، ولهذا قال : ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [8] (الأعراف : من الآية ٢٠٥) . وهكذا يستحب أن يكون الذكر ، لا يكون نداء وجهرًا بليغًا [9] .

---

[1] سورة الإسراء آية : ١١٠ .
[2] انظر : تفسير القرطبي (١٠/ ٣٤٤) . وانظر : صحيح مسلم (١/ ٣٢٩) رقم (٤٤٧) .
[3] سورة الإسراء آية : ١١٠ .
[4] سورة الأعراف آية : ٢٠٥ .
[5] سورة الإسراء آية : ١١٠ .
[6] انظر : تفسير القرطبي (٧/ ٣٥٥) .
[7] سورة الأعراف آية : ٢٠٥ .
[8] سورة الأعراف آية : ٢٠٥ .
[9] انظر : تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨١) .

وقال - تعالى - ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [(١)] (التغابن : من الآية ١٦) .

قال ابن كثير :

أي جهدكم وطاقتكم .

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله - تعالى - : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [(٢)] (آل عمران : من الآية ١٠٢) . وقال : لما نـزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرّحت جباههم فأنـزل الله – تعـالـى - هذه الآية ، تخفيفًا على المسلمين : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [(٣)] (التغابن : من الآية ١٦) . فنسخت الآية الأولى [(٤)] .

ودلالة الوسطية على هذا القول واضحة جلية .

وأخيرًا : نقف أمام قوله - تعالى - في سورة المزمل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ [(٥)] (المزمل : ١-٤) . ثم قال في آخر السورة : ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ [(٦)] (المزمل : من الآية ٢٠) .

---

(١) سورة التغابن آية : ١٦ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٠٢ .

(٣) سورة التغابن آية : ١٦ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٦) .

(٥) سورة المزمل آية : ١ - ٤ .

(٦) سورة المزمل آية : ٢٠ .

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ [(١)] (المزمل : من الآية ٢٠) . أي من غير تحديد بوقت ، أي : ولكن قوموا من الليل ما تيسر ، وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال في سورة (سبحان) : ﴿ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ ﴾ [(٢)] (الإسراء : من الآية ١١٠) . أي بقراءتك [(٣)] .

(١) سورة المزمل آية : ٢٠ .
(٢) سورة الإسراء آية : ١١٠ .
(٣) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٨) .

وقال القرطبي :

قوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ [1] (البقرة : من الآية ١٨٧) . قيل : أي فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم ، وأصل التوبة الرجوع ، فالمعنى : رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف ، ومن عسر إلى يسر [2] .

وبعد :

فقد اتضح لنا من خلال ما سبق في هذا الباب من آيات أنّ الوسطية أصل في باب العبادة في معناها الخاص والعام ، وأن الغلوّ والجفاء ، والإفراط والتفريط منفيان عنها كما نفيا عن غيرها .

رابعا منهج الوسطية في الشهادة والحكم

سبق معنا في تفسير قوله - تعالى - : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [3] (البقرة : من الآية ١٤٣) . أن الرسول ، ﷺ فسّرها بقوله : " عدولا " [4] . وكذلك فسّرها ، ﷺ بالشهادة ، حيث ذكر شهادة هذه الأمة لنوح ، عليه السلام ، ثم قرأ ، ﷺ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [5] (البقرة : من الآية ١٤٣) . الآية [6] .

ولا مُنافاة بين التفسيرين ، بل أحدهما مكمّل للآخر ، لأن الشهادة المعتبرة عند الله ما كانت عدلا .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٨٧ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي (١٩/ ٥٣) .

(٣) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٤) انظر : تفسير الطبري (٢/ ٧) . والحديث أخرجه الترمذي (٥/ ١٩٠) رقم (٢٩٦١) وأحمد (٣/ ٩) وعندهما " عدلا " بدل " عدولا " .

(٥) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٦) انظر : تفسير قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطًا) . في أول هذه الرسالة .

ومن هذا المنطلق فقد جاءت آيات كثيرة تبيّن وجوب العدل في الشهادة ، وكذلك في الحكم - أيضًا - والشهادة هي إحدى مقدّمات الحكم في كثير من الأحكام ، بل في كلها إذا اعتبرنا إقرار المرء على نفسه شهادة ، وهو كذلك .

وإذا كان العدل يعني الوسط ، كما تقرّر ، فإن أمر الله بالعدل في الشهادة والحكم هو أمر وإقرار لمنهج الوسطية ، ويتّضح ذلك - تفصيلا - من خلال ما سيأتي - إن شاء الله - :

١- قال - تعالى - في سورة النساء : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [1] (النساء : ١٣٥) . ولنتأمل ما قاله الطبري في تفسيره للآية ، فإننا نجد الدلالة البينة في هذه الآية على منهج العدل والوسط ، والتّحذير من الحيف والجور واتباع الهوى ، وإليك بعض ما قال :

يقول الله لهم : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [2] (النساء : من الآية ١٣٥) . يقول : ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام بالقسط ، يعني العدل ﴿ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ [3] (النساء : من الآية ١٣٥) معناه : قوموا بالقسط لله عند شهادتكم ، أو حين شهادتكم ﴿ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [4] (النساء : من الآية ١٣٥) . يقول : ولو كانت شهادتكم على أنفسكم ، أو على والديكم أو أقربيكم ، فقوموا فيها بالقسط والعدل ، وأقيموا على صحتها بأن تقولوا فيها الحق ، ولا تميلوا فيها لغني لغناه

---

(١) سورة النساء آية : ١٣٥ .

(٢) سورة النساء آية : ١٣٥ .

(٣) سورة النساء آية : ١٣٥ .

(٤) سورة النساء آية : ١٣٥ .

على فقير ، ولا لفقير لفقره على غني فتجوروا ، فإن الله الذي سوّى بين حكم الغني والفقير فيما ألزمكم أيّها الناس من إقامة الشهادة لكل واحد منهما بالعدل أولى بما ، وأحقّ منكم ، لأنه مالكهما ، وأولى بما دونكم ، فهو أعلم بما فيها مصلحة كل واحد منهما في ذلك ، وفي غيره من الأمور كلها منكم ، فلذلك أمركم بالتسوية بينهما في الشهادة لهما وعليهما .

﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ ﴾ [1] (النساء : من الآية ١٣٥) . فلا تتبعوا أهواء أنفسكم في الميل في شهادتكم إذا قمتم با ، ولكن قوموا فيه بالقسط ، وأدّوا الشهادة على ما أمركم الله بأدائها بالعدل لمن شهدتم عليه وله .

والتعبير بالغني والفقير هو في مقام العدو أو القريب كما سيأتي في آيتي المائدة والأنعام ، ويمكن استعماله في الوجهين كما يدل عليه كلام الطبري ، فقد يكون بعض الناس مع الغني ضد الفقير - وهو الغالب - ، وقد يكون البعض مع الفقير لفقره ، ضد الغني لغناه ، ولكل حالة ما يناسبها .

٢- قال - تعالى - : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ ﴾ [2] (المائدة : من الآية ٨) .

قال الطبري في **معنى الآية :** يعني بذلك - جلّ ثناؤه - : يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد ، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله ، شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم ، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم ، فتجاوزوا ما حدّدت لكم في أعدائكم لعداوتم لكم ، ولا تقصّروا فيما حدّدت لكم في أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم ، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدّي ، واعملوا فيه بأمري [3] .

وهذا التفسير للآية واضح الدلالة على منهج الوسطية في الشهادة والحكم ، ومثل

---

[1] سورة النساء آية : ١٣٥ .

[2] سورة المائدة آية : ٨ .

[3] انظر : تفسير الطبري (٦/ ١٤١) .

ذلك تفسير ابن كثير ، حيث قال في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ﴾ [1] (المائدة : من الآية ٨) . أي : لا يحملّنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل استعملوا العدل في كل أحد ، صديقًا كان أو عدوا ، ولهذا قال : ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [2] (المائدة : من الآية ٨) [3] .

وقد جاء قبل هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ ﴾ [4] (المائدة : من الآية ٢) .

قال الطبري في **تفسيرها :** فتأويل الآية إذن : لا يحملّنكم بغض قوم لأن صدوكم عن المسجد الحرام أيها المؤمنون . أن تعتدّوا حكم الله فيهم ، فتجاوزوه إلى ما ناكم عنه ، ولكن ألزموا طاعة الله فيما أحببتم وكرهتم [5] .

وقال رشيد رضا في **تفسيره للآية :** وأمّا الاعتداء على من تبغضونم فلا ُيباح لكم وأنتم حلّ ، كما أنه لا ُيباح لكم وأنتم حُرم ، وإن كانوا صدّوكم عن المسجد الحرام من قبل ، وهذا لا يمنع من الجزاء على الاعتداء بالمثل ، لأنه نى عن استئناف الاعتداء على سبيل الانتقام ، فإن من يحمله البغض والعداوة على الاعتداء على من يبغضه يكون منتصرًا لنفسه لا للحق ، وحينئذ لا يراعي المماثلة ولا يقف عند حدود العدل [6] .

٣- ومثل هذه الآية قولـ ـه – تعـ ـالى - : ﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ ﴾ [7] (الأنعام : من الآية ١٥٢) .

---

(١) سورة المائدة آية : ٨ .
(٢) سورة المائدة آية : ٨ .
(٣) انظر : تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠) .
(٤) سورة المائدة آية : ٢ .
(٥) انظر : تفسير الطبري (٦/ ٦٩) .
(٦) انظر : تفسير المنار (٦/ ١٢٩) .
(٧) سورة الأنعام آية : ١٥٢ .

قال الطبري : يعني - تعالى ذكره - بقوله : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ ﴾ [1] (الأنعام : من الآية ١٥٢) وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم ، فقولوا الحق بينهم ، واعدلوا ، وأنصفوا ، ولا تجوروا ، ولو كان الذي يتوجه الحق عليه والحكم ذا قرابة لكم ، ولا يحملّنكم قرابة قريب ، أو صداقة صديق ، حكمتم بينه وبين غيره ، أن تقولوا غير الحق فيما احتكمتم إليه فيه [2] .

وقال القرطبي : قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ ﴾ [3] (الأنعام : من الآية ١٥٢) يتضمّن الأحكام والشهادات ، ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [4] (الأنعام : من الآية ١٥٢) . أي ولو كان الحق على مثل قراباتكم ، كما تقدّم في النساء [5] .

وقد وقفت متأمّلا لآيتي المائدة والأنعام ، فوجدت أن كلا منهما تأمر بالعدل وهو طريق الوسط ، ولكن كل آية اختصت بمعنى ليس في الأخرى ، فآية المائدة تنهى عن الحيف والجور في حق العدوّ ، وأن عداوته وبغضه لا يجوز أن يكون حائلا دون العدل في حقه ، شهادة أو حكمًا ، فهي تنهي عن الإفراط والغلو بالنسبة لصدور الحكم ضده ، وعن التفريط والجفاء بالنسبة لحفظ حقوقه وما يجب له .

أما آية الأنعام فإنها تُحذّر من الميل والإفراط في حقّ القريب ، مما يكون سببًا لعدم ثبوت الحق عليه ، وهذا غلو منهي عنه ، كما تنهى عن التفريط في حق خصمه بسبب القرابة ، فإن عدم أداء الشهادة محاباة للقريب فيه تفريط في حق الخصم وضياع للحقوق . ومن هنا فإن هاتين الآيتين بمجموعهما ترسمان خط الوسطية ، وترشدان إليه ، وتحذران من الحيف والميل سواء أكان إفراطًا أو تفريطًا .

---

[1] سورة الأنعام آية : ١٥٢ .
[2] انظر : تفسير الطبري (٨/ ٨٦) .
[3] سورة الأنعام آية : ١٥٢ .
[4] سورة الأنعام آية : ١٥٢ .
[5] انظر : تفسير القرطبي (٧/ ١٣٧) ، و(٥/ ٤١٠) .

وقد يؤدي بغض العدوّ أو حبّ القريب إلى شهادة الزّور والكذب ، فيحكم على العدوّ بما ليس عليه ، ويحكم للقريب بما ليس له ، وكل هذا خروج عن العدل ، ومن الظلم الذي لا يرضاه الله أبدًا .

أمّا آية النساء فإنا جمعت بين المعنيين كما هو واضح من سياقها ، وتفسير الطبري لها ، وإن كانت لمعنى ما في سورة الأنعام أقرب منها لما في سورة المائدة .

٤- ونجد تطبيقًا عمليا لمدلول هذه الآيات ما ذكره الله في سورة يوسف في قصة زوجة العزيز مع يوسف ، عليه السلام ، حين راودته عن نفسه : ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ [(١)] (يوسف : من الآية ٢٥) . وهنا حدثت المفاجأة ﴿ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ ﴾ [(٢)] (يوسف : من الآية ٢٥) . وبسرعة مذهلة يدرك المرأة كيد النساء : ﴿ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [(٣)] (يوسف : من الآية ٢٨) ، فتقلب الدعوى على يوسف : ﴿ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ ﴾ [(٤)] (يوسف : من الآية ٢٥) . وهذه دعوى خطيرة ، ولكن يوسف ، عليه السلام ، يردّ هذه الدعوى : ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ ﴾ [(٥)] (يوسف : من الآية ٢٦) ، ووقع العزيز في إشكال في هذه القضية ، وبخاصة إذا كانت امرأة ، لأن العادة الغالبة أنّ الرجل هو الذي يعتدي عليها ، لا أن تعتدي هي عليه ، وفي هذه اللحظات الحرجة يأتي الفرج : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ

---

(١) سورة يوسف آية : ٢٥ .
(٢) سورة يوسف آية : ٢٥ .
(٣) سورة يوسف آية : ٢٨ .
(٤) سورة يوسف آية : ٢٥ .
(٥) سورة يوسف آية : ٢٦ .

﴿مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [١] (يوسف : ٢٦ ، ٢٧) ، إنا شهادة عجيبة تنطق بالعدل والصدق ، مع قرابته للمرأة .

فقد وضع أمام العزيز ميزانًا دقيقًا دون حيف أو محاباة ، وبدأ بما يتعلّق بالرجل أولا ، وما أشبه فعل يوسف ، عليه السلام به ، عندما بدأ بأوعية إخوته قبل وعاء أخيه ، ثم ذكر ما يتعلّق بالمرأة ، ويظهر العدل في هذا من خلال ما يلي :

(أ) فعدم كتمانه للشهادة دليل على عدم محاباته للمرأة وهي قريبته .

(ب) البداءة بيوسف وعدم اقتصاره على ما يتعلق بالمرأة يدلّ على أنه لا يحابي يوسف ، عليه السلام . وهنا صدر الحكم العادل المبني على شهادة العدل : ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [٢] (يوسف : ٢٨ ، ٢٩) .

٥- وردت آيات كثيرة تأمر بالعدل ، وتنهى عن الهوى ، وذلك مثل قولـه - تعالى - ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ [٣] (النساء : من الآية ٥٨) . وقوله - تعالى - في سورة النحل : ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [٤] (النحل : ٩٠) ، وكذلك قوله - تعالى - في سورة الأعراف : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [٥] (الأعراف : من الآية ٢٩) [٦] وفي سورة (ص) :

---

(١) سورة يوسف آية : ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) سورة يوسف آية : ٢٨ ، ٢٩ .
(٣) سورة النساء آية : ٥٨ .
(٤) سورة النحل آية : ٩٠ .
(٥) سورة الأعراف آية : ٢٩ .
(٦) العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [1] (صّ : من الآية ٢٦)

وقريب من هذه الآية ما جاء في سورة الشورى ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ﴾ [2] (الشورى : من الآية ١٥) ونجد في سورة النحـــــــل : ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ ﴾ [3] (النحل : من الآية ١٢٦) ، والآيات في مثل هذا المعنى كثيرة ومعلومة ، وكلها تأمر بالعدل ، وتنهى عن البغي والعدوان ، وهذه دلالة الوسطية ، والنهي عن الإفراط والتفريط .

٦- ومن الأدلة العملية على وجوب التزام العدل وعدم البغي أو العدوان قوله - تعالى - في سورة الإسراء : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ٣٣ ﴾ [4] (الإسراء : من الآية ٣٣) . فهنا ثلاث حالات - طرفان ووسط -

أ- ضياع حقّ أولياء المقتول ، كما يقع في كثير من الأزمنة ، وتحمي هذا الضياع أنظمة ودول وبخاصة في عصرنا الحاضر ، وبالذّات الدول التي ألغت عقوبة الإعدام ، إمّا نظامًا أو واقعًا ، وهو الأكثر - وبخاصة إذا كان القاتل شريفًا فهيهات أن يؤخذ الحق منه .

ب- أن يأخذ أولياء المقتول أكثر مما لهم ، وهو الإسراف في القتل ، وهذا ما كان يجري في الجاهلية ، ويوجد في عصرنا الحاضر في بعض التمعات التي تأخذ بالثأر ، فتقتل غير القاتل دون ذنب إلا أنه من أقرباء القاتل ، أو تقتل أكثر من فرد انتقامًا وثأرًا .

---

[1] سورة ص آية : ٢٦ .
[2] سورة الشورى آية : ١٥ .
[3] سورة النحل آية : ١٢٦ .
[4] سورة الإسراء آية : ٣٣ .

ج- أن يقتل القاتل قِصاصًا ، أو تؤخذ الدية ، أو يكون العفو برضى أولياء القتيل .

والحالة الأولى تمثل التّفريط .

والحالة الثانية تمثل التّعدي والإفراط .

والحالة الثالثة هي العدل والوسط .

ولقد نـزل القرآن بالحالة الثالثة ، فقولـه – تعـالى - : ﴿ فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا ﴾ [1] (الإسراء : من الآية ٣٣) إثبات للحالة الثالثة ، ونفي للحالة الأولى ، فإثبات الحقّ نفي للتفريط وإضاعة الدم ، وقوله : ﴿ فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ ﴾ [2] (الإسراء : من الآية ٣٣) نهي عن الحالة الثانية ، وهي التعدّي والإفراط .

قال الطبري : وأولى التأويلين بالصّواب في ذلك من تأوّل : أنّ السلطان الذي ذكر الله - تعالى - في هذا الموضع ما قاله ابن عباس : من أن لولي القتيل القتل إن شاء ، وإن شاء أخذ الدّية ، وإن شاء العفو ، لصحة الخبر عن رسول الله ، ﷺ أنّه قال يوم فتح مكة : ﴿ ألا ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين بين أن يقتل أو يأخذ الدية ﴾ [3] [4] .

وقوله : ﴿ فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ ﴾ [5] (الإسراء : من الآية ٣٣) يقول : فلا تقتل بالمقتول ظلمًا غير قاتله .

وذلك أنّ أهل الجاهلية كانوا يفعلون ذلك ، إذا قتل رجل رجلا عمد ولى القتيل إلى الشّريف من قبيلة القاتل فقتله بوليّه ، وترك القاتل ، فنهى الله عز وجل عن ذلك عباده ، وقال لرسوله ، ﷺ قتل غير القاتل بالمقتول معصية وسرف ، فلا تقتل به غير قاتله ، وإن قتلت

---

[1] سورة الإسراء آية : ٣٣ .

[2] سورة الإسراء آية : ٣٣ .

[3] البخاري في اللقطة (٢٣٠٢) ، مسلم الحج (١٣٥٥) ، ابن ماجه الديات (٢٦٢٤) ، أحمد (٢٣٨/٢) .

[4] أخرجه البخاري (٨/ ٣٨) . ومسلم (٢/ ٩٨٨) رقم (١٣٥٥) .

[5] سورة الإسراء آية : ٣٣ .

القاتل بالمقتول فلا تمثل به [1] .

وقال القاسمي : أي ومن قتل بغير حق - مما تقدم - ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ ﴾ [2] (الإسراء : من الآية ٣٣) الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه . ﴿ سُلْطَـٰنًا ﴾ [3] (الإسراء : من الآية ٣٣) أي : تسلّطًا على القاتل في الاقتصاص منه ، أو حجة يثب بها عليه ، وحينئذ فلا يُسرف في القتل ، أي : فلا يقتل غير القاتل ، ولا اثنين والقاتل واحد ، كعادة الجاهلية ، كان إذا قُتل منهم واحد قتلوا به جماعة ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [4] (الإسراء : من الآية ٣٣) تعليل للنهي . يعني : حسبه أنّ الله قد نصره بأن أوجب له القصاص ، فلا يستزد على ذلك [5] .

وبهذا المثال ومن خلال ما سبق من آيات اتضح لنا منهج الوسطية في الشهادة والحكم ، لأن الله أمر بالعدل ونهى عن الظلم والبغي .

خامسا منهج الوسطية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

نالت الأمة الخيرية لأسباب من أهمّها قيامها بواجب الأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر ، واستمرار الخيرية مرهون بالأسباب التي نالت بها هذه الدّرجة الرفيعة .

والواقع المشاهد استمرار للواقع الماضي في أنّ هناك فئات كثيرة ضلّت في هذا الباب ، فهناك كثيرون جدا تركوا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أو قصّروا فيها تقصيرًا شديدًا ، وهؤلاء سلكوا سبيل التّفريط ، وآخرون - وهم أقل من أولئك - قاموا بالأمر بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولكنهم لم يعرفوا مراتبه ودرجاته وحدوده ، أو لم يلتزموا بها ، فوقع كثير منهم في الغلو والإفراط .

---

[1] انظر : تفسير الطبري (١٥/ ٨١) .
[2] سورة الإسراء آية : ٣٣ .
[3] سورة الإسراء آية : ٣٣ .
[4] سورة الإسراء آية : ٣٣ .
[5] انظر : تفسير القاسمي (١٠/ ٣٩٢٦) .

والقلّة القليلة - ماضيًا وحاضرًا - من سلك السّبيل المستقيم ، والطّريق القويم ، والتزم بالمنهج الوسط الذي شرعه الله على لسان رسوله ، ﷺ .

وعناية بذا الركن العظيم ، ومن أجل القيام به على الوجه المشروع جاءت الآيات تلو الآيات تبّين حكمه ، وترسم معالمه وحدوده ، وتزجر ، عن الانحراف به وعنه ذات اليمين وذات الشمال .

وكل هذه الآيات في دلالتها جاءت لتقرّر منهج الوسطية ، وتصون هذا الركن عن الانحراف والتبديل ، والتضييع والإهمال .

وسأختار بعض الآيات التي تبّين هذه الحقيقة وتدلّ عليها ، في ضوء المنهج الذي سلكته فيما مضى :

١- قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [(١)] (آل عمران : من الآية ١١٠) .

قال ابن كثير في تفسير الآية : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [(٢)] (آل عمران : من الآية ١١٠) يعني خير الناس للناس ، والمعنى أنم خير الأمم ، وأنفع الناس للناس ، ولهذا قال : ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [(٣)] (آل عمران : من الآية ١١٠) - إلى أن قال - : والصحيح ان هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه ، وخير قرونم الذين بعث فيهم ، ﷺ ثم الذين يلونم ، ثم الذين يلونم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [(٤)] (البقرة : من الآية ١٤٣) أي : خيارًا [(٥)] .

---

(١) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

(٣) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٣٩١) .

والشاهد هنا أن الخيرية تعني الوسطية ، كما وضّحت ذلك في مبحث (ملامح الوسطية) ، ولذلك فلا بد أن يكون الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، يُحقّق هذه الخاصية ، وينطلق من ضوابطها .

٢- نعى الله على الذين أضاعوا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتركوا الدعوة إلى الله فقال - سبحانه - : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [1] (المائدة : ٧٨ ، ٧٩) .

وقال - سبحانه - : ﴿ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [2] (المائدة : ٦٣) . وقال - سبحانه - : ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [3] (آل عمران : ١٨٧) . وقال - جل وعلا - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [4] (البقرة : ١٥٩) .

قال ابن كثير في الآية الأولى : ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ ﴾ [5] (المائدة : من الآية ٧٩) . أي : كان لا ينهى أحد منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم ، والمحارم ، ثم ذمهم على ذلك ليحذّر أن يرتكب مثل الذي ارتكبوه ، فقال : ﴿ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ

(١) سورة المائدة آية : ٧٨ ، ٧٩ .
(٢) سورة المائدة آية : ٦٣ .
(٣) سورة آل عمران آية : ١٨٧ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٥٩ .
(٥) سورة المائدة آية : ٧٩ .

﴿ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ ﴾ [1] (المائدة : من الآية ٧٩) .

وقال القرطبي : ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ ﴾ [2] (المائدة : من الآية ٧٩) أي لا ينهى بعضهم بعضًا . ﴿ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ ﴾ [3] (المائدة : من الآية ٧٩) ذم لتركهم النهي ، وكذا من بعدهم يذم من فعل فعلهم [4] .

وقال الطبري في **الآية الثانية :** ﴿ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ ﴾ [5] (المائدة : من الآية ٦٣) . هلاّ ينهى هؤلاء الذين يسارعون في الإثم والعدوان وأكل الرشاء في الحكم من اليهود من بني إسرائيل ربانيوهم ، وهم أئمتهم المؤمنون ، وساستهم العلماء بسياستهم وأحبارهم ، وهم علماؤهم وقوادهم .

﴿ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝٦٣ ﴾ [6] (المائدة : من الآية ٦٣) وهذا قسم من الله أقسم به ، يقول - تعالى ذكره - : أقسم : لبئس الصنيع كان يصنع هؤلاء الربانيون والأحبار في تركهم ني الذين يسارعون منهم في الإثم والعدوان ، وأكل السّحت ، عما كانوا يفعلون من ذلك ، وكان العلماء يقولون : ما في القرآن أشدّ آية توبيخًا للعلماء من هذه الآية ، ولا أخوف عليهم منها ، ثم روي عن ابن عباس قوله : ما في القرآن آية أشد توبيخًا من هذه الآية .

وكذلك روي عن الضّحاك قوله : ما في القرآن آية أخوف عندي منها ، إنّا لا ننهى [7] .

---

[1] سورة المائدة آية : ٧٩ .
[2] سورة المائدة آية : ٧٩ .
[3] سورة المائدة آية : ٧٩ .
[4] انظر : تفسير القرطبي (٦/ ٢٥٣) .
[5] سورة المائدة آية : ٦٣ .
[6] سورة المائدة آية : ٦٣ .
[7] انظر : تفسير الطبري (٦/ ٢٩٨) .

وقال القرطبي : ودلت الآية على أن تارك النهي عن المنكر كمرتكب المنكر ، فالآية توبيخ للعلماء في ترك الأمر بالمعروف ، والنهي المنكر [١] .

وقال ابن كثير في الآية الثالثة : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [٢] (آل عمران : من الآية ١٨٧) .

هذا توبيخ من الله وتديد لأهل الكتاب . . إلى أن قال : وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم ، فيصيبهم ما أصابم ، ويسلك بم مسلكهم ، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، الدالّ على العمل الصّالح ، ولا يكتمون منه شيئًا [٣] .

ومعنى الآية الرابعة قريب من معنى هذه الآية [٤] .

والخلاصة أن هذه الآيات - وأمثالها - جاءت لتبّين خطورة ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأن تضييع هذا الركن وعدم القيام به انحراف عن الصّراط المستقيم .

وهي بذا تحذّر المؤمنين من سوء عاقبة هذا الأمر ، وترشدهم إلى طريق الحق والسلامة والنّجاة .

٣- وإذا كان ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، انحراف وخروج عن الصّراط المستقيم ، وهو منهج المغضوب عليهم من اليهود وأشباههم ، فإن هناك انحرافًا آخر قد لا ينتبه له كثير من الناس ، وهو أن يأمر الإنسان وينهى ، ولكنه لا يلتزم بما يدعو الناس إليه ، وينهاهم عنه ، ولذلك جاءت الآيات تبين خطأ هذا المسلك وسوء هذا الفعل .

قال - سبحانه - : ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا

---

[١] انظر : تفسير القرطبي (٦/ ٢٣٧) .
[٢] سورة آل عمران آية : ١٨٧ .
[٣] انظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٦) .
[٤] انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٠) .

تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [1] (البقرة : ٤٤) .

وقال - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [2] (الصف : ٢ ، ٣) .

وقال - جل وعلا - حكاية عن شعيب ، عليه السلام : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [3] (هود : من الآية ٨٨) .

وأنّبه هنا إلى أن الانحراف ليس بأمره بالمعروف ، ونيه عن المنكر ، وإنما لمخالفة فعله قوله [4] قال ابن كثير والغرض أن الله - تعالى - ذمهم على هذا الصنيع ، وليس المراد ذمّهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ، بل على تركهم له ، فإن الأمر بالمعروف معروف ، وهو واجب على العالم ، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ، ولا يتخلّف عنهم ، كما قال شعيب ، عليه السلام : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾ [5] (هود : من الآية ٨٨) [6] .

قال القرطبي في قولـــه – تعـالـى - : ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [7] (البقرة : من الآية ٤٤) .

فالتأويل الذي يدلّ على صحته ظاهر التلاوة إذًا : أتأمرون الناس بطاعة الله ،

---

[1] سورة البقرة آية : ٤٤ .
[2] سورة الصف آية : ٢ ، ٣ .
[3] سورة هود آية : ٨٨ .
[4] انظر : القول البين الأظهر للشيخ عبد العزيز الراجحي ص (٤٩) .
[5] سورة هود آية : ٨٨ .
[6] انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٨٥) .
[7] سورة البقرة آية : ٤٤ .

وتتركون أنفسكم تعصيه!! فهلا تأمرونا بما تأمرون به الناس من طاعة ربكم ، فعيّرهم بذلك ، ومقبّحًا إليهم ما أتوا به .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [1] (البقرة : من الآية ٤٤) أفلا تفقهون وتفهمون قبح ما تأتون من معصيتكم ربكم التي تأمرون الناس بخلافها ، وتنهونم عن ركوبا ، وأنتم راكبوها ، وأنتم تعلمون أن الذي عليكم من حق الله وطاعته في اتباع محمد والإيمان به ، وربما جاء به ، مثل الذي على من تأمرونه باتباعه [2] .

قال قتادة : كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله ، وبتقواه وبالبرّ ، ويخالفون ، فعيرهم الله [3] .

وقال ابن جريج : أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصلاة والصوم ، ويدعون العمل بما يأمرون به الناس ، فعيّرهم الله بذلك ، فمن أمر بخير فليكن أشدّ الناس فيه مسارعة [4] .

وقال رشيد رضا في قوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [5] (البقرة : من الآية ٤٤) يعني ألا يوجد فيكم عقل يحبسكم عن هذا السّفة ، مثل من كانت هذه حاله ، كمثل رجل أمامه طريق مضيء نصبت فيه الأعلام والصوى ، بحيث لا يضلّ سالكه ، ثم هو يسلك طريقًا آخر مظلمًا طامس الأعلام ، وكلّما لقي في طريقه شخصًا نصحه ألا يمشي معه ، وأن يرجع إلى طريق الهدى الذي تركه [6] .

وأختم أقوال العلماء في هذه الآية بما قال عبد الرحمن بن سعدي : فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين ، والنقص الكامل أن يتركهما ، وأمّا قيامه بأحدهما دون الآخر ،

---

(١) سورة البقرة آية : ٤٤ .
(٢) انظر تفسير الطبري (١/ ٢٥٩) .
(٣) انظر : تفسير الطبري (١/ ٢٥٨) .
(٤) انظر : تفسير الطبري (١/ ٢٥٨) .
(٥) سورة البقرة آية : ٤٤ .
(٦) انظر : تفسير المنار (١/ ٢٩٦) .

فليس في رتبة الأول ، وهو دون الأخير [١] - وأيضًا - فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يُخالف قوله فعله ، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة [٢] .

أما آيتا الصف . ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [٣] (الصف : ٢ ، ٣) . فإنما وإن كانتا في قضية خاصة كما ذكر المفسرون ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب ، كما هو مقرّر عند الأصوليين . ولذلك فإن دلالتها كدلالة أية البقرة : ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ ﴾ [٤] (البقرة : من الآية ٤٤) الآية .

وقال الطبري في آية هود : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾ [٥] (هود : من الآية ٨٨) يقول :

وما أريد أن أناكم عن أمر ، ثم أفعل خلافه ، بل لا أفعل إلا بما آمركم به ، ولا أنتهي إلا عمّا أناكم عنه [٦] .

وقال النّخعي : ثلاث آيات منعتني أن أقصّ على الناس [٧] ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [٨] (البقرة : من الآية ٤٤) ، ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ

---

[١] أي دونه بالإثم وشناعة وقبح الفعل .
[٢] انظر : تفسير ابن سعدي (١/ ٨٢) .
[٣] سورة الصف آية : ٢ ، ٣ .
[٤] سورة البقرة آية : ٤٤ .
[٥] سورة هود آية : ٨٨ .
[٦] انظر : تفسير الطبري (١٢/ ١٠٣) .
[٧] هذه الآيات يجب أن تكون دافعة للعمل لا للتوقف عن الدعوة ، وكلام الإمام من باب بيان عظم شأن هذه الآيات وغفلة الناس عنها .
[٨] سورة البقرة آية : ٤٤ .

عَنْهُ﴾ (1) (هود : من الآية ٨٨) ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ (2) (الصف : ٢) (3) .

والشاهد من قول النخعي أن هذه الآيات مدلولها واحد ، وهو النهي عن مثل هذا الفعل ، وبيان خطورة هذا الانحراف عن الصّراط السّوي .

٤- وإذا كان إهمال الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أو مخالفة الفعل للقول انحراف عن الصّراط المستقيم ، وخروج عن منهج الوسطية ، فإن أعظم أنواع الانحراف في هذا الباب هو ما بيّنه الله تعالى في سورة التوبة مما هو من سمات المنافقين وأخلاقهم : ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ (4) (التوبة : من الآية ٦٧) .

قال رشيد رضا : أي أهل النفاق من الرجال والنساء متشابهون فيه وصفا وعملا ، كأن كلا منهم عين الآخر ، كما قيل : أي أهل النفاق من الرجال والنساء متشابهون فيه وصفا وعملا ، كأن كلا منهم عين الآخر ، كما قيل :

هل تلد الحية إلا الحية!! تلك العصا من هذه العصية

ثم بين هذا التشابه بقوله : ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ (5) (التوبة : من الآية ٦٧) المنكر الشّرعي ما ينكره الشّرع ويستقبحه ، والمنكر العقلي والفطري ما تستنكره العقول الراجحة ، والفطر السليمة ، لمنافاته للفضائل ، والمنافع الفردية ، والمصالح العامّة ، والشّرع هو القسطاس المستقيم في ذلك كله .

والمعروف : ما يُقابل المنكر مقابلة تضاد .

---

(1) سورة هود آية : ٨٨ .
(2) سورة الصف آية : ٢ .
(3) انظر : تفسير القرطبي (١٨/ ٨٠) .
(4) سورة التوبة آية : ٦٧ .
(5) سورة التوبة آية : ٦٧ .

ومن المنكر الذي يأمر به بعضهم بعضًا ؟ الكذب والخيانة وإخلاف الوعود ، والفجور ، والغدر بنقض العهود .

ومن المعروف الذي ينهون عنه : الجهاد ، وبذل المال في سبيل الله ، للقتال وغير القتال [1] .

ويقول سيد قطب وهو يفسر هذه الآية ويبين وجه انحراف المنافقين : أما سلوكهم - أي المنافقين - فهو الأمر بالمنكر ، والنهي عن المعروف ، وهم حين يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ، يستخفون بما ، ويفعلون ذلك دسا وهمسًا ، وغمزًا ولمزًا ، لأنم لا يجرءون على الجهر إلا حين يؤمنون . ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [2] (التوبة : من الآية ٦٧) . فهم خارجون عن الإيمان ، منحرفون عن الطّريق ، وقد وعدهم الله مصيرًا كمصير الكفار [3] .

وبذا يّتضح لنا أن هذا المسلك أسوأ ألوان الانحراف في باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

٥- ومن الآيات التي جاءت تحمل الدّلالة الصّريحة على أن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، هو الطريق الصحيح ، والمنهج الحق ، وأنّه لا يستوي من قام به ، ومن أهمله وفرّط فيه ، قوله - تعالى - :

﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [4] (آل عمران : ١١٣ ، ١١٤) .

---

[1] انظر : تفسير المنار (١٠/ ٥٣٣) .
[2] سورة التوبة آية : ٦٧ .
[3] انظر : في ظلال القرآن (٣/ ١٦٧٣) .
[4] سورة آل عمران آية : ١١٤ .

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : ﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَآءً ﴾ [(1)] (آل عمران : من الآية ١١٣) أي : ليسوا كلّهم على حدّ سواء ، بل منهم المؤمن ومنهم ، الرم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ [(2)] (آل عمران : من الآية ١١٣) أي : قائمة بأمر الله ، مطيعة لشرعه ، متبعة نبي الله ، فهي قائمة يعني مستقيمة [(3)] .

ومفهوم هذه الآية أن الأمة التي ليست كذلك ، ولم تتصف بذه الصفات ، فهي أمة منحرفة ضالة زائغة .

٦- والآيات السابقة جاءت مقرّرة أن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، هو طريق الخيرية والاستقامة ، وأن ما عداه طريق الانحراف والضّلالة .

ولكن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، يختلف من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام ، فليس كل من تصوّر أنّه قام به قد وافق الصّواب في ذلك ، فكم من داعية يأمر وينهى - استجابة للآيات الداعية لذلك على وجه العموم - ضلّ في هذا الأمر ، ولم يوفّق للمنهج الوسط ، وهو المنهج الحق ، فقد يتكلّم في مقام يجب فيه السّكوت ، وقد يغلظ في حال تجب فيها اللين والرفق ، وقد يلين القول فيما لا يجدي فيه إلا الغلظة والشدة ، وهكذا .

ولذلك جاءت الآيات تبّين المنهج القويم في مثل هذا الأمر ، وترسم الطريق المستقيم الذي قد يخفى على الكثيرين .

ولصعوبة التفصيل في هذا الأمر ، فسأذكر بعض الآيات التي تبّين هذا المنهج وتدل عليه .

(أ) قال - تعالى - : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ

---

(1) سورة آل عمران آية : ١١٣ .

(2) سورة آل عمران آية : ١١٣ .

(3) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٧) .

عِلۡمٍۗ ﴾ [1] (الأنعام : من الآية ١٠٨) .

قال ابن عباس : قالت قريش : يا محمد : لتنتهين عن سّبك آلهتنا ، أو لنهجونّ ربك ، فنهاهم الله أن يسّبوا أوثانهم . وقال قتادة : كان المسلمون يسبون أصنام الكفّار ، فيسبّ الكفار الله ﷻ عدوًا بغير علم ، فأنـزل الله هذه الآية [2] .

وانظر - رحمك الله - إلى ما قاله القرطبي : قال العلماء : حكمها باق في هذه الأمة على كل حال ، فمتى كان الكافر في منعة وخيف أن يسبّ الإسلام أو النبي ، ﷺ أو الله ﷻ فلا يحلّ لمسلم أن يسبّ صلبانهم ، ولا دينهم ، ولا كنائسهم ، ولا يتعرّض إلى ما يُؤدي إلى ذلك ، لأنه بمنـزلة البعث على المعصية [3] .

وقال ابن الغرس : إنه متى خيف من سبّ الكفّار وأصنامهم أن يسّبوا الله أو رسوله أو القرآن ، لم يجز أن يسبوا ولا دينهم ، وهي أصل في قاعدة سدّ الذرائع [4] .

وبعد هذا التأصيل لمدلول هذه الآية ، أذكر بعض ما قيل حولها فيما يتعلّق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال السيوطي : وقد يستدلّ بها على سقوط وجوب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إذا خيف من ذلك مفسدة أقوى ، وكذا كل فعل مطلوب ترّتب على فعله مفسدة أقوى من مفسدة تركه [5] .

وفصّل بعض العلماء في المسألة ، ومن هؤلاء الحاكم ، حيث قال : والذي يجب علينا بيان بغضها ، وأنه لا تجوز عبادتها ، وأنها لا تضرّ ولا تنفع ، وأنّها لا تستحقّ العبادة ، وهذا ليس بسبّ ، ولهذا قال أمير المؤمنين يوم صفين : لا تسبوهم ، ولكن اذكروا قبيح أفعالهم [6] .

---

[1] سورة الأنعام آية : ١٠٨ .
[2] انظر : القولين في تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٤) .
[3] انظر : تفسير القرطبي (٧/ ٦١) .
[4] انظر : تفسير القاسمي (٦/ ٢٤٦٣) .
[5] انظر : تفسير القاسمي (٦/ ٢٤٦٣) .
[6] انظر : تفسير القاسمي (٦/ ٢٤٦٣) .

وقال الرازي : وفي الآية تأديب لمن يدعو إلى الدّين ، لئلا يتشاغل بما لا فائدة له في المطلوب ، لأن وصف الجمادات بأنا لا تضرّ ولا تنفع ، يكفي في القدح في إلاهيتها ، فلا حاجة مع ذلك إلى شتمها [1] .

وأختم هذا الكلام النفيس حول الآية ، بما قاله الزمخشري : قال : فإن قلتَ : سبّ الآلهة حق وطاعة ، فكيف صحّ النّهي عنه ؟ وإنما يصحّ النّهي عن المعاصي ؟

قلت : رُب طاعة علم أنا تكون مفسدة ، فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهي عنها لأنا معصية ، لا لأنا طاعة كالنهي عن المنكر ، وهو من أجلّ الطّاعات ، فإذا علم أنّه يؤدي إلى زيادة الشرّ انقلب معصية ، ووجب النّهي عن ذلك ، كما يجب النّهي عن المنكر [2] .

ومما سبق يتّضح أن القرآن الكريم قد وضع قاعدة في رسم منهج الوسطية ، وأنّ الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا ، وكذلك فمن الحق النظر إلى مآلات الأمور دون الوقوف عند ظواهرها فقط .

(ب) ونقف وقفة أخرى يتضح فيها أنّ الوسطية في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر مسألة نسبّية تختلف باختلاف ملابساتا والظروف المحيطة با .

فإن هناك من يرى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يجب أن يكون دائمًا باللّين ، وخفض الجانب ، ويستدلّ بقوله - تعالى - : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤ ﴾ [3] (طـه : ٤٣ ، ٤٤) ، ووجه استدلاله من الآية : أن فرعون قد بلغ من العتوّ والطغيان والكبر ما لم يبلغه أحد من البشر ، حيث ادّعى الألوهية ، ومع ذلك يأمر الله بالإنة القول له ، والرّفق معه . فإذا كان ذلك مع فرعون ، فإن من هو دونه بالجرم والإثم أولى منه بالرّفق واللّين .

---

[1] انظر : تفسير الرازي ، وتفسير القاسمي (٦/ ٢٤٦٣) .
[2] انظر : الكشاف ، وتفسير القاسمي (٦/ ٢٤٦٣) .
[3] سورة طه آية : ٤٣ ، ٤٤ .

وآخرون يرون وجوب الشدّة والإغلاظ في القول مطلقًا ، ويستدلّون بقوله - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ [1] (التوبة : من الآية ٧٣) . وقوله سبحانه : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةًۚ ﴾ [2] (التوبة : من الآية ١٢٣) . وقول موسى لفرعون : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [3] (الإسراء : من الآية ١٠٢) . فيقولون : إن هذه الآيات تدل على وجوب الإغلاظ والشدة مع هؤلاء ، وأن اللين يكون مع المؤمنين ، لقوله - تعالى - : ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [4] (الحجر : من الآية ٨٨) ، وأمثالها .

والحق أن هذه الآيات هي التي تؤكد صحة ما قلته من أن الوسطية مسألة نسبية ، تختلف باختلاف ما يحفّ بها من قرائن وأحوال ، يجب اعتبارها في مثل هذه المسائل .

والقول الأمثل أنّه يجب النظر في مجموع الأدلة ، وعدم الاقتصار على بعضها دون الآخر ، فضلا عن ضرب بعضها ببعض - كما يفعل أصحاب الأهواء - .

وهذا المسلك - مسلك النظر في جميع الأدلة - سيؤدي إلى إعمال كل دليل في موضعه ، دون إهمال الدليل الآخر أو الغفلة عنه .

ولننظر - الآن - فيما ذكرته من أدلّة كل من الفريقين ، فنجد أن أمر الله لموسى وهارون ، عليهما السلام ، باستعمال الرفق مع فرعون ، كان في أول رسالة موسى ، عليه السلام ، كما يدلّ عليه سياق الآيات في سورة طه ، ولذلك جاء الأمر معلّلا برجاء إسلامه وانقياده ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [5] (طـه : ٤٤) .

قال ابن كثير - بعد أن ذكر أقوال المفسرين في القول اللين - : والحاصل من أقوالهم

---

[1] سورة التوبة آية : ٧٣ .
[2] سورة التوبة آية : ١٢٣ .
[3] سورة الإسراء آية : ١٠٢ .
[4] سورة الحجر آية : ٨٨ .
[5] سورة طه آية : ٤٤ .

إن دعوتما له تكون بكلام رقيق ليّن سهل رفيق ، ليكون أوقع في النفوس ، وأبلغ وأنجع ، كما قال - تعالى - : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [(١)] (النحل : من الآية ١٢٥) .

قال الحسن البصري : ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [(٢)] (طـه : من الآية ٤٤) يقول : لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعذر إليه [(٣)] .

وقال القاسمي : وظاهر أن الرجاء في (لعله) إنما هو منهما لا من الله ، فإنّه لا يصحّ منه ، ولذا قال القاضي : أي باشرا الأمر على رجائكما وطمعكما ، أنه يثمر ولا يخيب سعيكما ، فإن الراجي مجتهد ، والآيس متكلّف .

والفائدة في إرسالهما ، والمبالغة عليهما في الاجتهاد - مع علمه بأنه لا يؤمن - إلزام الحجة ، وقطع المعذرة ، وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من آيات [(٤)] .

أمّا آية الإسراء فإنا جاءت في نهاية المطاف مع فرعون ، ولما لم تنفع جميع الآيات التي جاء با موسى ، عليه السلام ، وهي تسع آيات عظيمة ، فلم يكن بد من الإغلاظ له في القول ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [(٥)] (الإسراء : من الآية ١٠٢) . أي هالكًا ، فإن الثبور : الهلاك والخسران [(٦)] . والدليل على أن هذا الأمر كان في نهاية الأمر معه قوله - تعالى - بعد هذه الآية : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [(٧)] (الإسراء : ١٠٣) .

---

(١) سورة النحل آية : ١٢٥ .
(٢) سورة طه آية : ٤٤ .
(٣) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٣) .
(٤) انظر : تفسير القاسمي (١١/ ٤١٨٢) .
(٥) سورة الإسراء آية : ١٠٢ .
(٦) انظر : تفسير القرطبي (١٠/ ٣٣٧) .
(٧) سورة الإسراء آية : ١٠٣ .

أمّا قوله - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [1] (التوبة : من الآية ٧٣) . وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ ﴾ [2] (التوبة : من الآية ١٢٣) . فإن هذا كان - أيضًا - في آخر العهد النبوي ، حيث إن سورة التوبة من آخر ما نـزل من القرآن ، وكذلك سورة التّحريم متأخرة .

ومعنى هذا أنّ الرسول ، ﷺ قد خاطب المشركين قبل ذلك ، ودعاهم إلى الله باللين ، واستخدم معهم جميع وسائل الرفق ، حتى لم يعد يُجدي معهم إلا السّيف والغلظة .

وكذلك المنافقون ، لم تجد معهم وسائل المهادنة والوعظ ، والرفق واللين ، فكان لا بدّ من الإغلاظ لهم بالقول ، كالإغلاظ للكفّار بالسّيف .

وخلاصة القول : إن اللين والإغلاظ ، أمران مشروعان ، لا يجوز الاقتصار على أحدهما دون الآخر في كل الأحوال ، وإنما الحق هو استخدام كل واحد منهما في موضعه . كما قال الشاعر : إن اللين والإغلاظ ، أمران مشروعان ، لا يجوز الاقتصار على أحدهما دون الآخر في كل الأحوال ، وإنما الحق هو استخدام كل واحد منهما في موضعه . كما قال الشاعر :

مُضــر كوضع السيف في موضع الندى   ووضــع الندى في موضع السيف بالعلا

(ج) وأخيرًا نأتي لكلمة الفصل في هذه القضية : إذا كانت الوسطية في هذا الباب تختلف باختلاف الحال والمحلّ ، والزّمان والمكان ، فما هو الضّابط لذلك ؟

والجواب حسمه القرآن الكريم في آية واحدة ، حيث قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [3] (النحل : من الآية ١٢٥) .

---

[1] سورة التوبة آية : ٧٣ .
[2] سورة التوبة آية : ١٢٣ .
[3] سورة النحل آية : ١٢٥ .

فالحكمة هي الضّابط ، والفيصل في ذلك ، فحيث كانت الحكمة كانت الوسطية ، وحيث فقدت فإن هناك انحرافًا إلى ذات اليمين أو ذات الشمال .

ولعلّ من المناسب أن أختم هذا المبحث بتعريف الحكمة كما عرفها العلماء .

قال إبراهيم النخعي : الحكمة : الفهم . وقال زيد بن أسلم : الحكمة : العقل . وقال مالك : وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله ، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله [(١)] .

وقال عبد الرحمن بن سعدي : الحكمة : هي العلوم النّافعة ، والمعارف الصّائبة ، والعقول المسدّدة ، والألباب الرّزينة ، وإصابة الصّواب في الأقوال والأفعال .

ثم قال : وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة ، التي هي : وضع الأشياء مواضعها ، وتنـزيل الأمور منازلها ، والإقدام في محل الإقدام ، والإحجام في موضع الإحجام [(٢)] .

وقال ابن عاشور : وفسّرت الحكمة بأنا معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه ، بما تبلغه الطاقة ، أي : بحيث لا تلتبس الحقائق المتشابهة بعضها مع بعض ، ولا يغلط في العلل والأسباب [(٣)] .

وقال سيد قطب : الحكمة : القصد والاعتدال ، وإدراك العلل والغايات ، والبصيرة المستنيرة التي تديه للصّالح الصائب من الحركات والأعمال [(٤)] .

وجماع الحكمة في قول ابن القيم : فعل ما ينبغي ، على الوجه الذي ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي [(٥)] .

وبعد : فإن منهج القرآن في تقرير الوسطية في باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الله واضح جليّ ، زادته هذه الأدلة بيأنا وتفصيلا .

---

(١) انظر : هذه الأقوال الثلاثة - في تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٢ . ورسالة الحكمة للمؤلف ص (١٧) .

(٢) انظر : تفسير ابن سعدي (١/ ٣٣٢) .

(٣) انظر : التحرير والتنوير (٣/ ٦١) .

(٤) انظر : في ظلال القرآن (١/ ٣١٢) .

(٥) انظر : مدارج السالكين (٢/ ٤٧٩) ، وانظر : لكل ما سبق رسالة الحكمة للمؤلف ص (١٦) وما بعدها .

وهذا الباب من أهمّ الأبواب - العملية - التي يجب أن يتحرّى فيها الدعاة وطلاب العلم منهج القرآن ، ويلتزموا به ، حتى لا تزل العقول والأقدام ، فيقعوا في الغلو والإفراط ، نتيجة الحماس غير المنضبط ، أو يقعوا في التّفريط والتّهاون استجابة لرغبات النفس وشهواتا . وهذا الباب من أهمّ الأبواب - العملية - التي يجب أن يتحرّى فيها الدعاة وطلاب العلم منهج القرآن ، ويلتزموا به ، حتى لا تزل العقول والأقدام ، فيقعوا في الغلو والإفراط ، نتيجة الحماس غير المنضبط ، أو يقعوا في التّفريط والتّهاون استجابة لرغبات النفس وشهواتا .

كـلا طـرفي قصـد الأمـور ذمـيم ولا تغـل في شـيء من الأمر واقتصد

سادسا منهج الوسطية في الجهاد في سبيل الله

الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام [(١)] وهو ماضٍ إلى أن تقوم السّاعة [(٢)] .

ولا عزّة للأمة ولا فخر ولا سؤدد إلا بإقامة هذا الركن العظيم .

وما تركت أمة الجهاد في سبيل الله إلا ذلّت وضعفت ، وهانت على الله ومن ثمّ على خلقه .

ولقد انقسم الناس - قديمًا وحديثًا - في موضوع الجهاد في سبيل الله إلى ثلاث طوائف :

١- **فطائفة يغلب عليها** الحماس ، والاندفاع ، والإقدام ، ومن حرصها على ذلك أفرطت في موضوع الجهاد ، ولذلك وقعت في مزالق كبيرة ، وكان لهذا الأمر من السّلبيات ما لا يخفى .

٢- **وطائفة** في **مقابل هذه الطّائفة ،** فرّطت في الجهاد في سبيل الله ، وتسعى دائمًا لإضاعة وإماتة هذا الرّكن العظيم ، وإذا دعا داعي الجهاد ، انتفضت خوفًا وفرقًا وذعُرًا ، وذهبت تلتمس الأعذار للتخلّف والقعود .

٣- **أمّا الطائفة الثالثة** فهي التي توسّطت بين الطّائفتين ، فأحّبت الجهاد ، ورغبت فيه ، وسعت إليه ، ولكن ذلك لم يدفعهم لأن يستعجلوا الشيء قبل أوانه ، ولذلك التزموا بالضّوابط الشّرعية في الإعداد للجهاد ، وإعلانه ، والاستمرار فيه .

وكذلك إذا دعا داعي الجهاد ، لم يقعدوا مع القاعدين ، ولم يثّبطوا مع المثّبطين ، بل

---

(١) ورد ذلك في حديث أخرجه الترمذي (٥/ ١٣) رقم (٢٦١٦) ، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤) رقم (٣٩٧٣) ، قال الترمذي : حسن صحيح .

(٢) ترجم البخاري في الصحيح باب " الجهاد ماضٍ مع البر والفاجر " . وذكر قوله ، " الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة " . وقد روى أبو داود (٣/ ١٨) : عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ، " ثلاثة من أصل الإيمان " وذكر منها : " والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال ، ولا يبطله جور جائر ولا عدل عادل " . حديث رقم (٢٥٣٢) وفي إسناده يزيد بن أبي نُشْبة السلمي : مجهول من الخامسة . انظر : التقريب ص (٦٠٥).

سارعوا إلى إجابة المنادي غير خائفين أو وجلين .

ولقد جاء القرآن يبيّن خطأ الطائفتين ، الأولى والثانية : الغالية والجافية ، المفْرِطة والمفرّطة ، ومن ثمّ يرسم المنهج الحقّ ، منهج الطّائفة الوسط ، مؤكدًا على خطورة الإفراط والتّفريط ، داعيًا إلى الجهاد في سبيل الله ، إذا توافرت أسبابه ودواعيه ، وتحقّقت شروطه وضوابطه . وسأبيّن أسلوب القرآن في إقرار المنهج الحق ، والدّلالة إلى الصّراط المستقيم .

ولنقف مع تشخيص القرآن للطّائفة الأولى :

قال الله - تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾ [1] (البقرة : ٢٤٦) .

هذه الآية خلّد الله فيها قصة من قصص بني إسرائيل ، التي انحرفوا فيها عن السبيل القويم ، والطّريق المستقيم .

ها نحن نرى الحماس والاندفاع للجهاد في سبيل الله ، ويطالبون نبيهم ، عليه السلام ، بإعلان الجهاد واختيار قائد يقودهم إليه .

ويأتي نبيّهم ، ويسألهم سؤالا يحمل الحقيقة : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ ﴾ [2] (البقرة : من الآية ٢٤٦) ؟ وهنا يأتي الجواب الذي يردّده المتحمّسون دائمًا : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ ﴾ [3] (البقرة : من الآية ٢٤٦) ، وكيف كانت النتيجة : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ

(1) سورة البقرة آية : ٢٤٦ .
(2) سورة البقرة آية : ٢٤٦ .
(3) سورة البقرة آية : ٢٤٦ .

﴿عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ [1] (البقرة : من الآية ٢٤٦) .

وفي ثنايا القصّة وتفاصيلها نعايش مشاهد تبخّر هذه الدّعوى والحماس ، وأول ذلك :

﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ﴾ [2] (البقرة : من الآية ٢٤٧) .

وتبدأ رحلة الجهاد ، ويبدأ معها تحقق ما قاله نبيهم في خوفه من عدم صدقهم وثباتم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾ [3] (البقرة : من الآية ٢٤٩) . والنتيجة ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ [4] (البقرة : من الآية ٢٤٩) . وبعد ذلك تقول فئة من البقية الباقية : ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ [5] (البقرة : من الآية ٢٤٩) .

وأخيرًا لا يثبت إلا فئة أقل من القليل ، ولعل هذه الفئة التي قتلت جالوت ، وانتصرت بعد ثباتا لم تكن من أولئك المتحمسين المندفعين ، الذين كانوا أول الهاربين والمتخاذلين .

قال القرطبي في قوله - تعالى - : ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ [6] (البقرة : من الآية ٢٤٦) . أخبر - تعالى - أنه لما فرض عليهم القتال ورأوا الحقيقة ، ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب ، وأن نفوسهم ربما قد تذهب ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ [7] (البقرة : من الآية ٢٤٦) أي اضطربت نياتم وفترت عزائمهم ، وهذا شأن الأمم الممتنعة ، المائلة إلى الدعة ، تتمنى الحرب أوقات الأنفة ، فإذا حضرت الحرب كعت وانقادت لطبعها .

---

[1] سورة البقرة آية : ٢٤٦ .
[2] سورة البقرة آية : ٢٤٧ .
[3] سورة البقرة آية : ٢٤٩ .
[4] سورة البقرة آية : ٢٤٩ .
[5] سورة البقرة آية : ٢٤٩ .
[6] سورة البقرة آية : ٢٤٦ .
[7] سورة البقرة آية : ٢٤٦ .

وعن هذا المعنى نهى النبي ، ﷺ بقوله : ﴿ لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا ﴾ [1] [2] رواه الأئمة .

ثم أخبر الله عن قليل منهم أنهم ثبتوا على النية الأولى ، واستمرت عزيمتهم على القتال في سبيل الله - تعالى - [3] .

وقال ابن عباس : شربوا على قدر يقينهم ، فشرب الكفار شرب الهيم ، وشرب العاصون دون ذلك ، وانصرف من القوم ستة وسبعون ألفًا - قيل كان عددهم ثمانين ألفًا - وبقي بعض المؤمنين لم يشرب شيئًا ، وأخذ بعضهم الغرفة .

وقال ابن عباس والسدي : جاز معه في النهر أربعة آلاف رجل ، فيهم من شرب ، فلما نظروا إلى جالوت وجنوده ، رجع منهم ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون [4] .

وهذا نموذج آخر من نماذج المتحمسين للقتال ، الذي أفرطوا في طلبه والسعي إليه ، فلما تحقق لهم ذلك خالفت أفعالهم أقوالهم .

وإذا كان المثل الأول كان في بني إسرائيل ، فإن هذا المثل في أمة محمد ، ﷺ وهذا يؤكد حقيقة مهمة أن ذلك النموذج يتكرر في كل عصر وحين ، وها نحن نراه ماثلا أمام أعيننا في زمننا الحاضر .

والحماس هو الحماس ، والنهاية هي النهاية ، وها هي الآيات تذكر البداية والنهاية :

قال - سبحانه - : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ

---

[1] البخاري الجهاد والسير (٢٨٠٤) ، مسلم الجهاد والسير (١٧٤٢) ، أبو داود الجهاد (٢٦٣١) .

[2] أخرجه البخاري (٤/ ٩ ، ٢٤) ومسلم (٣/ ١٣٦٢) رقم (١٧٤٢) .

[3] انظر : تفسير القرطبي (٣/ ٢٤٤) .

[4] انظر : تفسير القرطبي (٣/ ٢٥٤) . وبالنسبة لعددهم ومقدار من رجع منهم من أخبار بني إسرائيل والمهم أن الأكثر هم الذين رجعوا .

ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾[1] (النساء : ٧٧) .

قال الطبري : ذكر أن هذه الآية نـزلت في قوم من أصحاب رسول الله ، ﷺ كانوا قد آمنوا به ، وصدقوه قبل أن يفرض عليهم الجهاد ، وقد فرض عليهم الصلاة والزكاة ، وكانوا يسألون الله أن يفرض عليهم القتال ، فلما فرض عليهم القتال شق عليهم ذلك ، وقالوا ما أخبر الله عنهم في كتابه .

روى الطبري بسنده عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبي ، ﷺ فقالوا : يا رسول الله كنا في عز ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ، فقال : ﴿ إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا فلما حوله الله إلى المدينة أُمر بالقتال فكفوا ، فأنـزل الله - تبارك وتعالى - : أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ [2] . الآية [3] .

ولننظر فيما قاله سيد قطب في هذه الآية حيث يشخص الحقيقة في أدق تصوير ، قال :

يعجب الله - سبحانه - من أمر هؤلاء الناس الذين كانوا يتدافعون حماسة إلى القتال ، ويستعجلونه ، وهم في مكة يتلقون الأذى والاضطهاد والفتنة من المشركين ، حين لم يكن مأذونًا لهم في القتال للحكمة التي يريدها الله .

فلما أن جاء الوقت المناسب الذي قدره الله ، وتيأت الظروف المناسبة ، وكتب عليهم القتال - في سبيل الله - إذا فريق منهم شديد الجزع ، شديد الفزع ، حتى ليخش الذين أمروا بقتالهم - وهم ناس من البشر- كخشية الله ، القهار الجبار ، أو أشد خشية ،

---

[1] سورة النساء آية : ٧٧ .

[2] النسائي الجهاد (٣٠٨٦) .

[3] انظر : تفسير الطبري (٥/ ١٧٠) . والحديث أخرجه النسائي (٦/ ٣) رقم (٣٠٨٦) . والبيهقي في السنن (٩/ ١١) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٠٧) ، وقال : صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي - وانظر : الدر المنثور (٢/ ٣٢٨) .

وإذا هم يقولون في - حسرة وخوف وجزع - : ﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ﴾ [1] (النساء : من الآية ٧٧) .

إن أشدّ الناس حماسة واندفاعًا وتورًا ، قد يكونون هم أشدّ الناس جزعًا ، وانيارًا وهزيمة ، عندما يجدّ الجدّ ، وتقع الواقعة ، بل إن هذه قد تكون القاعدة ، ذلك أن الاندفاع والتهوّر والحماسة الفائقة - غالبًا ما تكون منبعثة من عدم التقدير لحقيقة التّكاليف ، لا عن شجاعة واحتمال وإصرار ، كما أنا قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال ، قلة احتمال الأذى ، والضّيق والهزيمة ، فتدفعهم قلة الاحتمال إلى طلب الحركة ، والدفع والانتصار بأي شكل دون تقدير لتكاليف الحركة ، والدفع والانتصار ، حتى إذا ووجهوا بذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا ، وأشقّ مما تصوّروا ، فكانوا أول الصف جزعًا ونكولا وانيارًا ، على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم ، ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت ، ويعدّون للأمر عدته ، والمتهورون المندفعون المتحمسون يحسبونم إذ ذاك ضعافًا ، ولا يعجبهم تمهلهم ، ووزنم للأمور ، وفي المعركة يتبين أي الفريقين أكثر احتمالا ، وأي الفريقين - كان - أبعد نظرًا كذلك [2] .

إنا الحقيقة التي عبّر عنها سيد - رحمه الله - ، تلك الحقيقة التي لا يدركها إلا من عاشها ، وذاق مرارة هذا اللون من الاندفاع والحماس ، مما نراه ماثلا أمام أعيننا في صنف من الناس ، لا يقدرون عواقب الأمور ، ويثورون لأقل الأسباب ، غافلين عن السنن الربانية ، والأحكام الشرعية ، والقدرات البشرية ، متصورين أن طيبتهم وحسن نيتهم ، ومقصدهم تكفي سببًا لانتصارهم .

وكما جاءت آية النساء ، فقد جاءت آية الصف ، تعالج القضية نفسها ، وتبين الحقيقة ذاتا : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن

---

[1] سورة النساء آية : ٧٧ .

[2] انظر : في ظلال القرآن (٢/ ٧١٢) .

تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [1] (الصف : ٢ ، ٣) .

قال ابن كثير : وحملوا الآية - أي الجمهور - على أنها نـزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم ، فلما فرض نكل بعضهم ، كقوله - تعالى - : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ ﴾ [2] (النساء : من الآية ٧٧) الآية ، وهكذا هذه الآية معناها ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [3] (الصف : ٢) . قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد **يقولون :** لوددنا أن الله ﷻ دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لاشك فيه ، وجهاد أهل معصية الذين خالفوا الإيمان ، ولم يقروا به ، فلما نـزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمر الله ، فقال الله - سبحانه - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [4] (الصف : ٢) [5] .

هذه حقيقة الاندفاع والحماس ، عندما لا ينضبط بالضوابط الشرعية ولا السنن الربانية . إنه انحراف عن المنهج الحق ، انحراف يمثل الغلو والإفراط ، ومن ثم فهو خروج عن المنهج الوسط ، المنهج الذي لا يلغي الاعتبارات المتعددة قبل اتخاذ القرار الحاسم ، لخطورة هذه القضية وآثارها بعد ذلك .

ولعل في هذه الآيات عظة وذكرى لأولئك المغالين ، وعبرة لهؤلاء المتعجلين المندفعين .

إن المنهج الذي يسلكه أولئك لا يؤدي إلى الأهداف التي شرع من أجلها الجهاد ، بل

---

(1) سورة الصف آية : ٢ ، ٣ .
(2) سورة النساء آية : ٧٧ .
(3) سورة الصف آية : ٢ .
(4) سورة الصف آية : ٢ .
(5) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥٧) .

قد يكون سببًا لتعطيل الجهاد ، أو تأخيره سنوات وسنوات ، ومن استعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه .

وكما جاءت الآيات تعالج قضية الإفراط والغلو ، فقد جاءت تعالج قضية التفريط والتضييع .

فإذا كان أولئك المتحمسون والمندفعون قد خالفوا الصراط المستقيم في قضية مشروعية الجهاد ، فإن المثبطين والقاعدين يمثلون الوجه الآخر للانحراف والضلال . وقد جاءت الآيات تلو الآيات تبين خطورة هذه الفئة ، وما تحدثه من خلل وانحراف .

قال - سبحانه - : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [1] (التوبة : ٨١) . ثم يبين الله خطورة ما صنع هؤلاء ، يتضح ذلك . من العقوبة القاسية التي أمر الله رسوله ، ﷺ أن يعاقب بها هؤلاء جزاء ما صنعوا :

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [2] (التوبة : ٨٣ ، ٨٤) .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [3] (التوبة : ٨٦) .

وقال - جل وعلا - مبينًا خطورة القعود عن سبيل الله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ

---

(١) سورة التوبة آية : ٨١ .

(٢) سورة التوبة آية : ٨٣ ، ٨٤ .

(٣) سورة التوبة آية : ٨٦ .

وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1] (التوبة : ٢٤) .

وقال - جل وعلا - مهددًا ومتوعدًا القاعدين عن الجهاد في سبيل الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [2] (التوبة : ٣٨ ، ٣٩) .

وقال : ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [3] (التوبة : ٤٤ ، ٤٥) .

وقال : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [4] (التوبة : ٤٩) .

وقال - جل ذكره - مصورًا حالة أولئك الذين لا يريدون الجهاد : ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ ﴾ [5] (محمد : من الآية ٢٠) .

---

(١) سورة التوبة آية : ٢٤ .
(٢) سورة التوبة آية : ٣٨ ، ٣٩ .
(٣) سورة التوبة آية : ٤٤ ، ٤٥ .
(٤) سورة التوبة آية : ٤٩ .
(٥) سورة محمد آية : ٢٠ .

إلى غير ذلك من الآيات التي تبيّن خطورة هذا المسلك وسوء عاقبة أصحابه في الدنيا والآخرة [(١)] .

ونقف مع تفسير هذه الآيات ، وما قيل في معناها ، مع الاقتصار على ما تدعو الحاجة إليه : قال الطبري في معنى قوله - تعالى - : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [(٢)] (التوبة : من الآية ٨١) فرح الذين خلفهم الله مع الغزو مع رسوله والمؤمنين ، وجهاد أعدائه بمقعدهم ﴿ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [(٣)] (التوبة : من الآية ٨١) يقول : بجلوسهم في منازلهم خلاف رسول الله ، يقول : على الخلاف لرسول الله في جلوسه ومقعده وذلك أن رسول الله ، ﷺ أمرهم بالنفر إلى جهاد أعداء الله ، فخالفوا أمره ، وجلسوا في منازلهم [(٤)] .

وقال ابن كثير في قوله - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [(٥)] (التوبة : من الآية ٣٨) الآية . هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ، ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدّة الحرّ وحمارة القيظ [(٦)] .

وقال في قولـه - تعالى - : ﴿ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٨٦ ﴾ [(٧)] (التوبة : من الآية ٨٦) .

يقول - تعالى - منكرًا وذامًا للمتخلفين عن الجهاد ، الناكلين عنه ، مع القدرة عليه

---

(١) تعتبر سورة التوبة السورة التي فضحت المتخلفين عن الجهاد وبينت سوء مصيرهم وحكم الله فيهم .

(٢) سورة التوبة آية : ٨١ .

(٣) سورة التوبة آية : ٨١ .

(٤) انظر : تفسير الطبري (١٠/ ٢٠٠) .

(٥) سورة التوبة آية : ٣٨ .

(٦) انظر : تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٧) .

(٧) سورة التوبة آية : ٨٦ .

ووجود السعة والطول . واستأذنوا الرسول ، ﷺ في القعود ، وقالوا : ﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾ [1] (التوبة : من الآية ٨٦) ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء ، وهن الخوالف بعد خروج الجيش ، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس ، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلامًا ، كما قال - تعالى - عنهم في الآية الأخرى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [2] (الأحزاب : من الآية ١٩) [3] .

وقال رشيد رضا في قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ [4] (التوبة : من الآية ٤٥) الآية : والمعنى : إنما يستأذنك بالتخلف عن الجهاد الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، لأنم يرون بذل المال للجهاد مغرمًا يفوت عليهم بعض منافعهم به ، ولا يرجون عليه ثوابًا كما يرجو المؤمنون .

ويرون الجهاد بالنفسي آلامًا ومتاعب ، وتعرضًا للقتل الذي ليس بعده حياة عندهم ، فطبيعة كفرهم بالله واليوم الآخر تقتضي كراهتهم للجهاد ، وفرارهم منه ما وجدوا له سبيلا [5] .

وقال سيد قطب في قوله - تعالى - : ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [6] (التوبة : من الآية ٣٩) .

والخطاب لقوم معينين في موقف معين ، ولكنه عام في مدلوله ، لكل ذي عقيدة في

---

(١) سورة التوبة آية : ٨٦ .
(٢) سورة الأحزاب آية : ١٩ .
(٣) انظر : تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٠) .
(٤) سورة التوبة آية : ٤٥ .
(٥) انظر : تفسير المنار (١٠/ ٤٦٩) .
(٦) سورة التوبة آية : ٣٩ .

الله ، والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده ، فهو كذلك عذاب الدنيا ، عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح ، والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات ، واستغلالها للمعادين ، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد ، ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء .

وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل ، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء .

﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ [1] (التوبة : من الآية ٣٩) . يقومون على العقيدة ، ويؤدون ثمن العزة ، ويستعلون على أعداء الله [2] .

هذه بعض الآيات التي جاءت تبين انحراف المثبطين عن الجهاد ، القاعدين عنه ، الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ [3] (الأحزاب : ١٨) .

والنتيجة التي نخلص منها بعد بيان طرفي الانحراف ، سواء الذين أفرطوا وغلوا ، أم الذين فرطوا وجفوا ، تلكم النتيجة هي أن هناك منهجًا وسطًا لا إفراط فيه ولا تفريط .

وذلكم أن الجهاد ذروة سنام الإسلام وركن من أركانه ، وهو ماض إلى أن يأتي أمر الله ، وما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ذّلوا ، وضعفوا ، وسلط الله عليهم عدّوهم . والجهاد له شروطه وضوابطه ، وأسبابه وموانعه ، فإذا توافرت الأسباب وانتفت الموانع ، وتحقّقت الشروط وجب أن يُنادي المنادي حيّ على الجهاد ، ووجب على القادرين أن يستجيبوا للنداء ، فرض عين أو فرض كفاية .

---

(١) سورة التوبة آية : ٣٩ .
(٢) انظر : في ظلال القرآن (٣/ ١٦٥٥) .
(٣) سورة الأحزاب آية : ١٨ .

وهذا هو المنهج الوسط الذي جاءت الآيات الكثيرة تدعو إليه وتأمر به وتحث عليه ، وجاءت السنة شارحة ومبّينة ، ومفصّلة لأحكام الجهاد ، كما جاءت مبينة أحكام السَلم والموادعة والمعاهدات .

وقد عني العلماء - قديمًا وحديثًا - في بيان هذه القضية ، وأشبعوها بحثًا وتفصيلا ، وهم بذلك لم يدعوا مجالا لانحراف منحرف بدعوى الجهل وعدم الوضوح .

وأخيرًا أختم هذا المبحث بذكر بعض الآيات التي تدعو إلى الجهاد ، وتثني على المجاهدين ، أولئك الذين لا يتأخرون لحظة إذا دعا داعي الجهاد ، وهم كذلك يستجيبون لداعي السلم والموادعة إذا جاء وقتها ، وتوافرت أسباب السلم ودواعيه .

قال - سبحانه - : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [1] (التوبة : ٤١) . وقال مبينًا صفة المؤمنين إذا دعا داعي الجهاد ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [2] (التوبة : ٤٤) .

وقال - سبحانه - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ ﴾ [3] (الأنفال : من الآية ٦٥) . وقال : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [4] (النساء : من الآية ٧٥) .

وهذه بعض الآيات التي تأمر بالقتال :

﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ ﴾ [5] (التوبة : من الآية ٣٦)

---

(١) سورة التوبة آية : ٤١ .

(٢) سورة التوبة آية : ٤٤ .

(٣) سورة الأنفال آية : ٦٥ .

(٤) سورة النساء آية : ٧٥ .

(٥) سورة التوبة آية : ٣٦ .

﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ [1] (التوبة : من الآية ١٢) . ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [2] (التوبة : من الآية ٢٩) . ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [3] (البقرة : من الآية ١٩٣) . ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [4] (الأنفال : من الآية ٣٩) .

وقال مبينًا فضل المجاهدين في سبيل الله :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [5] (التوبة : ٢٠ ، ٢١) . ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [6] (آل عمران : ١٦٩) . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾﴾ [7] ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [8] (الصف : ١٠ ، ١١) .

---

(١) سورة التوبة آية : ١٢ .
(٢) سورة التوبة آية : ٢٩ .
(٣) سورة البقرة آية : ١٩٣ .
(٤) سورة الأنفال آية : ٣٩ .
(٥) سورة التوبة آية : ٢٠ ، ٢١ .
(٦) سورة آل عمران آية : ١٦٩ .
(٧) سورة الصف آية : ١٠ .
(٨) سورة الصف آية : ١١ .

وأختم هذه الآيات - آيات الجهاد - باتين الآيتين :

قال - سبحانه - في سورة النساء : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [1] (النساء : ٩٥) .

وقال ﷻ في سورة التوبة : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [2] (التوبة : ١١١) .

ومما يؤكد وسطية هذا المنهج استجابتهم لأمر الله بالدخول في السلم ، كاستجابتهم لأمره بالقتال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [3] (البقرة : ٢٠٨) . ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [4] (الأنفال : من الآية ٦١) ، ولكن السلم لا يعني الاستسلام والذل : ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾ [5] (محمد : ٣٥) .

---

[1] سورة النساء آية : ٩٥ .
[2] سورة التوبة آية : ١١١ .
[3] سورة البقرة آية : ٢٠٨ .
[4] سورة الأنفال آية : ٦١ .
[5] سورة محمد آية : ٣٥ .

سابعا منهج الوسطية في الأخلاق والمعاملة

سُئلت عائشة - رضي الله عنها - عن خلق رسول الله ، ﷺ فقالت : ﴿ كان خلقه القرآن ﴾ [(١)]

وقد أثنى الله على رسوله ، ﷺ فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [(٢)] (القلم : ٤) .

أما المعاملة فهي قرينة الأخلاق ، حيث إن معاملة المرء نتاج طبيعي لأخلاقه ، ولقد رسم القرآن المنهج السوي لما يجب أن تكون عليه أخلاق المسلم ومعاملاته .

وهذا الباب يسوده الغلو والجفاء ، ويندر فيه المنهج الوسط ، ولذلك فقد عني القرآن الكريم به عناية خاصة ، وجاءت الآيات تترى توضح هذا المنهج ، وتدعو إليه ، وتربي الأمة عليه ، وتحذر مما يضاده غلوًا أو جفاء ، إفراطًا أو تفريطًا .

ولطول الموضوع وتشعبه ، وكثرة الآيات الواردة فيه ، نظرًا لتعدد أجزائه ومنطلقاته ، فسأقتصر على اختيار نماذج متفرقة تبين عناية القرآن الكريم به ، في ضوء المنهج الذي سلكته في هذا البحث ، ومن الله استمد العون والتوفيق .

الكبر والطغيان خلق ذميم ، ذمه الله في أكثر من موضع في كتابه ، لما له من الآثار السلبية على الفرد والمتمع ، والكبر خروج عن المنهج الوسط إلى الإفراط والغلو وحب الذات . والتفريط في حق الآخرين .

قال - تعالى - مبينًا أثر الكبر على الإنسان ، وكيف أنه يؤدي إلى الحيلولة بينه وبين الإيمان . ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝ ﴾ [(٣)] (غافر : ٥٦) .

قال ابن كثير في تفسير الآيــة : ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ

[(١)] مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٤٦) ، النسائي قيام الليل وتطوع النهار (١٦٠١) .
[(٢)] سورة القلم آية : ٤ .
[(٣)] سورة غافر آية : ٥٦ .

﴿أَتَىٰهُمۡۖ﴾ [(١)] (غافـر : من الآية ٣٥) أي : يدفعون الحق بالباطل ، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة ، بلا برهان ولا حجة من الله ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ [(٢)] (غافر : من الآية ٥٦) أي : ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به [(٣)] .

وقال - تعالى - : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧﴾ [(٤)] (غافر : ٢٧) . وقال : ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ [(٥)] (غافر : من الآية ٣٥) . وقال : ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ [(٦)] (الزمر : من الآية ٦٠) وقال : ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾ [(٧)] (النحـل : من الآية ٢٩) .

وقال - سبحانه - : ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ [(٨)] (الإسراء : ٣٧) .

ومن وصايا لقمان لابنه كما ذكر الله ﷻ ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾ [(٩)] (لقمان : ١٨) .

---

(١) سورة غافر آية : ٣٥ .
(٢) سورة غافر آية : ٥٦ .
(٣) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٨٤) .
(٤) سورة غافر آية : ٢٧ .
(٥) سورة غافر آية : ٣٥ .
(٦) سورة الزمر آية : ٦٠ .
(٧) سورة النحل آية : ٢٩ .
(٨) سورة الإسراء آية : ٣٧ .
(٩) سورة لقمان آية : ١٨ .

قال ابن كثير في تفسيرها : قال ابن عباس : يقول لا تتكبر فتحتقر عباد الله ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلّموك [1] .

والآيات في ذم الكبر والنهي عنه ، وبيان عاقبة المتكبرين كثيرة جدًا .

ومن الآيات التي جاءت تنهي عن بعض الأخلاق الممقوتة ، قوله – تعالى - : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [2] (لقمان : ١٩) .

ونهى الله - سبحانه - عن كتمان الشهادة لما لها من آثار في إضاعة الحقوق وسوء المعاملة بين الناس ، فقال - جل وعلا - : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ ﴾ [3] (البقرة : من الآية ٢٨٣) .

ومن سوء أخلاق بني إسرائيل ما ذكره الله عنهم بقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [4] (البقرة : من الآية ٥٥) .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٦) .

(٢) سورة لقمان آية : ١٩ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٨٣ .

(٤) سورة البقرة آية : ٥٥ .

قال عبد الرحمن بن سعدي :

وهذه غاية الجرأة على الله وعلى رسوله [(١)] .

وقال ابن عاشور :

تذكير بنعمة أخرى نشأت بعد عقاب على جفا طبع [(٢)] .

ونقض العهد والميثاق خلق فاسد ومعاملة ممقوتة [(٣)] ولذلك جاء ذم الناكثين العهود الخائنين للمواثيق والعقود ، قال - سبحانه - : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [(٤)] (الرعد : ٢٥) . وقال : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ ﴾ [(٥)] (المائدة : من الآية ١٣) .

وفي مقابل الكبر نجد الذل والضعف والخور ، وبخاصة أمام أعداء الله ، فإنه خلق لا يرضاه الله - جل وعلا - ، فلذلك قال - سبحانه - : واصفًا المؤمنين بما هم عليه من خلق رفيع : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [(٦)] (المائدة : من الآية ٥٤) .

ومن هنا ، ودلالة على أن الذل مسبة وعار ، وليس خلقًا رفيعًا وسيرة محمودة ، بين الله أنه جعله عقوبة لمن عصاه ، وتكبر على رسله وهداه ، فقال - سبحانه - : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [(٧)] (البقرة : من الآية ٦١) .

---

(١) انظر : تفسير ابن سعدي (١/ ٨٦) .
(٢) انظر : التحرير والتنوير (٢/ ٥٠٤) .
(٣) انظر : تفصيل ذلك في رسالة المؤلف : العهد والميثاق في القرآن الكريم .
(٤) سورة الرعد آية : ٢٥ .
(٥) سورة المائدة آية : ١٣ .
(٦) سورة المائدة آية : ٥٤ .
(٧) سورة البقرة آية : ٦١ .

وقال : ﴿ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ ﴾ [1] (آل عمران : من الآية ١١٢) .

وقـــــال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٌ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ [2] (الأعراف : من الآية ١٥٢) .

قال سيد قطب مبينًا أثر الذل على هؤلاء اليهود ، إن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتم إفسادًا عميقًا .

وليس أشد إفسادًا للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل ، والذي يحطم فضائل النفس البشرية ، ويحلل مقوماتا ، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد ، استخذاء تحت سوط الجلاد ، وتمردا حين يرفع عنها السوط ، وتبطرًا حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة .

وهكذا كانت إسرائيل ، وهكذا هي في كل حين [3] .

وإذا كان هؤلاء قد ضرب الله عليهم الذلة في الحياة الدنيا ، فإن الذلة - أيضًا - جزاء هؤلاء وغيرهم ممن دُعي إلى عبادة الله فاستكبر وأبى ، قال - تعالى - : ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ۝٤٣ ﴾ [4] (القلم : ٤٣) .

وقال : ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٤٤ ﴾ [5] (المعارج : ٤٤) .

وقال - سبحانه - ممتنًا على عباده حيث أعزهم بعد الذلة والانكسار : ﴿ وَلَقَدۡ

---

[1] سورة آل عمران آية : ١١٢ .
[2] سورة الأعراف آية : ١٥٢ .
[3] انظر : في ظلال القرآن (١/ ٧٢) .
[4] سورة القلم آية : ٤٣ .
[5] سورة المعارج آية : ٤٤ .

﴿ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٍ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[1] (آل عمران : ١٢٣) .

وخلاصة الأمر : أن هذه الآيات تدل على أن تلك الأخلاق مما لا يقره الشرع لمخالفتها للمنهج الحق والطريق السوي ، ولذلك جاءت الآيات تبين ما يجب أن يكون عليه المسلم من خلق صادق وحسن في المعاملة ، بعيدًا عن الخلق الذميم سواء كان إفراطًا أو تفريطًا ، وهذه الآيات هي التي ترسم المنهج الوسط في الأخلاق والمعاملة .

قال - تعالى - مثنيًا على نبيه ، ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾[2] (القلم : ٤) .

وقال - جل وعلا - : ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾[3] (آل عمران : من الآية ١٥٩) .

وقال : ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[4] (الأعراف : ١٩٩) .

وقال : ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[5] (الشعراء : ٢١٥) .

وقال - جل وعلا - واصفًا عباده المؤمنين وما هم عليه من خلق رفيع ، ومعاملة حسنة : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾[6] (الفرقان : ٦٣) ثم قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ

[1] سورة آل عمران آية : ١٢٣ .
[2] سورة القلم آية : ٤ .
[3] سورة آل عمران آية : ١٥٩ .
[4] سورة الأعراف آية : ١٩٩ .
[5] سورة الشعراء آية : ٢١٥ .
[6] سورة الفرقان آية : ٦٣ .

مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [1] (الفرقان : ٧٢) وهذا قمة الخلق وحسن الطوية ، ولذلك قال في آيات أخرى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [2] (السجدة : ١٥) . أما غيرهم فكما أخبر الله عنهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [3] (الصافات : ٣٥) ، وفرق شاسع بين الخلقين .

وبما أمر الله به عباده ، تربية على الخلق الحسن ، ودفعًا لكيد الشيطان ونـزغه ما قاله - سبحانه - في سورة المؤمنون : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [4] (المؤمنون : ٩٦) .

وقال في سورة فصلت : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [5] (فصلت : ٣٤-٣٦) .

وكذلك أمر الله بالوفاء بالعهود والمواثيق والعقود ، وذلك من صميم المعاملة التي يجب أن تكون بين المسلمين ، بل حتى ولو كانت مع الكافرين ، فقال - جل وعلا - : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ ﴾ [6] (المائدة : من الآية ١) وقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ

---

(١) سورة الفرقان آية : ٧٢ .
(٢) سورة السجدة آية : ١٥ .
(٣) سورة الصافات آية : ٣٥ .
(٤) سورة المؤمنون آية : ٩٦ .
(٥) سورة فصلت آية : ٣٤ - ٣٦ .
(٦) سورة المائدة آية : ١ .

عَهۡدَهُمۡ﴾ (1) (التوبة : من الآية ٤) .

وقال : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾ (2) (الرعد : ١٩ ، ٢٠) . وقال : ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٩١﴾ (3) (النحل : ٩١) . وقال : ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولًا ۝٣٤﴾ (4) (الإسـراء : من الآية ٣٤) .

ومن الأخلاق التي أمر الله بها ، ما أمر به الزوج عندما يطلق زوجته طلاقًا رجعيًا ، حيث قال : ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ (5) (البقرة : من الآية ٢٣١) . ومثل ذلك الآية التي جاءت في سورة الطلاق : ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ (6) (الطلاق : من الآية ٢) .

وكذلك من العدل وحسن الخلق في المعاملة ما جاء بالأمر بالوفاء بالكيل ، قال سبحانه : ﴿وَأَوۡفُوا ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ (7) (الإسراء : من الآية ٣٥) وقال : ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي

---

(1) سورة التوبة آية : ٤ .
(2) سورة الرعد آية : ١٩ ، ٢٠ .
(3) سورة النحل آية : ٩١ .
(4) سورة الإسراء آية : ٣٤ .
(5) سورة البقرة آية : ٢٣١ .
(6) سورة الطلاق آية : ٢ .
(7) سورة الإسراء آية : ٣٥ .

ﭐلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ [1] (الأعراف : من الآية ٨٥) .

ولذلك شنع الله على أولئك الذين حادوا على المنهج الوسط في الكيل والميزان ، فقال : ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ ﴾ [2] (المطففين : ١- ٥) .

ومن الخلق التي أمر الله بها ما جاء في سورة المجادلة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ [3] (المجادلة : من الآية ١١) .

وإذا تأملنا سورة الحجرات وما فيها من أخلاق عالية أمر الله بها ، ونهى عن سيئ الأخلاق وأرذلها ، علمنا الجهد المبذول لتربية هذه الأمة على الأخلاق القويمة ، وتجنيبها ما وقعت فيه بعض الأمم السابقة من أرازل الأخلاق وسفسافها كأهل الكتاب عمومًا واليهود خصوصًا .

وتأمّل هاتين الآيتين لترى كيف يرسم القرآن الكريم منهج الوسطية .

قال - تعالى - في سورة القصص مخبرًا عما جرى بين موسى وشعيب [4] عليهما السلام : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [5] (القصص : ٢٧) .

---

(١) سورة الأعراف آية : ٨٥ .

(٢) سورة المطففين آية : ١ - ٥ .

(٣) سورة المجادلة آية : ١١ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي (١٣/ ٢٧٠) .

(٥) سورة القصص آية : ٢٧ .

وقال في سورة النساء : ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾ [1] (النساء : ١٤٨) .

وأختم هذا المبحث بهذه الوقفة المهمة :

لما أثنى الله على رسوله ، ﷺ لحسن خلقه ، فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [2] (القلم :

٤) قال بعد عدة آيات : ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [3] (القلم : ٩) .

قال ابن عباس :

لو ترخص لهم فيرخصون [4] .

والوقفة هنا : هناك من يتصور أن من لوازم حسن الخلق المداهنة والمصانعة .

بل تعجب إذا سمعت من يرى أن ذلك من أسس الدعوة وأساليبها .

وهذا خلل في الفهم ، وقصور في التصور ، وذلك أنه في السورة التي أثنى الله فيها على رسوله ، ﷺ لأخلاقه الرفيعة العظيمة ، نفى عنه المداهنة والمصانعة . ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [5] (القلم : ٩ ، ١٠) مع التنبيه إلى أن هناك فرقا بين المداهنة المحرمة ، والمدرارة المشروعة فليعلم ذلك [6] .

هذه بعض الأخلاق التي ذكرها الله في القرآن الكريم ، جاءت لتربي الأمة على الأخلاق الفاضلة ، والمعاملة المستقيمة دون تكبر وبطر وغمط لحقوق الناس ، أو ضعف وخور وذلة .

لقد اتصف اليهود بالكبر والتعالي والغطرسة حتى على أنبيائهم ، ورسلهم ، عليهم

---

(١) سورة النساء آية : ١٤٨ .

(٢) سورة القلم آية : ٤ .

(٣) سورة القلم آية : ٩ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٣) .

(٥) سورة القلم آية : ٩ ، ١٠ .

(٦) انظر : كتاب : القول البين الأظهر للراجحي ص (١١٥) فقد بين ذلك .

السلام ، بل على ربهم - جلا وعلا - : ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [(١)] (النساء : من الآية ١٥٣)

﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ [(٢)] (البقرة : من الآيات٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠) ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴾ [(٣)] (المائدة : من الآية ٢٤) .

واتصف النصارى بالذل والجبن ، حتى كان مما يتوارثونه . " إذا صفعك أحد على خدك الأيسر فأدر له خدك الأيمن " . أما هذه الأمة فقد ربيت على العزة والكرامة ، مع سمو الخلق وحسن التعامل ، حتى مع الأعداء ، بل وأثناء القتال والطعان ، وهذه درجة لم تصل إليها أمة من الأمم الماضية ، ولن تصل إليها أي أمة حاضرة : ولا عجب في ذلك فإنا أمة الإسلام ، الأمة الوسط ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [(٤)] (البقرة : من الآية ١٤٣) . ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [(٥)] (آل عمران : من الآية ١١٠) ورسولها ، ﷺ قال فيه مولاه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [(٦)] (القلم : ٤) .

ثامنا منهج الوسطية في كسب المال وإنفاقه

قضية المال من القضايا الكبرى التي عني بها الإسلام كسبًا ، وحفظًا ، وإنفاقًا .

وذلك أن المال عصب الحياة ، وهو بالنسبة للحياة الدنيا كالماء الذي يمشي في غصون الشجر ، وكالدماء التي تجري في عروق البشر .

ولقد سلك الناس - ولا يزالون - مسالك شتى في هذا المال ، كسبًا ، وجمعًا ، وإنفاقًا .

والكثرة الكاثرة ، والغالبية العظمى ضلوا الطريق ، وحادوا عن سواء السبيل .

---

(١) سورة النساء آية : ١٥٣ .

(٢) سورة البقرة آية : ٦٨ .

(٣) سورة المائدة آية : ٢٤ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٥) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

(٦) سورة القلم آية : ٤ .

ولذلك جاء القرآن الكريم مبينًا خطورة هذا الانحراف ، وهاديًا إلى الصراط المستقيم .

وفي **ضوء المنهج** الذي أشرت إليه مرارًا ، سأذكر بعض ما ورد في كتاب الله من آيات تبين خطوط الانحراف ، وطريق الوسط الذي يجب أن يسلكه المؤمنون . (أ) في **جمع المال وحبه :**

وردت عدة آيات تبين خطورة الانماك في جمع المال والمبالغة ، والإفراط في حبه ، وقد وردت هذه الآيات في سياق الذم لذلك . ومن تلك الآيات :

قال – تعـالـى - : ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ ﴾ [(١)] (الفجر : ١٩ ، ٢٠) .

وقد برر المتخلفون عن الجهاد من المنافقين وغيرهم سبب تخلفهم ، بانشغالهم بأموالهم وأولادهم : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ [(٢)] (الفتح : من الآية ١١) .

وقال - سبحانه - : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾ [(٣)] (العاديات : ٦-٨) .

وقال : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾ [(٤)] (التكاثر : ١ - ٤) .

وقال : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ

---

(١) سورة الفجر آية : ١٩ ، ٢٠ .
(٢) سورة الفتح آية : ١١ .
(٣) سورة العاديات آية : ٦ - ٨ .
(٤) سورة التكاثر آية : ١ - ٤ .

﴿ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴾ [1] (الهمزة : ١-٤) .

وقال - جل وعلا - عن أبي لهب : ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴾ [2] (المسد : ١-٣) .

وقال - سبحانه - مخبرًا عمن سيؤتى كتابه بشماله يوم القيامة حيث سيقول متحسرًا : ﴿ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴾ [3] (الحاقة : ٢٧ ، ٢٨) .

وقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [4] (العلق : ٦ ، ٧) .

وقال : ﴿ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ﴾ [5] (القلم : ١٣ ، ١٤) .

وقال : ﴿ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [6] (الليل : ١١) .

وقال : ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴾ [7] (الكهف : ٣٤ ، ٣٥) .

وقصة قارون فيها العظة والعبرة ، والتحذير من الإفراط في حب الدنيا ، وعدم أداء حق الله فيها : ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴾ [8] (القصص : من الآية ٧٦) ثم يذكر الله حالة من حالات بطره وفرحه : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ

---

(١) سورة الهمزة آية : ١ - ٤ .

(٢) سورة المسد آية : ٣ .

(٣) سورة الحاقة آية : ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) سورة العلق آية : ٦ ، ٧ .

(٥) سورة القلم آية : ١٣ ، ١٤ .

(٦) سورة الليل آية : ١١ .

(٧) سورة الكهف آية : ٣٤ ، ٣٥ .

(٨) سورة القصص آية : ٧٦ .

ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ ﴾ [1] (القصص : ٧٩) .

وماذا كانت النتيجة : ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [2] (القصص : ٨١) ولم يخسر الدنيا فقط بل والآخرة : ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [3] (القصص : ٨٣) .

وقال - سبحانه - : ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ ﴾ [4] (الحديد : من الآية ٢٠) .

هذه بعض الآيات التي تبين خطوط الانحراف عن الصراط المستقيم في جمع المال وحبه ، والآيات كثيرة جدًا .

ولأجل المزيد من إلقاء الضوء على هذه القضية فسأذكر شيئًا من أقوال المفسرين حول بعض هذه الآيات :

قال الطبري في قوله - تعالى - : ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾ [5] (التكاثر : ١) ألهاكم أيها الناس المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة ربكم ، وعما ينجيكم من سخطه عليكم . وروي عن النبي ، ﷺ كلام يدل على أن معناه التكاثر بالمال [6] .

---

[1] سورة القصص آية : ٧٩ .

[2] سورة القصص آية : ٨١ .

[3] سورة القصص آية : ٨٣ .

[4] سورة الحديد آية : ٢٠ .

[5] سورة التكاثر آية : ١ .

[6] انظر : تفسير الطبري (٣٠/ ٢٨٣) . ويشير إلى ما رواه عبد الله بن الشخيرقال : انتهيت إلى رسول الله ، وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) وهو يقول : " يقول ابن آدم : مالي مالي!! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو

وقال ابن كثير في قوله - تعالى - : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ ﴾ [1] (الهمزة : ١ ، ٢) الهماز بالقول واللماز بالفعل ، يعني يزدري الناس وينتقص بهم .

﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ ﴾ [2] (الهمزة : ٢) أي : جمعه بعضه على بعض ، وأحصى عده ، كقوله - تعالى - : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨ ﴾ [3] (المعارج : ١٨) قال السدي وابن جرير وقال محمد بن كعب في قوله : ﴿ جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ ﴾ [4] (الهمزة : من الآية ٢) ألهاه ماله بالنهار ، هذا إلى هذا ، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة .

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ ﴾ [5] (الهمزة : ٣) أي : يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار . ﴿ كَلَّا ﴾ [6] (الهمزة : من الآية ٤) أي : الأمر ليس كما زعم ولا كما حسب [7] .

وقال في قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾ [8] (العاديات : ٨) .

أي : وإنه لحب الخير وهو المال لشديد ، وفيه مذهبان :

أحدهما : أن المعنى وإنه لشديد المحبة للمال .

لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت " . أخرجه مسلم رقم (٢٩٥٨) والترمذي (٥/ ٤١٧) رقم (٣٣٥٤) والنسائي (٦/ ٢٣٨) رقم (٣٦١٣) وأحمد (٤/ ٢٤ ، ٢٦) .

(١) سورة الهمزة آية : ١ ، ٢ .

(٢) سورة الهمزة آية : ٢ .

(٣) سورة المعارج آية : ١٨ .

(٤) سورة الهمزة آية : ٢ .

(٥) سورة الهمزة آية : ٣ .

(٦) سورة الهمزة آية : ٤ .

(٧) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٨) .

(٨) سورة العاديات آية : ٨ .

والثاني : وإنه لحريص بخيل من محبة المال .

وكلاهما صحيح [1] .

وقال القرطبي في الآية نفسها : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ ﴾ [2] (العاديات : من الآية ٨)

أي : المال ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [3] (البقرة : من الآية ١٨٠)

﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ [4] (العاديات : من الآية ٨) أي لقوي في حبه للمال .

وقيل : لشديد : لبخيل . ويقال للبخيل : شديد ومتشدد .

قال ابن زيد : سمي المال خيرًا ، وعسى أن يكون شرًا وحرامًا ، ولكن الناس يعدونه خيرًا ، فسماه الله خيرًا لذلك [5] .

وقال في قوله - تعالى - : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ [6] (المسد : ٢)

أي : ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال ، ولا كسب من جاه .

قال ابن عباس : لما أنذر رسول الله ، ﷺ عشيرته بالنار قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخي حقًا فإني أفدي نفسي بمالي وولدي ، فنـزل : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ [7] (المسد : ٢) [8] .

وقال الطبري في قوله - تعالى - : ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [9] (الفجر : ٢٠)

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٢) .
(٢) سورة العاديات آية : ٨ .
(٣) سورة البقرة آية : ١٨٠ .
(٤) سورة العاديات آية : ٨ .
(٥) انظر : تفسير القرطبي (٢٠/ ١٦٢) .
(٦) سورة المسد آية : ٢ .
(٧) سورة المسد آية : ٢ .
(٨) انظر : تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٨) .
(٩) سورة الفجر آية : ٢٠ .

وتحبون المال أيها الناس واقتناءه حبًا كثيرًا شديدًا .

من قولهم : حم الماء في الحوض : إذا اجتمع .

قال قتادة : " حبًا جمًا " أي : حبًا شديدًا .

وقال الضحاك : يحبون كثرة المال [1] .

وقال القاسمي في **آية الكهف :** " وكان له " أي : لصاحب الجنتين ، " ثمر " أي أنواع من المال غير الجنتين ، من " ثمر ماله " إذا كثر ، ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ [2] (الكهف : من الآية ٣٤) أي : يراجعه الكلام ، تعبيرًا له بالفقر ، وفخرًا عليه بالمال والجـاه : ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [3] (الكهف : من الآية ٣٤) أي أنصارًا وحشمًا . ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾ [4] (الكهف : من الآية ٣٥) أي بصاحبه يطوف به فيها ، ويفاخره بها [5] .

وقال ابن كثير في **قولـــه – تعـالى - :** ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [6] (العلق : ٦ ، ٧) يخبر - تعالى - عن الإنسان أنه ذو فرح ، وأشر بطر ، وطغيان ، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ، ثم تدده وتوعده ووعظه ، فقال : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾ [7] (العلق : ٨) [8] .

وأختم أقوال المفسرين بما قاله سيد قطب في مطلع تفسيره لآيات سورة القصص ،

---

[1] انظر : تفسير الطبري (٣٠/ ١٨٤) .
[2] سورة الكهف آية : ٣٤ .
[3] سورة الكهف آية : ٣٤ .
[4] سورة الكهف آية : ٣٥ .
[5] انظر : تفسير القاسمي (١١/ ٤٠٥٨) .
[6] سورة العلق آية : ٦ ، ٧ .
[7] سورة العلق آية : ٨ .
[8] انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٨) .

في قصة قارون ، حيث قال : والآن تجيء قصة قارون لتعرض سلطان المال والعلم ، وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر ، والاستكبار على الخلق ، وجحود نعمة الخالق .

وتقرر حقيقة القيم ، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح ، مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فساد .

ثم فسر قوله : ﴿ لَا تَفْرَحْۖ ﴾ [1] (القصص : من الآية ٧٦) [2] قائلا : لا تفرح فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال ، والاحتفال بالثراء ، والتعلق بالكنوز ، والابتهاج بالملك والاستحواذ .

لا تفرح فرح البطر الذي ينسي المنعم بالمال ، وينسي نعمته ، وما يجب لها من الحمد والشكران .

لا تفرح فرح الذي يستخفه المال ، فيشغل به قلبه ، ويطير له لبه ، ويتطاول به على العباد [3] .

والآيات التي مضت وكلام المفسرين حولها يُعطي الدلالة على المنهج الخاطئ الذي يسلكه كثير من الناس في جمع المال ، حيث أفرطوا في ذلك وبالغوا فيه ، وكانت النتيجة الطبيعية أن أصبح هذا المال وبالا عليهم في الدنيا والآخرة .

إن الإسلام ليس ضد جمع المال - كما قد يتوهم البعض - بل إنه أمر مشروع جاءت الآيات الكثيرة تبين مشروعيته وأهميته ، ومن ذلك قوله - تعالى - مبينًا أن المال من الله : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْۚ ﴾ [4] (النور : من الآية ٣٣) وقال ممتنًا على بني

---

(١) سورة القصص آية : ٧٦ .
(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٨) .
(٣) انظر : في ظلال القرآن (٥/ ٢٧١٠) .
(٤) سورة النور آية : ٣٣ .

إسرائيل : ﴿ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ [1] (الإسراء : من الآية ٦) . ويقول نوح لقومه داعيًا إياهم إلى الإيمان ، ومبيِّنًا عاقبة ذلك في الدنيا قبل الآخرة : ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [2] (نوح : ١١ ، ١٢) .

وقال - سبحانه - آمرًا بالمحافظة على المال الذي هو من الله : ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ [3] (النساء : من الآية ٥) وقال : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [4] (الكهف : من الآية ٤٦) وقال : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ [5] (الأحزاب : من الآية ٢٧) .

إذن فكما أن القرآن الكريم يحذر من الإغراق في حب المال ، وقضاء الحياة في جمعه وتحصيله دون أداء حق الله فيه ، ويبين عاقبة من كانت هذه حاله ، فإنه لا يرضى بالرهبنة والتصوف والإعراض عن المال بالكلية . ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [6] (القصص : من الآية ٧٧) بل إنه يقر جمع المال وتحصيله ، ويشرع السبل الصحيحة لذلك ، وهذا ما سيتضح في الفقرة التالية :

(ب) في كسب المال:

توصلنا في الفقرة السابقة إلى أن القرآن الكريم بين لنا خطوط الانحراف في جمع المال وحبه ، واتضح لنا أن جمع المال مشروع ، ولكن الانحراف يكون في الإفراط فيه أو

---

(١) سورة الإسراء آية : ٦ .
(٢) سورة نوح آية : ١١ ، ١٢ .
(٣) سورة النساء آية : ٥ .
(٤) سورة الكهف آية : ٤٦ .
(٥) سورة الأحزاب آية : ٢٧ .
(٦) سورة القصص آية : ٧٧ .

التفريط ، وكذلك فإن حب المال ليس رجسًا أو عارًا ، بل هو أمر جبلي فطري ، لا ينفي ذلك إلا مكابر أو شاذ ، والشذوذ يؤكد القاعدة : وإنما الأمر المنهي عنه هو الغلو في حبه وتقديسه ، والتوسط في ذلك هو المشروع : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [1] (الكهف : ٤٦) ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [2] (آل عمران : ١٤) .

ومن هنا جاءت الآيات تبين الخطوط العريضة والمنطلقات الشرعية في كسب المال وتحصيله ، وجاءت القاعدة التي تفرعت عنها كل القواعد : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ ﴾ [3] (البقرة : من الآية ٢٧٥) .

إذن فكسب المال مشروع ، ولكن ليس كل طريق يؤدي إلى ذلك جائز ومحمود .

فلا نحرم ما أحل الله من وسائل الكسب المباحة ، ولا نبيح ما حرم الله من الوسائل الممنوعة : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [4] (النحل : ١١٦) .

وسأذكر بعض ما ورد من آيات تنهي عن بعض أوجه الكسب المحرمة ، ليتضح من خلال ذلك أن هناك منهجًا وسطًا في ذلك لا إفراط ولا تفريط :

فقد نهى الله عن الربا ، وبين أنه من الكسب المحرم بل غلظ الله في عقوبة هذا

---

[1] سورة الكهف آية : ٤٦ .
[2] سورة آل عمران آية : ١٤ .
[3] سورة البقرة آية : ٢٧٥ .
[4] سورة النحل آية : ١١٦ .

الكسب ، الذي أفرط فيه كثير من الناس ، - وبخاصة في عصرنا الحاضر - حتى قل أن يسلم أحد من الربا أو من غباره ، والله المستعان .

قال - تعالى - : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ ﴾ [1] (البقرة : من الآية ٢٧٥) وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ﴾ [2] (البقرة : من الآية ٢٧٥) وقـال : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ ﴾ [3] (البقرة : من الآية ٢٧٦) وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ [4] (البقرة : ٢٧٨) وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ ﴾ [5] (آل عمران : من الآية ١٣٠) .

وكذلك من طرق الكسب المحرمة : الميسر ، وهو القمار ، كما قال ابن كثير وغيره [6] . وقد جاءت بعض الآيات تبين حكمه وأن الله قد حرمه . قـال تعالى : ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ [7] (البقرة : من الآية ٢١٩) وقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ

---

(1) سورة البقرة آية : ٢٧٥ .
(2) سورة البقرة آية : ٢٧٥ .
(3) سورة البقرة آية : ٢٧٦ .
(4) سورة البقرة آية : ٢٧٨ .
(5) سورة آل عمران آية : ١٣٠ .
(6) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٥) ، وزاد المسير (١/ ٢٤٠) حيث قال ابن الجوزي : العلماء أجمعوا على أن القمار حرام ، وإنما ذكر الميسر من بينه ، وجعل كله قياسًا على الميسر ، والميسر إنما يكون قمارًا في الجزر خاصة ، وقال : قال ابن عباس وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة في آخرين : الميسر : هو القمار .
(7) سورة البقرة آية : ٢١٩ .

رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [1] (المـائدة : ٩٠ ، ٩١) .

وكذلك من أوجه الكسب المحرمة السرقة . قال - تعالى - : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا ﴾ [2] (المائدة : من الآية ٣٨) . وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾ [3] (الممتحنة : ١٢) .

ومن الكسب المحرم أكل مال اليتيم . قال - سبحانه - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾ ﴾ [4] (النساء : ١٠) .

وبالجملة فكل مال أُخذ بالباطل فهو محرم ، ولذلك جاءت الآيات تنهى عن أكل المال بالباطل . فقال - سبحانه - : ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [5] (البقرة : ١٨٨) .

وقال مبينًا سبب تحريم الطيبات على بني إسرائيل : ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ

(١) سورة المائدة آية : ٩٠ ، ٩١ .
(٢) سورة المائدة آية : ٣٨ .
(٣) سورة الممتحنة آية : ١٢ .
(٤) سورة النساء آية : ١٠ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٨٨ .

﴿أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [1] (النساء : ١٦٠ ، ١٦١) .

وقـال : ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [2] (التوبة : من الآية ٣٤) .

وقال - سبحانه - : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ﴾ [3] (النساء : من الآية ٢٩) .

قال ابن الجوزي مبينًا معنى الباطل هنا : لا يأكل بعضكم أموال بعض ، قال القاضي أبو يعلى :

والباطل على وجهين : أحدهما أن يأخذه بغير طيب نفس من مالكه ، كالسرقة ، والغضب ، والخيانة .

والثاني : أن يأخذه بطيب نفسه ، كالقمار والغناء ، وثمن الخمر [4] .

وقال القرطبي : والمعنى : لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق ، فيدخل في هذا : القمار والخداع والغصوب وجحد الحقوق ، وما لا تطيب به نفس مالكه ، أو حرمته الشريعة ، وإن طابت به نفس مالكه ، كمهر البغي ، وحُلوان الكاهن ، وأثمان الخمور والخنازير وغير ذلك ، ثم قال : من أخذ مال غيره لا على وجه إذن الشرع فقد أكله بالباطل ، ومن الأكل بالباطل أن يقضي القاضي لك وأنت تعلم أنك مبطل ، فالحرام لا يصير حلالا بقضاء القاضي ، لأنه إنما يقضي بالظاهر ، وهذا إجماع في الأموال [5] .

ومما سبق يتضح أن هناك منهجًا وسطًا في كسب المال .

فالقول بإباحة جميع المعاملات قول باطل ، وهو من التفريط . وكذلك التشديد ،

---

[1] سورة النساء آية : ١٦٠ ، ١٦١ .

[2] سورة التوبة آية : ٣٤ .

[3] سورة النساء آية : ٢٩ .

[4] انظر : زاد المسير (١/ ١٩٤) .

[5] انظر : تفسير القرطبي (٢/ ٣٣٨) .

وجعل أن الأصل في الاكتساب هو التحريم إلا ما ورد نص في إباحته قول باطل ، وهو من الإفراط .

والقول الصحيح وهو الوسط أن الأصل في البيوع والمعاملات الحل والإباحة ، إلا ما ورد النص بتحريمه ومنعه [1] سواء كان المنع بدليل خاص أو عام ، فمن الخاص تحريم الميسر والربا والسرقة ونحوها ، ومن العام ما يدخل تحت الضرر أو الظلم أو الغرر ونحو ذلك مما هو مفصل في كتب الفقه والأحكام .

(جـ) إنفاق المال

وبعد أن تبين لنا تقرير القرآن لمنهج الوسطية في جمع المال وكسبه ، نقف أخيرًا مع المنهج الشرعي في إنفاق المال كما قرره القرآن الكريم .

والناس في هذه المسألة طرفان ووسط :

فهناك القابضون أيديهم ، البخلاء بأموالهم ، المقترون على أنفسهم وأهليهم ، فضلا عمن سواهم .

وعلى النقيض من هؤلاء ، آخرون مسرفون مترفون ، باسطو أيديهم كل البسط .

وبين هؤلاء وأولئك قلة من الناس سلكوا السبيل القويم ، والتزموا العدل والاعتدال ، واتخذوا بين ذلك سبيلا [2] .

وقد نـزلت الآيات من لدن عليم حكيم ، تبين سلامة هذا المنهج ، وتأمر به ، وتحث عليه ، مع النهي عن سلوك أي من المنهجين المنحرفين ، وبيان عاقبة ذلك عاجلا وآجلا [3] .

---

[1] للعلماء كلام في هذه القضية ، وتفصيل في هذه القاعدة ، انظر : مثلا تفسير القرطبي (٣/ ٣٥٦) تجد بيان ذلك .

[2] أي : بين المنهجين المتطرفين .

[3] من بيان العاجل قوله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا) . [سورة الإسراء ، آية : ٢٩] . ومن الآجل قوله : (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) . [سورة آل عمران ، الآية : ١٨٠] .

وسأذكر من الآيات ما يبين هذا المنهج ويقرره ، دون إيجاز مخل أو إطناب ممل ، بل سأتخذ بين ذلك سبيلا :

فبالنسبة للطرف الأول ، وهم القابضون أيديهم ، البخلاء بأموالهم ، جاءت الآيات تبين انحراف هذا المنهج ، وتنهى عن هذا المسلك ، فقال - سبحانه - : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ [1] (آل عمران : من الآية ١٨٠) وقال - جل وعلا - : ﴿ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [2] (الحديد : ٢٣ ، ٢٤) .

وقال مبيِّنًا خصلة من خصال المنافقين : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [3] (التوبة : ٧٦) .

وقال سبحانه : ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [4] (محمد : ٣٨) .

وقال - سبحانه وتعالى - : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [5] (الإسراء : ١٠٠) .

قال ابن كثير في هذه الآية : يقول - تعالى - لرسوله ، ﷺ قل لهم يا محمد لو أنكم

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٨٠ .
(٢) سورة الحديد آية : ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) سورة التوبة آية : ٧٦ .
(٤) سورة محمد آية : ٣٨ .
(٥) سورة الإسراء آية : ١٠٠ .

أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكتم خشية الإنفاق ، قال ابن عباس وقتادة : أي : الفقر خشية أن تُذهبوها ، مع أنا لا تنفد ولا تفرغ أبدًا ، لأن هذا من طباعكم وسجاياكم ، ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴾[1] " . قال ابن عباس وقتادة : أي : بخيلا منوعًا .

وقال - تعالى - : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾[2] (النساء : ٥٣) . أي : لو أن لهم نصيبًا في ملك الله ما أعطوا أحدًا شيئًا ولا مقدار نقير .

والله - تعالى - يصف الإنسان من حيث هو - إلا من وفقه الله وهداه - فإن البخل والجزع والهلع صفة له ، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه - سبحانه وتعالى - [3] .

وقال القرطبي في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ ﴾[4] (آل عمران : من الآية ١٨٠) هذه الآية نـزلت في البخل بالمال ، والإنفاق في سبيل الله ، وأداء الزكاة المفروضة .

والبخل في اللغة : أن يمنع الإنسان الحق الواجب ، فأما من منع ما لا يجب عليه فليس ببخيل ، لأنه لا يذم بذلك . ثم قال : واختلف في البخل والشح ، هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين ؟ فقيل : البخل : الامتناع من إخراج ما حصل عندك .

والشح : الحرص على تحصيل ما ليس عندك .

وقيل : إن الشح هو البخل مع حرص ، وهو الصحيح ، لما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن

---

[1] سورة الإسراء آية : ١٠٠ .
[2] سورة النساء آية : ٥٣ .
[3] انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٦٦) .
[4] سورة آل عمران آية : ١٨٠ .

الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم ﴾ [1]

وهذا يردّ قول من قال : إن البخل منع الواجب ، والشح : منع المستحب ، إذ لو كان الشح منع المستحب لما دخل تحت هذا الوعيد العظيم ، والذم الشديد الذي فيه هلاك الدنيا والآخرة [2] .

وكما جاءت الآيات محذرة من عاقبة البخل والتقتير ، فقد جاءت ناهية عن الطرف المقابل وهو الإسراف والتبذير .

فقال - سبحانه - : ﴿ وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [3] (الإسراء : ٢٦ ، ٢٧) .

وقال - جل وعلا - : ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [4] (الأنعام : من الآية ١٤١) .

قال القاسمي في تفسير آية الإسراء : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [5] (الإسراء : من الآية ٢٦) أي : بوجه من الوجوه ، بالإنفاق في محرم أو مكروه ، أو على من لا يستحق ، فتحسبه إحسانًا إلى نفسك أو غيرك . قال : وفي الكشاف : كانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها ، وتبذر أموالها في الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك في أشعارها ، فأمر الله بالنفقة في وجوهها مما يقرب منه ويزلف .

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ ﴾ [6] (الإسراء : من الآية ٢٧) أي : أمثالهم

---

[1] مسلم البر والصلة والآداب (٢٥٧٨) ، أحمد (٣/٣٢٣) .
[2] انظر : تفسير القرطبي (٤/ ٢٩١-٢٩٣) . والحديث أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٦) رقم (٢٥٧٨) .
[3] سورة الإسراء آية : ٢٦ ، ٢٧ .
[4] سورة الأنعام آية : ١٤١ .
[5] سورة الإسراء آية : ٢٦ .
[6] سورة الإسراء آية : ٢٧ .

في كفران نعمة المال بصرفه فيما لا ينبغي ، وهذا غاية المذمة لأنه لا شر من الشيطان .

وقال : قال أبو السعود : وتخصيص هذا الوصف بالذكر من بين سائر أوصافه القبيحة ، للإيذان بأن التبذير الذي هو عبارة عن صرف نعم الله - تعالى - إلى غير مصرفها ، من باب الكفران المقابل للشكر الذي هو عبارة عن صرفها إلى ما خلقت هي له ، والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بكمال عتوه ، فإن كفر نعمة الرب ، مع كون الربوبية من أقوى الدواعي إلى شكرها ، غاية الكفران ، ونهاية الضلال والطغيان .

وقال : وقد استدل بالآية مع منع إعطاء المال كله في سبيل الخير ، ومن منع الصدقة بكل ماله [1] .

وقـــال الطـــبري مبينًا مدلول آية الأنعام ، ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [2] (الأنعام : من الآية ١٤١) قال : بعد أن ذكر أقوال العلماء :

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال : إن الله - تعالى - نهى بقوله : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ ﴾ [3] (الأنعام : من الآية ١٤١) عن جميع معاني الإسراف ، ولم يخصص منها معنى دون معنى .

وإذا كان ذلك كذلك ، وكان الإسراف في كلام العرب : الإخطاء بإصابة الحق في العطية ، إما بتجاوز حده في الزيادة ، وإما بتقصير عن حده الواجب [4] كان معلومًا أن المفرق ماله مباراةً ، والباذلَه للناس حتى أجحفت به عطيته ، مسرف بتجاوزه حد الله إلى ما كيفته له .

---

[1] انظر : تفسير القاسمي (١٠/ ٣٩٢١) .

[2] سورة الأنعام آية : ١٤١ .

[3] سورة الأنعام آية : ١٤١ .

[4] من قال بذلك وفسر به الإسراف : سعيد بن المسيب ومحمد بن كعب ، كما ذكر الطبري في تفسيره (٨/ ٦١) . ولكن الإسراف إذا أطلق يراد به التبذير ، وما يقابل البخل والتقتير ، قال - سبحانه - : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا) . [سورة الفرقان ، آية : ٦٧] . وتفسير الإسراف بالبخل فيه نظر . والله أعلم .

وكذلك المقصر في بذله فيما ألزمه الله بذله فيه ، وذلك كمنعه ما ألزمه إيتاءه منه أهل سهمان الصدقة ، إذا وجبت فيه ، أو منعه من ألزمه الله نفقته من أهله وعياله ما ألزمه منها .

وكذلك السلطان في أخذه من رعيته ما لم يأذن الله بأخذه .

كل هؤلاء فيما فعلوا من ذلك مسرفون ، داخلون في معنى من أتى ما نهى الله عنه من الإسراف بقوله : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ [1] (الأنعام : من الآية ١٤١) في عطيتكم من أموالكم ما يجحف بكم . [2] .

وبذا يتضح لنا أن البخل والإسراف ضدان قد نهى الله عنهما ، وحرمهما على عباده ، كلا طرفي قصد الأمور ذميم .

وإذا كانت الآيات السابقة ، بيّنت كل واحدة منها أحد طرفي الانحراف وحذّرت منه ، فإنها تدل بمفهومها على أن طريق الوسط ، هو طريق الاستقامة ، وبخاصة إذا نظرنا إلى مجموع الآيات السابقة التي تدل على أن الإسراف والبخل لا يمثلان المنهج الصحيح .

ومع ذلك فقد جاءت آيات تدلّ صراحة على انحراف كل من الطرفين المذكورين ، وينصّ بعضها على طريق الوسط ، وأنه المنهج الحق الذي يجب الالتزام به والسير فيه .

قال - تعالى - في وصف المؤمنين : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ٦٧ ﴾ [3] (الفرقان : ٦٧) .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ٢٩ ﴾ [4] (الإسراء : ٢٩) .

---

[1] سورة الأنعام آية : ١٤١ .
[2] انظر : تفسير الطبري (٨/ ٦١) .
[3] سورة الفرقان آية : ٦٧ .
[4] سورة الإسراء آية : ٢٩ .

قال ابن كثير في الآية الفرقان : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ ﴾ [(1)] (الفرقان : من الآية ٦٧) أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم ، فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم ، فيقصرون في حقهم ، فلا يكفونم ، بل عدلا خيارًا ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا .

﴿ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ ﴾ [(2)] (الفرقان : من الآية ٦٧) كما قال - تعالى - : ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾ [(3)] (الإسراء : من الآية ٢٩) [(4)] .

وقال الطبري في آية الإسراء : ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [(5)] (الإسراء : من الآية ٢٩) .

وإنما معنى الكلام : ولا تمسك يا محمد يدك بخلا عن النفقة في حقوق الله ، فلا تنفق فيها شيئًا ، إمساك المغلولة يده إلى عنقه ، الذي لا يستطيع بسطها . ﴿ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾ [(6)] (الإسراء : من الآية ٢٩) يقول : ولا تبسطها بالعطية كل البسط ، فتبقى لا شيء عندك ، ولا تجد إذا سئلت شيئًا تعطيه سائلك . ﴿ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩ ﴾ [(7)] (الإسراء : من الآية ٢٩) يقول : فتقعد يلومك سائلوك إذا لم تعطهم حين سألوك ، وتلوم نفسك على الإسراع في مالك وذهابه [(8)] .

---

(1) سورة الفرقان آية : ٦٧ .
(2) سورة الفرقان آية : ٦٧ .
(3) سورة الإسراء آية : ٢٩ .
(4) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٥) .
(5) سورة الإسراء آية : ٢٩ .
(6) سورة الإسراء آية : ٢٩ .
(7) سورة الإسراء آية : ٢٩ .
(8) انظر : تفسير الطبري (١٥/ ٧٦) .

ومما يدل على الوسطية في **النفقة** قوله - تعالى - : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ ﴾ [1] (الطلاق : من الآية ٧) . وهذا من الوسطية النسبية التي يراعى فيها حال المنفق ، وما جرت العادة به ونحو ذلك .

قال القرطبي : فتقدّر النفقة بحسب الحالة من المنفِق ، والحاجة من المنفَق عليه بالاجتهاد على مجرى حياة العادة ، فينظر المفتي إلى قدر حاجة المنفَق عليه ، ثم ينظر إلى حالة المنفَق ، فإن احتملت الحالة أمضاها عليه ، وإن اقتصرت حالته على حالة المنفق عليه ردّها إلى قدر احتماله [2] .

من خلال ما سبق ظهر لنا منهج الوسطية واضحًا جليا في الجمع والكسب ، وإنفاق المال .

ودلتّ الآيات السابقة على النهي على الإفراط والتفريط ، ووجوب الالتزام بالمنهج الوسط ، وجماع ذلك قول الله العظيم ، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [3] (الفرقان : ٦٧) . ومن أصدق من الله قيلا .

ومما سبق في تقرير وسطية الإسلام في جمع المال وكسبه وإنفاقه يتّضح انحراف كل من المنهج الرأسمالي والمنهج الاشتراكي [4] .

فالنظام الرأسمالي يقوم على حرية الفرد في عمل ما يروق له من الأعمال التجارية .

فهي تعني حرية الاستثمار ، وحرية الفرد في التملك ، الحرية المطلقة ، فهو حرّ في البحث عن الربح بشتى الوسائل والطرق .

---

(١) سورة الطلاق آية : ٧ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي (١٨/ ١٧٠) .

(٣) سورة الفرقان آية : ٦٧ .

(٤) انظر : الوسطية في الإسلام د زيد الزيد ص (٥٦) .

والملكية الفردية مقدّسة ، لا تمسّ ، ولا يحدّها ضابط أو قيد ، حتى لو أدّت هذه الملكية لاحتكار المالك للسلعة .

إن هذه الحرية بل هذه الفوضوية المطلقة - كان لها نتائج عكسية على المجتمع ، حيث أوقدت نار الاحتكار والأنانية الفردية .

وبالتالي تحوّلت الحياة الاقتصادية إلى شريعة غاب ، يأكل فيها القوي الضعيف .

وأدّى هذا إلى تكدس رءوس الأموال في يد طبقة معينة من أصحاب رءوس الأموال ، ويقابلهم طبقة العمال الذين لا حول لهم ولا قوّة .

ويقابل المنهج الرأسمالي المنهج الاشتراكي ، حيث قام على فكرة وفلسفة انتقال السيطرة على المال من أيدي أصحاب رءوس الأموال إلى أيدي الطبقة العاملة . حيث قامت على أسس من أبرزها :

١- **إلغاء الملكية الفردية ،** وتأميم الممتلكات التجارية والصناعية ، بدعوى مصلحة الجميع ، والأفراد يؤدون أعمالا للدولة نظير أجور متساوية .

٢- **توزيع السلع** والمنتوجات الاستهلاكية كل وفق حاجته .

فالاقتصاد الاشتراكي يعتمد على - دعوى - تغليب مصلحة المجتمع ، ويجعل الدولة مالكة لكل شيء ، وموجهة للاقتصاد ، فلا يكاد يوجه للأفراد حقوق تذكر ، من التملك والتنقل أو اختيار العمل ، فأفقر الغني ولم يُغن الفقير .

وبذا فإن في هذين النظامين يتمثل الإفراط والتفريط في أبشع صورة .

أمّا الإسلام - فكما سبق بيان منهج القرآن في ذلك - يختلف عن هذين النظامين اختلافًا جذريا .

فهو آخذ بمصلحة الفرد ومصلحةَ المجتمع في وقت واحد ، فهو يحترم الملكية الفردية ويقرّها ، لأنا توافق الفطرة الإنسانية ، ولكنه لا يقرّها مطلقة من كل قيودها ، بل جعل لها ضوابط وقيود تحول دون الاعتداء على مصلحة المجتمع ، وكذلك يحترم مصلحة المجتمع دون التعدي على مصلحة الفرد .

ففيه الإرث والوصية والزكاة والصدقة وغير ذلك من وجوه الإنفاقُ المشروعة .

كما حرّم الاحتكار والرّبا والغشّ وغيرها من وجوه الاكتساب المحرّمة [1] .

وبذا تحقّقت الوسطية في أبى صورها ، الوسطية التي توافق الفطرة وتنميها :

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [2] (الروم : من الآية ٣٠) .

---

[1] انظر : الوسطية في الإسلام د زيد الزيد ص (٥٦) وما بعدها .

[2] سورة الروم آية : ٣٠ .

تاسعا منهج الوسطية في مطالب النفس وشهواتا

قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ﴾ [1] (آل عمران : ١٤) .

قال سيد قطب : صياغة الفعل للمجهول - هنا - تشير إلى أن تركيبهم الفطري قد تضمّن هذا الميل ، فهو محّبب ومزين ، وهذا تقرير للواقع من أحد جانبيه ، ففي الإنسان هذا الميل إلى هذه الشهوات ، وهو جزء من تكوينه الأصيل ، لا حاجة إلى إنكاره ، ولا إلى استنكاره في ذاته ، فهو ضروري للحياة البشرية ، كي تتأصل وتنمو وتطرد [2] .

وقال رشيد رضا بعد أن بين اختلاف المفسرين في إسناد التزيين في هذا المقام ، فأسنده بعضهم إلى الله ، وأسنده بعضهم إلى الشيطان . قال : وغفل الجميع عن كون الكلام في طبيعة البشر ، وبيان حقيقة الأمر في نفسه ، لا في جزئياته ، وأفراد وقائعه ، فالمراد أن الله - تعالى - أنشأ الناس على هذا وفطرهم عليه ، ومثل هذا لا يجوز إسناده إلى الشيطان بحال ، وإّنما يسند إليه ما قد يعدّ هو من أسبابه ، كالوسوسة التي تزين للإنسان عملا قبيحًا ، ولذلك لم يسند إليه القرآن إلا تزيين الأعمال ، قال - تعالى - : ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [3] (الأنفال : من الآية ٤٨) وقـال : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣ ﴾ [4] (الأنعام : من الآية ٤٣) .

وأمّا الحقائق وطبائع الأشياء فلا تسند إلاّ إلى الخالق الحكيم ، الذي لا شريك له ، قال ﷻ ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ٧ ﴾ [5] (الكهف : ٧) [6]

---

[1] سورة آل عمران آية : ١٤ .

[2] انظر : في ظلال القرآن (١/ ٣٧٣) .

[3] سورة الأنفال آية : ٤٨ .

[4] سورة الأنعام آية : ٤٣ .

[5] سورة الكهف آية : ٧ .

[6] انظر : تفسير المنار (٣/ ٢٣٩) .

وبعد أن تقرّرت هذه الحقيقة : وهي أن الميل إلى شهوات الدنيا أمر فطري مركوز في خلق الإنسان ، فإن الناس أمام هذه الحقيقة طرفان ووسط .

فهناك من وقف أمام هذا الميل موقفًا مغاليًا ، فحرّم على نفسه الطيبات وغيرها ، ومنعها من الملاذّ ، وما فُطرت عليه من الزواج والمال وأطايب الملابس والمآكل ، وهؤلاء يمثلهم رهبان النصارى وغلاة الصوفية ، وابتدع النصارى رهبانية قاسية على النفس ، تحرم الزواج ، وتكبت الغرائز ، وترفض كل أشكال الزينة ، وطيبات الرزق ، وتراها رجسًا من عمل الشيطان ، وأصبح هذا النـزوع مذهبًا رائجًا [1] .

فهؤلاء رأوا الجسد سجنًا للروح ، يحول بينها وبين أشواقها العالية ، وشفافيتها السامية ، فاخترعوا الرياضيات الروحية الشاقة ، التي تقوم على إرهاق الجسد وتعذيبه ، وتحوّله إلى شبح هزيل ، يسكن المغاور والمقابر والكهوف ، وينفر من كل الصلات الإنسانية [2] .

وهؤلاء أفرطوا وغلوا ، وخرجوا عن سواء السبيل .

والطرف المقابل لهؤلاء ، هم الذين انساقوا وراء شهوات أنفسهم ، واعتبروا الحياة الدنيا هي الغاية والنهاية ، وقالوا : ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ ﴾ [3] (الجاثـية : من الآية ٢٤) .

فأغرقوا في الشهوات ، وعبدوا أنفسهم للماديات ، ولم يعرفوا لهم هدفًا ساميًا يسعون إليه ، غير منافع الدنيا العاجلة ، ولذائذها الفانية .

وأصبحوا كالأنعام ، بل هم أضلّ سبيلا .

وهذا المنهج سقطت فيه الكثير من الأيديولوجيات ، وتبعه ملايين البشر ، الذين ارتموا في أحضان النفعية الغربية المادية ، أو سقطوا في مخالب المادية الماركسية ، التي تعيث في

---

(١) انظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي ص (١٨٦) ، والوسطية في الإسلام ص (٤٢) .

(٢) انظر : المسلمون بين التشديد والتيسير للعودة ص١٣ ، والوسطية في الإسلام ص٤٤ .

(٣) سورة الجاثية آية : ٢٤ .

الأرض فسادًا من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

وهؤلاء فرّطوا وضيّعوا ، وضلّوا عن سواء السبيل .

وبين هؤلاء وأولئك جاء القرآن بالمنهج العدل الوسط ، فاعترف بحاجة الإنسان إلى تلبية فطرته ، وتحقيق بعض رغباته ، دون حجر أو كبت .

ولكنه لم يترك له الحبل على غاربه ، بل وضع الضوابط والحدود ، وبيّن أنّ له مهمة سامية يسعى إليها أشرف من الدنيا وما فيها .

ونبيّن الآن ما جاء في القرآن تجاه كل طرف ، ثم تقريره للمنهج الوسط .

أمّا الطرف الأول وهم الذين غلوا وأفرطوا ، فقد جاءت بعض الآيات التي تردّ هذا المنهج وتبين انحرافه ، فقال - سبحانه - : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [1] (الأعراف : ٣٢) .

وقال - سبحانه - : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [2] (الأعراف : ٣٣) .

وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾ [3] (البقرة : من الآية ١٦٨) .

وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [4] (البقرة : ١٧٢) .

---

[1] سورة الأعراف آية : ٣٢ .
[2] سورة الأعراف آية : ٣٣ .
[3] سورة البقرة آية : ١٦٨ .
[4] سورة البقرة آية : ١٧٢ .

قال ابن كثير في قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾ [1] (الأعراف : من الآية ٣٢) .

يقول - تعالى - ردا على من حرّم شيئًا من المآكل والمشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله ، قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يُحرّمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ [2] (الأعراف : من الآية ٣٢) أي : هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا ، وإن شركهم فيها الكفار حبًا في الدنيا ، فهي لهم خاصة يوم القيامة ، لا يشركهم فيها أحد من الكفار [3] .

وقال الطبري في قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [4] (الأعراف : من الآية ٣٣) .

يقول الله - تعالى - ذكره لنبيه محمد ، ﷺ قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتجرّدون من ثيابم للطواف بالبيت ، ويحرمون أكل طيبات ما أحل الله لهم من رزقه ، أيّها القوم إن الله لم يحرّم ما تحرمونه ، بل أحّل ذلك لعباده المؤمنين وطّيبه لهم ، وإّنما حرم ربّي القبائح من الأشياء ، وهي الفواحش ، ما ظهر منها فكان علانية ، وما بطن منها فكان سرا في خفاء .

ثم فسرّ – قولـه تعـالى - في آخر الآيـة : ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [5] (الأعراف : من الآية ٣٣) فقال : يقول وأن تقولوا : إن الله أمركم بالتعري والتجرد للطواف بالبيت ، وحرم عليكم أكل هذه الأنعام التي حرمتموها

---

[1] سورة الأعراف آية : ٣٢ .
[2] سورة الأعراف آية : ٣٢ .
[3] انظر : تفسير ابن كثير (٢/ ٢١١) .
[4] سورة الأعراف آية : ٣٣ .
[5] سورة الأعراف آية : ٣٣ .

وسيبتموها ، وجعلتموها وصائل وحوامي ، وغير ذلك مما لا تعلمون أن الله حرمه ، أو أمر به أو أباحه ، فتضيفوا إلى الله تحريمه وحظره والأمر به .

فإن ذلك - أي هذا القول - هو الذي حرمه الله عليكم دون ما تزعمون أن الله حرمه ، أو تقولون إن الله أمركم به ، جهلًا منكم بحقيقة ما تقولون ، وتضيفونه إلى الله [1] .

وقال رشيد رضا مفسرًا قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾ [2] (الأعراف : من الآية ٣٢) .

حرمت العرب في جاهليتها زينة اللباس في الطواف تعبدًا وقربة ، وحرم بعضهم أكل بعض الطيبات من الأدهان وغيرها في حال الإحرام بالحج كذلك ، وحرّموا من الحرث والأنعام ما بّينه - تعالى - في سورة الأنعام ، وحرّم غيرهم من الوثنيين وأهل الكتاب كثيرًا من الطيبات والزينة كذلك ، فجاء دين الفطرة الجامع بين مصالح البشر في معاشهم ومعادهم ، المطهر المربي لأرواحهم وأجسادهم ، ينكر هذا التحكم والظلم للنفس ، فالاستفهام في قوله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ ﴾ [3] (الأعراف : من الآية ٣٢) إنكاري ، يدل على أن هذا التحريم من وساوس الشيطان ، لا مما أوحاه - تعالى - إلى من سبق من المرسلين [4] .

وبذا يّتضح انحراف هذا المنهج وبعده عن الصّراط المستقيم .

ومثلما جاءت الآيات مبينة حكم الله في هذا الطرف ، جاءت كذلك تبين انحراف الطرف المقابل وميله عن الحق ، وهم الذين تركوا العنان لأنفسهم تعبث كيفما تشاء ، وترتع كالأنعام فيما اشتهت وهوت ، دون حسيب أو رقيب أو ضابط .

---

[1] انظر : تفسير الطبري (٨/ ١٦٧) .
[2] سورة الأعراف آية : ٣٢ .
[3] سورة الأعراف آية : ٣٢ .
[4] انظر : تفسير المنار (٨/ ٣٨٧) .

قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [1] (مريم : ٥٩) .

وقال - جلّ وعلا - : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [2] (النساء : ٢٧) .

وقال عزّ ذكره : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ ﴾ [3] (محمد : من الآية ١٢) .

وقال : ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [4] (الحجر : ٣) .

وقال : ﴿ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [5] (الأحقاف : ٢٠) .

وقال - سبحانه - : ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [6] (البقرة : من الآية ٢٠٠) .

فهذه الآيات وأمثالها تدّل على ضلال هؤلاء وانحرافهم ، حيث فرّطوا بركونهم إلى الحياة الدنيا وشهواتها ، وتفصيلا لهذا الانحراف أذكر بعض أقوال المفسرين حول معنى هذه الآيات .

---

(١) سورة مريم آية : ٥٩ .

(٢) سورة النساء آية : ٢٧ .

(٣) سورة محمد آية : ١٢ .

(٤) سورة الحجر آية : ٣ .

(٥) سورة الأحقاف آية : ٢٠ .

(٦) سورة البقرة آية : ٢٠٠ .

قال الطبري في قوله - تعالى - : ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [1] (النساء : من الآية ٢٧) يقول : يريد الذين يطلبون لذّات الدنيا وشهوات أنفسهم فيها ، أن تميلوا عن أمر الله - تبارك وتعالى - فتجوروا عنه بإتيانكم ما حرّم عليكم ، وركوبكم معاصيه ميلا عظيمًا ، جورًا وعدولا عنه شديدًا .

ثم قال بعد أن ذكر أقوال العلماء في المراد بالذين يتبعون الشهوات : فأولى المعاني بالآية ما دلّ عليه ظاهرها دون باطنها الذين لا شاهد عليه من أصل أو قياس .

وإذا كان ذلك كذلك كان داخلا في الذين يتّبعون الشهوات : اليهود والنصارى والزّناة ، وكل متبع باطلا ، لأن كل متبع ما ناه الله عنه فمتبع شهوة نفسه [2] .

وقال ابن كثير في قوله - تعالى - : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ [3] (محمد : من الآية ١٢) . قال : أي في دنياهم يتمتعون با ويأكلون منها كأكل الأنعام خضمًا وقضمًا ، وليس لهم همة إلا ذلك ، ولذلك ثبت في الصحيح : ﴿ المؤمن يأكل في معي واحدٍ ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء ﴾ [4] [5] .

وقال القرطبي في قولــه - تعالى - : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [6] (الأحقاف : من الآية ٢٠) . أي : تمتعتم بالطيبات في الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات ، يعني المعاصي .

وقيل : أي أفنيتم شبابكم في الكفر والمعاصي .

---

(١) سورة النساء آية : ٢٧ .

(٢) انظر : تفسير الطبري (٥/ ٢٨) .

(٣) سورة محمد آية : ١٢ .

(٤) البخاري الأطعمة (٥٠٧٨) ، مسلم الأشربة (٢٠٦١) ، الترمذي الأطعمة (١٨١٨) ، ابن ماجه الأطعمة (٣٢٥٧) ، أحمد (٢/٢١) ، الدارمي الأطعمة (٢٠٤٠) .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٥) والحديث أخرجه البخاري (٦/ ٢٠٠) .

(٦) سورة الأحقاف آية : ٢٠ .

قال ابن بحر : الطيبات : الشباب والقوة ، مأخوذ من قولهم : ذهب أطيباه ، أي : شبابه وقوّته .

قال القرطبي : قلت : القول الأول أظهر ، ثم ساق الأدلة على صحة هذا القول ، وذلك بتفسير عمر رضي الله عنه للآية وغيره من السلف [1] .

وقال القرطبي - أيضًا - في قوله - تعالى - : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾ [2] (مريم : من الآية ٥٩) عن علي ، رضي الله عنه هو من بني المشيد ، وركب المنظور ، ولبس المشهور .

قلت - أي القرطبي - : الشهوات عبارة عما يوافق الإنسان ، يشتهيه ويلائمه ولا يتقيه ، وفي الصحيح : ﴿ حفّت الجّنة بالمكاره ، وحفّت النار بالشهوات ﴾ [3] [4] .

وما ذكر عن علي رضي الله عنه جزء من هذا [5] .

وأختم أقوال المفسرين بما قاله سيد في تفسير قوله - تعالى - : ﴿ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا ﴾ [6] (الأحقاف : من الآية ٢٠) قد كانوا يملكون الطيبات إذن ، ولكنهم استنفذوها في الحياة الدنيا ، فلم يدّخروا للآخرة منها شيئًا ، واستمتعوا با غير حاسبين فيها للآخرة حسابًا .

استمتعوا با استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع ، غير ناظرين فيها للآخرة ،

---

(١) انظر : تفسير القرطبي (١٦/ ٢٠٠) .

(٢) سورة مريم آية : ٥٩ .

(٣) مسلم الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٣) ، الترمذي صفة الجنة (٢٥٥٩) ، أحمد (٢٨٤/٣) ، الدارمي الرقاق (٢٨٤٣) .

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٧٤) رقم (٢٨٢٢) وهو عند البخاري أيضًا (٧/ ١٨٦) عن أبي هريرةبلفظ " حُجبت النار بالشهوات وحُجبت الجنة بالمكاره " .

(٥) انظر : تفسير القرطبي (١١/ ١٢٥) .

(٦) سورة الأحقاف آية : ٢٠ .

ولا شاكرين لله نعمته ، ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام ، ومن ثمّ كانت لهم دنيا ولم تكن لهم آخرة [1] .

وهذه الآيات وكلام المفسرين حولها بيّنت أنّ التفريط مذموم ، وعاقبته وخيمة ، وأنّه مجافاة للطريق السوي ، والصراط المستقيم .

وننتهي بعد ذلك إلى نتيجة محدّدة لا لبس فيها ولا غموض ، وهي أن تحريم الطيبات وما أحلّ الله لعباده غلو وإفراط ، ومثل ذلك - في الذّم - اتباع الشهوات وعدم منع النفس مما تشتهي حلالا كان أو حرامًا ، فهذا تفريط . والطريق العدل والمنهج الوسط ما بين ذلك ، وهو ما تحدّده وتُبيّنه الآيات التالية :

قال - تعالى - : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [2] (الأعراف : ٣١) . فهذه من أوضح الآيات دلالة على المراد ، حيث حددت معالم هذا المنهج ، فلباس الزينة مشروع ، ومثل ذلك الأكل والشرب مما أباح الله ، ولو كان فيه زيادة على الحاجة والضرورة ، ولكن المنهي عنه أن يكون هناك إسراف وتبذير ، سواء كان الإسراف في النوع أو الكم أو العادة .

وما أجمل ما قاله القرطبي في هذا الباب ، حيث قال : والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد ، طيبًا كان أو قفارًا ، ولا يتكلّف الطيب ويتخذه عادة ، وقد كان النبي ، ﷺ يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر ، ولا يعتمد أصلا ، ولا يجعله ديدنًا ، ومعيشة النبي ، ﷺ معلومة ، وطريقة الصحابة منقولة [3] .

وقال الطبري في هذه الآية : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ ﴾ [4] (الأعراف : من

---

[1] انظر : في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٦٤) .
[2] سورة الأعراف آية : ٣١ .
[3] انظر : تفسير القرطبي (١٦/ ٢٠٢) .
[4] سورة الأعراف آية : ٣١ .

الآية ٣١) من الكساء واللباس ، ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا ﴾ [(١)] (الأعراف : من الآية ٣١) من طيبات ما رزقتكم وحللته لكم ، ﴿ وَٱشْرَبُوا ﴾ [(٢)] (الأعراف : من الآية ٣١) من حلال الأشربة ، ولا تُحرّموا إلا ما حرّمت عليكم في كتابي ، أو على لسان رسولي محمد ، ﷺ .

ثم قال : عن ابن عباس قال : أحلّ الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا أو مخيلة .

وروي عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [(٣)] (الأعراف : من الآية ٣١) .

قال : في الطعام والشراب .

وقال السدي : لا تسرفوا في التحريم .

وقال ابن زيد : لا تأكلوا حرامًا ، ذلك الإسراف .

وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [(٤)] (الأعراف : من الآية ٣١) يقول : إن الله لا يحب المتعدين حدّه ، في حلال أو حرام ، الغالين فيما أحلّ الله أو حرّم بإحلال الحرام ، وبتحريم الحلال ، ولكنه يحب أن يُحلّل ما أحلّ ويحرّم ما حرّم ، وذلك العدل الذي أمر به [(٥)] .

وقال ابن كثير : قال بعض السلف : جمع الله الطب كله في نصف الآية : ﴿ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا ﴾ [(٦)] (الأعراف : من الآية ٣١) وقال البخاري قال ابن

---

(١) سورة الأعراف آية : ٣١ .
(٢) سورة الأعراف آية : ٣١ .
(٣) سورة الأعراف آية : ٣١ .
(٤) سورة الأعراف آية : ٣١ .
(٥) انظر : تفسير الطبري (٨/ ١٦٢) .
(٦) سورة الأعراف آية : ٣١ .

عباس : كل ما شئت والبس ما شئت ، ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة [1] .

ومن الأدلة على الوسطية والاعتدال في مطالب النفس قوله - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ ﴾ [2] (البقرة : ١٦٨) . فقوله : ﴿ كُلُواْ ﴾ [3] (البقرة : من الآية ١٦٨) إباحة لما قد يتوهّم من التحريم جهلا أو غلوا . وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ ﴾ [4] (البقرة : من الآية ١٦٨) نهى عن الحرام ، والإسراف حرام ، فهو منهي عنه .

قال الطبري في الآية : يا أيها الناس كلوا مما أحللت لكم من الأطعمة على لسان رسولي محمد ، ﷺ فطيبته لكم ، مما تحرمونه على أنفسكم من البحائر والسوائب والوصائل ، وما أشبه ذلك ، مما لم أحرّمه عليكم ، دون ما حرّمته عليكم من المطاعم والمآكل فنجسته ؛ من ميتة ودم ولحم خنـزير ، وما أُهل به لغيري . ودعوا خطوات الشيطان الذي يوبقكم فيهلككم ويوردكم موارد العطب .

ثم قال بعد أن بيّن أقوال العلماء في المراد بخطوات الشيطان : وهذه الأقوال قريب معنى بعضها من بعض ، غير أن حقيقة تأويل الكلمة هو ما بيّنت من أنا بُعد ما بين قدميه ، ثم تستعمل في جميع آثاره وطرقه على ما قد بيّنت [5] .

ومن الأدلة قوله - تعالى - : ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢ ﴾ [6] (البقرة : ٢٠١ ، ٢٠٢) .

---

[1] انظر : تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٠) . وصحيح البخاري (٧/ ٣٣) .
[2] سورة البقرة آية : ١٦٨ .
[3] سورة البقرة آية : ١٦٨ .
[4] سورة البقرة آية : ١٦٨ .
[5] انظر : تفسير الطبري (٢/ ٧٦) .
[6] سورة البقرة آية : ٢٠٢ .

قال ابن كثير في هذه الآية :

جمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا ، وصرفت كل شرّ ، فإن كل الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي ، من عافية ودار رحبة ، وزوجة حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هيّن ، وثناء جميل ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ، ولا منافاة بينها ، فإنا كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا .

وأمّا الحسنة في الآخرة ، فأعلى ذلك دخول الجنة [1] وتوابعه ، من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات ، وتيسير الحساب ، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة .

وأمّا النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا ، من اجتناب المحارم والآثام ، وترك الشبهات والحرام [2] .

ومن الأدلة التي تصلح في هذا المقام قوله - تعالى - : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ ﴾ [3] (المؤمنون : ٥-٧) .

قال ابن كثير في تفسيره للآية : أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام ، فلا يقعون فيما ناهم الله عنهم من زنا ولواط ، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم ، أو ما ملكت أيمانم من السراري ، ومن تعاطى ما أحلّه الله فلا لوم عليه ولا حـرج ، ولهـذا قال : ﴿ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ ﴾ [4] (المؤمنون : من الآية ٦) [5] .

ووجه الاستدلال من هذه الآية على منهج الوسطية أنه أباح لهم بعض مطالب أنفسهم كالزواج والتسري ، وهذا هو الطريق المشروع لإشباع هذه الغريزة ، ولكنه -

---

(١) وأعلى منها لذة النظر إلى وجه الله الكريم ، ولكنه لا يكون إلا لمن دخل الجنة .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٣) .

(٣) سورة المؤمنون آية : ٥ - ٧ .

(٤) سورة المؤمنون آية : ٦ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٩) .

أيضًا - حرّم التعدي والإسراف والإفراط والتفريط ، وذلك بإتيان ما حرم الله من الزنا واللواط ، بل والاستمناء على القول الراجح من أقوال العلماء [١] .

وأختم الكلام في هذا المبحث بما قاله سيد قطب أثناء تفسيره لقوله – تعـالى - :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ﴾ [٢] (آل عمران : ١٤) حيث قال :

في الآية واحدة يجمع السياق القرآني أحبّ شهوات الأرض إلى نفس الإنسان : النساء والبنين والأموال المكدسة والخيل والأرض المخصبة والأنعام ، وهي خلاصة للرغائب الأرضية ، إما بذاتا ، وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابا من لذائذ أخرى .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ [٣] (آل عمران : من الآية ١٤) فهي شهوات مستحبة مستلذة ، وليست مستقذرة ولا كريهة ، والتعبير لا يدعو إلى استقذارها وكراهيتها ، إنما يدعو فقط إلى معرفة طبيعتها وبواعثها ، ووضعها في مكانا لا تتعداه ، ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى .

وهنا يمتاز **الإسلام** بمراعاته **للفطرة البشريّة ،** وقبوله بواقعها ، ومحاولة تذيبها ورفعها ، لا كبتها وقمعها ، إننا نرى الإسلام قد ضمن سلامة الكائن الإنساني من الصراع بين شطري النفس البشرية ، بين نوازع الشهوة واللذة ، وأشواق الارتفاع والتسامي ، وحقق لهذه وتلك نشاطها المستمر في حدود التوسط والاعتدال [٤] .

هذه هي الوسطية التي رسمها القرآن الكريم فيما يتعلق بمطالب النفس وشهواتا .

وهو بذا يمثل **الواقعية والحكمة ،** ويوازن بين نوازع النفس البشرية وحقائق العبودية وتكاليفها .

---

[١] انظر : تفصيل ذلك في تفسير القرطبي (١٢/ ١٠٥) .

[٢] سورة آل عمران آية : ١٤ .

[٣] سورة آل عمران آية : ١٤ .

[٤] انظر : في ظلال القرآن (١/ ٣٧٣) .

شواهد متفرقة تؤكد منهج الوسطية في القرآن الكريم

عاشرًا : شواهد أخرى

وبعد أن ذكرت الآيات التي جاءت تقرّر منهج الوسطية في إطار الأبواب الماضية ، فإن هناك آيات أخرى ليست داخلة في أي باب من الأبواب السابقة دخولا مباشرًا . وهي تدلّ دلالة واضحة على هذا المنهج وتؤكده [(١)] .

ولذلك سأذكر بعض هذه الآيات دون استطراد في التفسير أو التعليق ، وإنما سأكتفي بذكر الآية مع الإشارة إلى وجه الدلالة ، وذكر قول لأحد المفسرين أو قولين ، بما يؤدي الغرض ويحققه .

١- قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [(٢)] (الإسراء : من الآية ٩) .

قال ابن كثير : يمدح الله - تعالى - كتابه العزيز الذي أنـزله على رسوله محمد ، ﷺ وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق ، وأوضح السبل [(٣)] .

وقال القرطبي : ومعنى ﴿ لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [(٤)] (الإسراء : من الآية ٩) أي الطريقة التي هي أسدّ وأعدل وأصوب [(٥)] .

وبذا التفسير فإن الوسطية داخلة في هذه الهداية من باب أولى ، لأنا متضمّنة للعدل والاستقامة .

٢- قال - تعالى - : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا

---

(١) قد ترد آيات يبدو منها لأول وهلة دخولها تحت باب من الأبواب السابقة ، ولكن عند التأمل سنجد أن هناك فرقًا في وجه الدلالة آثرت معه إفرادها هنا ، مع وجود شيء من الاشتراك هناك .

(٢) سورة الإسراء آية : ٩ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦) .

(٤) سورة الإسراء آية : ٩ .

(٥) انظر : تفسير القرطبي (١٠/ ٢٢٥) .

﴿مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [١] (المعارج : ١٩- ٢٢) .

قال القرطبي : الهلع في اللغة : أشد الحرص ، وأسوأ الجزع وأفحشه .

والمعنى : أنه لا يصبر على خير ولا شرّ حتى يفعل فيهما ما لا ينبغي .

والمنوع : هو الذي أصاب المال منع منه حق الله - تعالى - .

وقال أبو عبيدة : الهلوع : هو الذي إذا مسّه الخير لم يشكر ، وإذا مسه الضرّ لم يصبر [٢] .

٣- قال - تعالى - : ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [٣] (عبس : ٥-١٠) .

قال ابن كثير مبينًا دلالتها على الوسطية :

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ [٤] (عبس : ٥ ، ٦) أي : أمّا الغني فأنت تعرض له لعله يهتدي ، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ [٥] (عبس : ٧) أي : بمطالب منه إذا لم يحصل له زكاة - وهي الهداية - .

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ [٦] (عبس : ٨ ، ٩) أي : يقصدك ويؤمك ، ليهتدي بما تقول له ، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [٧] (عبس : ١٠) أي : تتشاغل .

ومن هنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ ألا يخصّ بالإنذار أحدًا ، بل يساوي فيه بين

---

[١] سورة المعارج آية : ١٩ - ٢٢ .

[٢] انظر : تفسير القرطبي (١٨/ ٢٩٠) .

[٣] سورة عبس آية : ٥ - ١٠ .

[٤] سورة عبس آية : ٦ .

[٥] سورة عبس آية : ٧ .

[٦] سورة عبس آية : ٨ ، ٩ .

[٧] سورة عبس آية : ١٠ .

الشريف والضعيف ، والفقير والغني ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار ، ثم الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة [1] .

٤- قال - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [2] (الفجر : ١٥ ، ١٦) .

وهذا الأمر فيه إفراط وتفريط ، قال ابن كثير مبينًا ذلك ، وموضحًا طريق الاستقامة في ذلك .

يقول - تعالى - منكرًا على الإنسان في اعتقاده إذا وسّع الله عليه في الرزق ليختبره في ذلك ، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له ، وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان ، كما قال -تعالى- : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [3] (المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦) .

وكذلك في الجانب الآخر ، إذا ابتلاه وامتحنه وضيّق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له .

(كلا) أي ليس الأمر كما زعم ، لا في هذا ، ولا في هذا ، فإن الله تعالى يعطي المال من يحبّ ومن لا يحبّ ، ويضيق على من يحب ومن لا يحبّ ، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين ، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك ، وإذا كان فقيرًا بأن يصبر [4] .

٥- قال - تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ [5] (الحجرات : من الآية ٦) .

---

[1] انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧٠) .
[2] سورة الفجر آية : ١٦ .
[3] سورة المؤمنون آية : ٥٥ ، ٥٦ .
[4] انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٩) .
[5] سورة الحجرات آية : ٦ .

والموقف من الخبر إذا جاء من الفاسق إمّا قبوله مطلقًا ، وهذا إفراط ، أو ردّه مطلقًا ، وهذا تفريط ، فقد يصدق خبره ، وإما التثبت والتبين ، وهذا هو الوسط وهو المشروع .

قال القرطبي : في الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلا ، لأنه إنما أمر فيها بالتثبيت عند نقل خبر الفاسق ، ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعًا ، لأن الخبر أمانة ، والفسق قرينة يبطلها ، وقد استثنى الإجماع من ذلك ما يتعلق بالدعوى والجحود ، وإثبات حق مقصود على الغير [1] .

وقال ابن كثير : يأمر - تعالى - بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له ، لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذبًا أو مخطئًا [2] .

٦- قال - تعالى - : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ﴾ [3] (لقمان : ١٤ ، ١٥) والأمر يدورعلى ثلاثة أوجه :

إما الطاعة وحسن الصحبة والإحسان ، وإما البراء منهما مطلقًا فلا طاعة ولا صحبة ولا إحسان ، وإما التوسط ، وهو عدم الطاعة في معصية الله ، مع الإحسان إليهما ، وحسن الصحبة ، وهذا هو الوسط وهو المشروع .

وقريب من هذا المعنى ما جاء في سورة الممتحنة ، قال - سبحانه - : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ

---

[1] انظر : تفسير القرطبي (١٦/ ٣١٢) .
[2] انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٣٠٨) .
[3] سورة لقمان آية : ١٤ ، ١٥ .

وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [1] (الممتحنة : ٨ : ٩) والدلالة في الآية واضحة جلية .

٧- ومشاقة الله ورسوله خروج عن منهج الوسطية ، ولذلك جاء ذمها في القرآن في أكثر من موضع ، قال - سبحانه - : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾ [2] (الأنفال : ١٣) . وقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾ [3] (الحشر : ٤) .

قال سيد قطب في **تفسيره للآية الثانية :** والمشاقة أن يأخذوا لهم شقًا غير شق الله ، وجانبًا غير جانبه ، وقد جعل الله جانبه هو جانب رسوله ، ﷺ حين وصف علّة استحقاقهم للعذاب في صدر الآية ، فاكتفى في عجزها بمشاقة الله وحده ، فهي تشمل مشاقة الرسول وتتضمنها .

ثم ليقف المشاقّون في ناحية أمام الله - سبحانه - وهو موقف فيه تبجّح قبيح ، حين يقف المخاليق في وجه الخالق يُشاقّونه [4] .

٨- قال - تعالى - : ﴿ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ ﴾ [5] (الشورى : ٢٧) .

قال الطبري : ولو بسط الله الرزق لعباده ، فوسّعه وكثّره عندهم لبغوا ، فتجاوزوا الحدّ الذي حدّه الله لهم إلى غير ذلك الذي حدّه لهم في بلاده بركوبهم في الأرض ما حظره عليهم ، ولكنه ينـزّل رزقهم بقدر لكفايتهم الذي يشاء منه [6] .

---

(١) سورة الممتحنة آية : ٨ ، ٩ .
(٢) سورة الأنفال آية : ١٣ .
(٣) سورة الحشر آية : ٤ .
(٤) انظر : في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٢٢) .
(٥) سورة الشورى آية : ٢٧ .
(٦) انظر : تفسير الطبري (٢٥/ ٣٠) .

وقال ابن كثير : أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان ، من بعضهم على بعض أشرًا وبطرًا .

وقال قتادة : كان يقال : خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك [1] .

ودلالة هذه الآية : أن وسطية الرزق تؤدي إلى وسطية العمل والعبادة ، والإفراط يؤدي إلى الإفراط والتفريط ، فأصبحت وسطية الرزق مانعة من الطغيان والبغي .

٩- ومما يُدلّ على ذمّ الإفراط والتفريط قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [2] (الروم : ٣٦) .

ومثل هذا المعنى قوله - تعالى - عن المنافقين .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [3] (التوبة : ٥٨) ثم يبين لهم المنهج الحق الذي يجب أن يسلكوه :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [4] (التوبة : ٥٩) .

قال القاسمي في الآية الأولى : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً ﴾ [5] (الروم : من الآية ٣٦) أي : نعمة من صحة وسعة ﴿ فَرِحُواْ بِهَا ۖ ﴾ [6] (الروم : من الآية ٣٦) أي : بطرًا وفخرًا ، لا حمدًا وشكرًا .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ١١٥) .
(٢) سورة الروم آية : ٣٦ .
(٣) سورة التوبة آية : ٥٨ .
(٤) سورة التوبة آية : ٥٩ .
(٥) سورة الروم آية : ٣٦ .
(٦) سورة الروم آية : ٣٦ .

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ ﴾ [1] (الروم : من الآية ٣٦) أي : شدّة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [2] (الـروم : من الآية ٣٦) أي : من المعـاصي والآثـام : ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦ ﴾ [3] (الروم : من الآية ٣٦) أي : ييأسون من روح الله .

قال : هذا إنكار على الإنسان من حيث هو ، إلا من عصمه الله ووفقّه ، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال : ﴿ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ ﴾ [4] (هود : من الآية ١٠) أي يفرح في نفسه ، ويفخر على غيره .

وإذا أصابته شدّة قنط وأيس أن يحصل بعد ذلك خير بالكلية ، ثم بين المنهج الوسط .

قال الله - تعالى - : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [5] (هود : من الآية ١١) أي : صبروا في الضراء ، وعملوا الصالحات في الرّخاء ، كما ثبت في الصحيح : « عجبًا للمؤمن ، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرًا له » [6] [7] .

وأشير إلى الآية التي وردت قبل هذه الآية ، وهي تدل على فساد مسلك من خرج عن منهج الاستقامة ، وانحراف يُمنة ويُسرة ، قال - سبحانه - : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٣٣ ﴾ [8] (الروم : ٣٣) .

---

[1] سورة الروم آية : ٣٦ .
[2] سورة الروم آية : ٣٦ .
[3] سورة الروم آية : ٣٦ .
[4] سورة هود آية : ١٠ .
[5] سورة هود آية : ١١ .
[6] مسلم الزهد والرقائق (٢٩٩٩) ، أحمد (٦/١٦) ، الدارمي الرقاق (٢٧٧٧) .
[7] انظر : تفسير القاسمي ص (٤٧٨٠) . والحديث أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٩٥) . رقم (٢٩٩٩) .
[8] سورة الروم آية : ٣٣ .

١٠- وانظر نتيجة الخروج عن منهج الوسطية والاعتدال وشكر النعمة فيما قصه الله علينا في هذه الآيات : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [(١)] (سـبأ: ١٨، ١٩).

قال ابن كثير : وذلك أنهم بطروا هذه النعمة ، وأحبّوا مفاوز ومهامة يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تُنبت الأرض ، من بقلها وقثّائها وفُومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد ، في منّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب ، وملابس مرتفعة ، ولهذا قال لهم : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ﴾ [(٢)] (البقرة : من الآية ٦١) .

وقال ﷻ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ ﴾ [(٣)] (القصص : من الآية ٥٨) .

وانظر ماذا كانت النتيجة : ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ ﴾ [(٤)] (سـبأ : من الآية ١٩) قال ابن كثير : أي جعلناهم حديثًا للناس . وسمرًا يتحدثون به من خيرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء ، تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا ، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : تفرقوا أيدي سبأ ، وأيادي سبأ ، وتفرقوا شذر مذر [(٥)] .

أمّا بنو إسرائيل فكان أمرهم كما أخبر الله : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو

---

(١) سورة سبأ آية : ١٨ ، ١٩ .
(٢) سورة البقرة آية : ٦١ .
(٣) سورة القصص آية : ٥٨ .
(٤) سورة سبأ آية : ١٩ .
(٥) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٣) .

بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [1] (البقرة : من الآية ٦١) .

١١- الطغيان خروج عن الاستقامة ، بل هو مضاد لها ومباين ، ولذلك جاءت الآيات تذمّ الطغاة وتنهى عن الطغيان ، وتأمر بالاستقامة :

قال - تعالى - ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ [2] (هود : من الآية ١١٢) .

وقال عن فرعون : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [3] (طـه : ٤٣) . وقـال : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [4] (النازعـات : ٣٧-٣٩) .

وقال : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [5] (الشورى : من الآية ١٥) .

وقال : ﴿ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [6] (الجـن : ١٦) .

ومن ترك الطغيان واستقام فقد التزم منهج الوسط والاعتدال ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [7] (البقرة : من الآية ١٤٣) .

وإلى هنا نصل إلى نهاية بيان القرآن لمنهج الوسطية ، وتقريره لذلك والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

---

[1] سورة البقرة آية : ٦١ .
[2] سورة هود آية : ١١٢ .
[3] سورة طه آية : ٤٣ .
[4] سورة النازعات آية : ٣٧ - ٣٩ .
[5] سورة الشورى آية : ١٥ .
[6] سورة الجن آية : ١٦ .
[7] سورة البقرة آية : ١٤٣ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات ، وأشكره شكرًا عظيمًا على ما أولاه من فضل وعون وتوفيق ، وأصلي وأسلم على نبينا محمد ، وآله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فقد ذكرت في مقدمة هذه الرسالة أن البحث جاء يُعالج قضية الوسطية من حيث جهل كثير من الناس بها ، وما ترّتب على ذلك من إفراط وتفريط .

ولذا فإّني أجد من المناسب أن ألخص ما توصلت إليه في هذه الرسالة فيما يلي :

١- ذكرت تعريفات العلماء لكلمة (وسط) ، وخلاصة ما ذكروا ما عّبر عنه محمد باكريم ، حيث قال :

وكيفما تصّرفت هذه اللفظة نجدها لا يخرج معناها عن معاني : العدل والفضل والخيرية ، والنصف والبينية والتوسط بين الطرفين .

وذكرت - أيضًا - ما ذكره فريد عبد القادر ، حيث قال : استقرّ عند العرب أنهم إذا أطلقوا كلمة (وسط) أرادوا معاني الخير والعدل والنصفة والجودة والرفعة والمكانة العلّية .

وختمت ما قيل في معنى (الوسط) بما ذكره ابن عاشور وملخّصه :

والوسط اسم للمكان الواقع بين أمكنة تُحيط به ، أو للشيء الواقع بين أشياء مُحيطة به ، ليس هو إلى بعضها أقرب منه إلى بعض عُرفًا ، ولما كان الوصول إليه لا يقع إلا بعد اختراق ما يحيط به أخذ فيه معنى الصيانة والعزة .

فمن أجل ذلك صار معنى النفاسة والعزة والخيار من لوازم معنى الوسط عرفًا ، فأطلقوه على الخيار النفيس كناية . أمّا إطلاق الوسط على الصفة الواقعة عدلا بين خلقين ذميمين فيهما إفراط وتفريط ، فذلك مجاز .

وقد شاع هذان الإطلاقان حتى صارا حقيقتين عرفيتين .

٢- ذكرت ورود كلمة (وسط) في القرآن الكريم بعدّة تصاريف ، حيث وردت خمس مرات ، في البقرة بلفظ : " وسطًا " و " الوُسْطى " .

وفي المائدة بلفظ : " أَوْسَط " .

وفي القلم بلفظ : " أَوْسَطُهم " .

وفي العاديات بلفظ : " فَوَسَطْن " .

وبينت مدلول كل كلمة في ضوء أقوال المفسرين ، وكذلك ذكرت مدى دلالة كل لفظة على معنى الوسطية .

٣- استشهدت ببعض الأحاديث التي وردت وفيها لفظ (وسط) .

قد ذكرت (١٢) حديثًا شرحت فيها معنى كل لفظة ، وهل هي من الوسط أو الوسطية ؟

٤- وفي ختام تعريف الوسطية حررت معناها ، وبينت المراد من هذا المصطلح عند إطلاقه ، وكان مما قلت :

وقد تأملت ما ورد في القرآن والسنة والمأثور من كلام العرب فيما أطلق وأريد به مصطلح (الوسطية) ، فتوصلت إلى أن هذا المصطلح لا يصح إطلاقه إلا إذا توافر فيه صفتان :

(أ) الخيرية أو ما يدل عليها .

(ب) البينية ، سواء كانت حسية أو معنوية . فإذا جاء أحد الوصفين دون الآخر فلا يكون داخلا في مصطلح الوسطية .

٥- هناك أسس لابد منها لفهم الوسطية ، وتلك الأسس مطردة مع وصفي الخيرية والبينية ، وهي :

(أ) الغلو والإفراط .

(ب) الجفا والتفريط .

(ج) الصراط المستقيم فالصراط المستقيم يمثل الخيرية ويحقق معناها ، وهو وسط بين الغلو والجفاء ، وهو كذلك وسط بين الإفراط والتفريط .

وقد وقفت مع هذه الأسس الثلاثة مبيِّنًا وشارحًا ، ثم توصلت إلى عدة حقائق أهمها :

أن الصراط المستقيم يمثل قمة الوسطية ، وذروة سنامها ، وأعلى درجاتا .

أنه يجب عند النظر في أي أمر من الأمور لتحديد علاقته بالوسطية ، ومدى قربه أو بعده منها دقة النظر والاعتبار في حقيقة الأمر دون الاقتصار على ظاهره فقط ، ثم إلى أي هذه الأسس هو أقرب ، مراعاة في ذلك عدة أمور أشرت إليها في ذلك المبحث .

فإذا اتضح قربه في حقيقته ومآله إلى الصراط المستقيم فهو داخل في الوسطية ، أما إذا كان إلى الإفراط والتفريط أقرب حقيقة ومآلا ، فليس من الوسطية في شيء ، وإن حسبه الناس كذلك .

٦- للوسطية ملامح وسمات تحف با وتميزها عن غيرها ، بمجموع تلك الملامح لا بآحادها .

وقد توصّلت إلى تحديد أهم تلك السمات والملامح باستقراء القرآن الكريم ، وما ورد في وسطية هذه الأمة بين الأمم ، وكذلك ما كتبه بعض الباحثين في ضوء الكتاب والسنة .

إن تحديد تلك الملامح مهمة أساسية ، حتى لا تكون الوسطية مجالا لأصحاب الأهواء وأرباب الشهوات .

وقد توصلت إلى أن أهم سمات الوسطية ما يلي :

١- الخيرية .

٢- الاستقامة .

٣- اليسر ورفع الحرج .

٤- البينية .

٥- العدل والحكمة . وكل سمة من هذه السمات يندرج تحتها بعض آحادها . وأشرت إلى أن هذه الملامح تصلح ضابطًا لتحديد الوسطية ومعرفتها ، بما يجيب على السؤال الذي يرد في الأذهان .

أين ضابط الوسطية ؟ وكيف نميزها عن غيرها ؟

٧- نـزل القرآن الكريم هداية للناس ونورًا ، يخرج الله به من شاء من الظلمات إلى النور ، ولزوم منهج الوسطية عين الهداية وجوهرها ، ولذلك فقد جاءت الآيات مستفيضة ترسم منهج الوسطية وتدل عليه . والوسطية ليست محصورة في جزئية من الجزئيات ، بل ولا في ركن واحد من الأركان ، وإنما هي منهج شامل متكامل ، لا ينفصل بعضه عن بعض ، فالإسلام كله وسط ، وهذه الأمة أمة الوسط . (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) (البقرة : من الآية١٤٣) .

والذين يغفلون عن هذه الحقيقة يغفلون عن حقيقة القرآن وهداياته .

ومن هذا المنطلق بينت - بالتفصيل - تقرير القرآن لمنهج الوسطية في أبواب كثيرة ، أجملها فيما يلي :

١- الاعتقاد .

٢- التشريع والتكليف .

٣- العبادة .

٤- الشهادة والحكم .

٥- الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

٦- الجهاد في سبيل الله .

٧- المعاملة والأخلاق .

٨- كسب المال وإنفاقه .

٩- مطالب النفس وشهواتا .

وختمت هذه الأبواب بباب ضمنته شواهد متفرقة ، تدل على منهج الوسطية وتأمر به . هذا بالإضافة إلى ما ذكرته في أول هذا المبحث من دلالة سورة الفاتحة على هذا المنهج في عدة آيات منها .

ومن خلال هذه الأبواب اتضح لنا أن الوسطية منهج حياة وتشريع متكامل ، لا يقبل التجزئة والتفريق ، وأن أدلة الوسطية ليست هي التي ورد فيها لفظ (الوسط) فقط ، بل أعم من ذلك وأشمل ، والآيات التي جاءت تدل دلالة صريحة على منهج الوسطية تربو على العشرات ، إذ هي في عداد المئات .

٨- وبعد بيان موجز للمسائل العلمية التي توصلت إليها في هذا البحث ، أذكر أهم النتائج العملية التي نخرج با من هذه الدراسة العلمية .

(أ) أن أهم أسباب نشوء جماعات الغلو بين المنتسبين إلى الدعوة في هذا العصر هو الجهل بحقيقة الوسطية ، بل الجهل بمكانتها في الإسلام .

(ب) وكذلك أجد من الأسباب الرئيسية لقبول ما يطلقه الأعداء على الدعاة الصادقين من ألقاب وأوصاف : كالتطرف والغلو ، والتزمت والتشدد ، ونحوها ، من أبرز أسباب قبولها ورواجها بين الناس لسببين :

١- الجهل بحقيقة الوسطية الشرعية ، وتصور أولئك العامة أن الوسطية التي أمر الله با تعني التساهل والتنازل واتباع شهوات النفس ورغباتا ، ولهذا تجدهم يستخدمون هذا الفهم مقياسًا لرمي الدعاة بتلك الأوصاف والألقاب .

٢- السبب الثاني وهو أهم من الأول في قوة التأثير : عدم ممارسة الوسطية على وجهها الصحيح من قبل بعض الدعاة والملتزمين ، حيث تجد خللا في تطبيقها أتاح للأعداء فرصة اقتناص بعض الأخطاء والهفوات ، ومن ثم إقناع كثير من الناس بصحة تلك الدعاوى وتلبيس هذه التهم الباطلة .

(ج) وأخلص إلى حقيقة عملية تكون هي المخرج مما نعانيه تجاه موضوع الوسطية ، وتتمثل هذه الحقيقة فيما يلي :

١- بذل الجهود العلمية من قبل العلماء وطلاب العلم في بحث موضوع الوسطية ، واستفراغ الوسع في ذلك ، حيث أرى أن هناك جوانب مهمة لم تعط حقها من البحث والدراسة .

٢- عقد الندوات والمحاضرات لبيان أهمية الموضوع وحقيقته ، وأثره الإيجابي في حياة الناس .

٣- الممارسة العلمية الواقعية لمنهج الوسطية من قبل العلماء وطلاب العلم والدعاة ، مما يتيح للناس أن يروا القدوة الصالحة التي هم في أمس الحاجة إليها .

٤- تربية الأمة على هذا المنهج تربية عملية شاملة ، مما يقضي على الخلل الموجود في محيط المجتمع المسلم سواء أكان إفراطًا أو تفريطًا .

٥- وأخيرًا فإن هناك لبسًا في فهم الوسطية وممارساتها من قبل بعض الجماعات والدعاة ، وهذا اللبس أدى إلى أنهم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا ، فرأينا التنازل مع الأعداء باسم المصلحة ، وضعفًا في حقيقة الولاء والبراء بحجة تأليف القلوب والدعوة إلى الله ، ومصانعة لبعض الظالمين بدعوى دفع الشر والفتنة ، وهكذا .

ولذلك لا بد من تصفية المنهج مما علق به ليكون وفق الكتاب والسنة ، ومنهج سلف الأمة ، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

فهرس الآيات

أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون. **١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤**
أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن **١٧٨**
إذا مسه الشر جزوعا **٢٦٦**
أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي **٢١٥**
أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم **١٢٥**
إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير................................ **٢٧٢**
إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم........................ **٢٢٦**
إلا المصلين.. **٢٦٧**
إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا............ **٢١٣، ٢١٥، ٢١٦**
إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين **٢٦٤**
ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا...................... **١٦٥، ١٦٦**
ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون **٢٢٨**
ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال.......................... **١٢٩، ١٣٠**
ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة .... **٢٠٨، ٢١٠، ٢١١**
ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم......................... **٢٠٦، ٢٠٧**
ألهاكم التكاثر .... **٢٣١، ٢٣٣**
أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا.. **٢٤٥**
أما من استغنى **٢٦٧**
آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته................ **٨١، ١٣٢، ١٤٢**
إن إلى ربك الرجعى.. **٢٣٦**
إن الإنسان خلق هلوعا.. **٢٦٦**
إن الإنسان لربه لكنود.. **٢٣١**
إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا............................ **٢٢٤**
إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا .... **٨٧، ٨٩، ٩٠**
إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون............................ **١٢٥**

إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا **٢٤١**
إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا.......................**٢٢٠، ٢٢١**
إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس..............................**١٨٩**
إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين **١٤١**
إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله................ **٧٨، ١٣٤، ١٣٧**
إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير.........................**١٣٣**
إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون...............................**٢١٩**
إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم.. **٦٥، ١٦٧، ١٦٨**
إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء..............................**١٨٤**
إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس.................................**١٨٤**
إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار..........**٢٥٨، ٢٥٩**
إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا.....................................**٢٤٦**
أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين **٦٠**
أن دعوا للرحمن ولدا... **١٣١**
أن رآه استغنى ....**٢٣٢، ٢٣٦**
إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من ....**١٧٦، ١٧٧**
إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات **٢١٧**
إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه.............**٢٣٢، ٢٣٧**
أن كان ذا مال وبنين..**٢٣٢**
إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا **١٣١**
إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون **١٤٣**
إن مع العسر يسرا ....**٩٧، ١٥٦**
إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات **٢٦٦**
إن هو إلا ذكر للعالمين **١٢٦**
إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا...**٢٥٣**
أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا **٦٢**
إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله **51**
إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم **٢٢٦**

إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ٢٤١
إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم........................٢١٣، ٢١٥
إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم...........................٢٦٩
إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون...٢٢٦
أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا...١٧٦
أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل ١٤٤
أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء ١٤٠
أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن ....١٤٠، ١٤٥
أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب...٢٦٣
أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا.....................................١٣٩
أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين...٢٦٨
اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما ....٣٦، ٣٧، ٤٦، ١٣٣
ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن.................٢٠١، ٢٠٢
ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون...٢٢٦
اذهبا إلى فرعون إنه طغى..١٩٩، ٢٧٤
ارجعوا إلى أبيكم فقولوا ياأبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما ٢٨
اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ١٤١
اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر ٢٣٣
الحمد لله رب العالمين ١٣١
الذي جمع مالا وعدده..٢٣١، ٢٣٤
الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون..٢٢٨
الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم ٢١٨
الذين هم عن صلاتهم ساهون ١٧٣
الذين هم يراءون ١٧٣
الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان..................٢٣٩، ٢٤٠
الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني...............................٢٤٤
الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة............ ١٤٣، ١٤٨، ١٥٠
الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله.......................٢٢٠، ٢٢١

الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق **٢٢٧**
الرحمن الرحيم.. **١٣١**
الله الصمد **١٣٣**
الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في............................... **٧**
الم... **٢٩**
المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ....**٢٣٨، ٢٣٩**
المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ....**١٩٥، ١٩٦**
اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم **١٦٠**
انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم **٢١٧**
اهدنا الصراط المستقيم ....**٦٥، ٦٧، ٦٨، ٧٢، ١٢٢، ١٦٩**
بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل **١٣١**
تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم **٢١٨**
تبت يدا أبي لهب وتب **٢٣٢**
تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون................**٦١، ٦٣**
تصلى نارا حامية **١٦٤**
تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا................................ **١٣١**
تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا.......................**٢٣٣**
ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر **٢٣٨**
ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل.**٤٦، ٤٨، ١٦٤، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢**
ثم كلا سوف تعلمون **٢٣١**
حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين .... **١٣، ١٩، ٢١**
حتى زرتم المقابر **٢٣١**
خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون **٢٢٤**
خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون.....................**٢٢٤**
خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين **٢٢٥**
ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ....**١٧٣، ٢٥٨**
ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا ....**١٤٠، ١٤٢**

ذلك بأنم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب **٢٧٠**

ذلك بأنم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد **٢٧٠**

زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من .... **٢٣٩، ٢٥٣، ٢٦٥**

سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين **٧٥**

سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى **١٤٣**

سيصلى نارا ذات لهب **٢٣٢**

سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل .... **٣٧، ٦٥، ٧٢، ١٢٤**

سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا **٢٣١**

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان. **٩٦، ١٠٨، ١٠٩، ١٤٧، ١٥٦، ١٥٧**

صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .... **٦٥، ٧٢، ١٢٣، ١٦٤**

ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس **٢٢٤**

عاملة ناصبة **١٦٤**

عتل بعد ذلك زنيم **٢٣٢**

غلبت الروم **٢٩**

فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي **٢٢٧**

فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا فمن **٢٥٨**

فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا **٢٠١**

فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل **٢٥٢**

فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمني.................................. **٢٦٨**

فأما من طغى.. **٢٧٤**

فإن الجحيم هي المأوى **٢٧٤**

فإن الجنة هي المأوى.. **١٧٣**

فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي........................ **٢١٢**

فإن مع العسر يسرا.. **٩٧، ١٥٦**

فأنت عنه تلهى.. **٢٦٧**

فأنت له تصدى **٢٦٧**

فأوحى إلى عبده ما أوحى **١٤٣**

فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن.............................**١٧٦**
فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين.................................**٢٢١**
فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير............ **٨٦، ١٢٤، ٢٧٤**
فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم.......................................**١٢٥**
فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا.....................**١٣٣**
فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل.............**١٥٠، ٢٤١**
فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك.....................**٢٢٥**
فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن .... **١٣٥، ١٣٩، ٢٢٣**
فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا **٢٣٢**
فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله...........................**٢٣٣**
فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا.. **١٧٢، ٢٥٨، ٢٦٠**
فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم.................**٢١٢، ٢١٤**
فقال أنا ربكم الأعلى **١٢٧**
فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم **٢٧٣**
فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى.................................. **١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١**
فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة.............................**٢**
فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم **٢١٩**
فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل..... **٨٦، ١٢٤، ١٨٥، ٢٧٤**
فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون..**٢٤٤**
فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد..................................**٥٨**
فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم.....................**١٨٣، ١٨٤**
فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس.......................**٢٠٧**
فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان.............................**٢٥٣**
فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون **٢٦٤**
فوسطن به جمعا .... **١٣، ٢٦، ٢٧**
فويل للمصلين..**١٧٣**
في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون **٢٩**

في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ٢٩
قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم ٢١٨
قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج ٢٢٨
قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون .... ١٣، ١٦، ٢٣، ٢٥، ٢٦
قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم .... ٦٥، ٧١، ١٢٥
قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني .... ٢٠٠، ٢٠١
قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من ١٨٣
قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا..................... ١٩٢، ١٩٤
قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى .... ٥٤، ٥٥
قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء............................ ١٤٤
قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنا بقرة لا فارض............................... ٢٣٠
قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك ٢٣٠
قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتم الساعة بغتة قالوا.................................. ٥٧
قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانم هلم إلينا ولا يأتون................................ ٢١٦
قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع ١٦٥
قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ١٦٥
قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له .... ٣٩، ١٨٤
قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها............. ٢١٢
قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا.................................. ٨٧
قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا ١٤٤
قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير .... ٢٥٥، ٢٥٦
قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا........... ٦٦، ٧١، ١٢٤
قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى.......... ١٣٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧
قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى......................... ٦٦
قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني.................... ١٤٣
قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان................. ٢٤٤، ٢٤٥
قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي........... ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧
قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين ١٣٢

قل هو الله أحد...**١٣٣**
قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا........................**١٦٧، ١٦٨**
قل ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم.......................**٤٦، ١٤٥**
قم الليل إلا قليلا...**١٧٦**
قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل...................................**١٣٢، ١٤٢**
كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم..............................**١٧**
كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.........................**٧٨، ١٨٩، ١٩٠**
كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون.....................................**١٩٢، ١٩٤، ٢١٠**
كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين.................**٢٣٥**
كلا إن الإنسان ليطغى...**٢٣٢، ٢٣٦**
كلا سوف تعلمون...**٢٣١**
كلا لينبذن في الحطمة...**٢٣٢، ٢٣٤**
كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل...........................**٥٠**
كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون.. **٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ١٨٨، ٢٣٠**
لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض................................**٢٠٠**
لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة..........................**١٥٨**
لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان **١٣، ٢٣، ٢٤، ٢٩، ٣٩، ١٥٨، ١٥٩**
لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم...........................**١٥٨**
لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا................................**٢٢٩**
لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم...............................**٢١٣، ٢١٧**
لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل.........................**٢١٩**
لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا..... **٩٨، ٩٩، ١٤٧، ١٤٨، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣**
لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم.........................**٢٦٩**
لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا.....................................**١٤٣**
لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك.........................**٨٢، ١٨٩**

لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول.......................... **١٣٦**
لقد جئتم شيئا إدا.. **١٣١**
لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين **١٠١**
لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما...................... **١٢٨، ١٢٩**
لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد.................... **١٣٠، ١٣٨، ١٤١**
لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من .... **١٣٠، ١٤١**
لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني........................ **١٣٨**
لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل **٢٤٤**
لم يلد ولم يولد **١٣٣**
لمن شاء منكم أن يستقيم **١٢٦**
لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف **١٤٢**
لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس .... **١٨٩، ١٩٠**
ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا **٩٨**
ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن **١٥٤**
ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون........................ **٩٨**
ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل .... **١٩٦، ١٩٧**
لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا........ **٩٧، ١٠٠، ١٥١، ٢٥٠**
ليوم عظيم.. **٢٢٨**
ما أغنى عنه ماله وما كسب.. **٢٣٢، ٢٣٥**
ما أغنى عني ماليه **٢٣٢**
ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا **١٤٣**
ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله............................ **١٤٦**
ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان........................... **١٤٦**
ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا............. **٩٨، ١٥٣**
ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس........................... **٣٧**
نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون.. **٢٦٨**
نصفه أو انقص منه قليلا.. **١٧٦**
هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل.......................... **٢٤٤**

هل أتاك حديث الغاشية... ١٦٤
هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ١٣١
وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا.. ٢٤٦
وآثر الحياة الدنيا... ٢٧٤
وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا ٢٤١
وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه.................... ١٨٩، ١٩١
وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق ١٥٤
وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني ٢٥٣
وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا ١٣٧
وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله ١٣٦
وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة................ ١٦٣، ٢٢٢
وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما .... ١٣٦، ١٤١، ٢٢٣، ٢٧٣
وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم...................... ٢٧١، ٢٧٢
وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو...................... ٢١٤، ٢١٥
وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث......................... ٨٥
وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ٢٢٧
وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون ٣٧
وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون.. ٢٢٨
وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة ٢٧٢
وإذا مسه الخير منوعا ٢٦٦
وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على ١٤٣
وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.............................. ٢٢٧
وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانني.. ٢٦٨
وأما من جاءك يسعى.. ٢٦٧
وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ١٧٣
وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم.............................. ٢٢٦
وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ١٤٦
وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون...................................... ٦٦، ٧١

وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ....**١٦٨، ١٦٩**
وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما **٢٦٩**
وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم **٢١٩**
وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين...............................**١٨٥**
وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين..**١٨٣**
وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا **٢٢٢**
وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا................................ **٨٧، ١٢٦، ٢٧٤**
وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر...............................**٢١٨**
وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ... **٣، ٣٠، ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٧٣، ١٢٤**
وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا...................................**١٢٤**
وإنك لعلى خلق عظيم .... **٢٢٠، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣٠**
وإنه على ذلك لشهيد **٢٣١**
وإنه لحب الخير لشديد... **٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥**
وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على...................................**٢٣٨**
وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا **٢٢٧**
وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد...................................**٢٢٧**
وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن ....**١٦٥، ٢٣٨**
واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين..**٢٢٥**
واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال.........................**١٧٥**
واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار **١٤٢**
واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما **١٨٣**
واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا......................**٥٦، ٥٩**
واعبد ربك حتى يأتيك اليقين **١٦٧**
واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير **٢٢٢**
واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي................................**١٣١**
والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ....**٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠**
والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم......................................**١٣٢**

والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب..............**٩٩، ١٥١**
والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن ....**٦٥، ١٢٥**
والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما...**٢٢٥**
والذين هم لفروجهم حافظون..**٢٦٤**
والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن ....**١٣٩، ١٤٠، ٢٢٣**
والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله **٢٤١**
واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر.............................**٩٧**
والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا.......................**٢٥٨، ٢٥٩**
والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ....**١٠٠، ١٥١**
وتأكلون التراث أكلا لما...**٢٣١**
وتحبون المال حبا جما ....**٢٣١، ٢٣٥**
وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من .. **٩٥، ٩٧، ١٠٨، ١٤٧، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧**
وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها **٢٧٣**
وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه **١٣٣**
وجمع فأوعى **٢٣٤**
وجوه يومئذ خاشعة..**١٦٤**
ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا..............................**٢٣٢، ٢٣٦**
ودوا لو تدهن فيدهنون **٢٢٩**
وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين...................................**١٦٥**
وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه..............**١٢٥**
وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون...........................**٢٢٥**
وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم **١٥٠**
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن...............................**٢١٨**
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان **٢١٨**
وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي ياهامان ....**١٢٧، ١٣٠**
وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له.............................**٢٠٧**
وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب **٢٢١**

وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك .... **١٣٠، ١٣٨، ١٤١**
وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم **٨٠**
وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه **١٢٩**
وقالوا اتخذ الرحمن ولدا **١٣١**
وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له................**١٣١، ١٣٣**
وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.............................**١٦٣، ٢٥٤**
وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل **١٤٤**
وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا....................**٢٣٢، ٢٣٦**
وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم**٥، ٨، ١٢، ١٣، ١٤، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢٨، ٣١، ٣٥، ٣٨، ٦٥، ٧٢، ٧٦، ٧٧، ٩٢، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١٢٠، ١٥٤، ١٧٨، ١٨٨، ٢٣٠، ٢٧٤**
وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم....................**٢٧٣**
وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم **١٢٤**
ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح **٢٧٢**
ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها **٢٣٨**
ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا با إلى الحكام لتأكلوا **٢٤١**
ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما..................**٢٤٨، ٢٤٩**
ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون **٢١٨**
ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك **١٩٧**
ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك **٢٢٦**
ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال........................**٢٢١**
ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله.............................**٢١٢**
ولا تطع كل حلاف مهين **٢٢٩**
ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا .... **١٨٥، ١٨٦، ١٨٧**
ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا...... **١٠٠، ١٥١، ١٨١، ١٨٢، ٢٢٧**
ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونا **٧٧**
ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على........................**٢٣٩**

ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا........................... **٢٢١**
ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون.........................**٩٩، 151**
ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر...**٣٧**
ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل ....**٢٤٤، 245**
ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر **١٦٣**
ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن...**١٣٦**
ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال **١٣٥**
ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول.......................**١٤٤**
ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم..................................**١٦٨**
ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من...............................**١٢٩**
ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن **١٤٠**
ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون...**٢٢٤**
وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين **١٥٨**
ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون **١٣٢**
ولم يكن له كفوا أحد **١٣٤**
ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين..**١٦٣**
ولهديناهم صراطا مستقيما..**٦٥**
ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا **٢٧١**
ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء..................................**٢٧٠**
ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون.............................**٧**
وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين.................................**٢٣٧**
وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في..............................**١٤٤**
وما عليك ألا يزكى...**٢٦٧**
وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات **١٣٣**
وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء **٢١٧**
وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما...................................**٥٧**
وما يغني عنه ماله إذا تردى..**٢٣٢**
وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم...**٢٢٦**

وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا.. **١٣١**
ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون... **٢٨**
ومن آبائهم وذرياتم وإخوانم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم........................ **٦٦، ٧٠**
ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته.............. **١٦٥، ١٦٦**
ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا........................ **١٤٦**
ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم........................... **٢١٣**
ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب......................... **٢٦٣**
ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها **٢٧١**
ونيسرك لليسرى .... **٩٦، ١٥٦**
وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد... **٦٦**
وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون... **٦٦، ٧٠**
وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا ..... **٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨**
وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت **٥٨**
وهو يخشى **٢٦٧**
ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين **٢٦٩**
ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب.. **١٤٠**
ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون **١٣٣**
ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم.................... **٥٨، ٥٩**
ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله **١٣٢**
ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها.................... **٢١٣**
ويل لكل همزة لمزة .... **٢٣١، ٢٣٤**
ويل للمطففين.. **٢٢٨**
ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنارا **٢٣٨**
ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم.................. **٢٢١**
ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ...... **٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠**
يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر..................... **١١٦**
يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون **١٩٦**
ياأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا .... **٦٦، ٧١**

ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما ..**٤٤، ٤٥، ١٤٣، ١٤٥، ١٧٢**
ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم .... **٩٨، ١٥٣، ١٥٥**
ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح **٢٢٨**
ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله................................**١٣٢**
ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما **٢٦٨**
ياأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال **٢٤٢**
ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من.............................. **٢٤٠**
ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما **٢٢٦**
ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ....**٢، ١٧٦**
ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين **٢٤٠**
ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا **٢**
ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان...........................**٢١٩**
ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم ....**٢٠٠، ٢٠٢**
ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم **٢٥٥**
ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم...............**١٧٩، ١٨٠**
ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم...................**١٨٠، ١٨١**
ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون..................................**٢٤٢**
ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله.. **٢٤٠**
ياأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي **١٨١**
ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما **١٣٦**
ياأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون.......................**١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ٢١٠، ٢١١**
ياأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم ....**٢١٣، ٢١٤**
ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم.........................**٢٢٣**
ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم **٢١٨**
ياأيها المزمل **١٧٦**
ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها.......................**٢**
ياأيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان ....**٢٥٥، ٢٦٣**
ياأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله **٢٤١**

ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم ....**٢٠٠، ٢٠٢**
ياأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون **٢١٧**
يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه ....**٢٦١، ٢٦٢**
ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع...........................**185**
ياليتها كانت القاضية..**٢٣٢**
يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم **٢١٨**
يحسب أن ماله أخلده ....**٢٣١، ٢٣٤**
يرسل السماء عليكم مدرارا...**٢٣٨**
يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ....**٩٦، ١٠٩، ١٥٦، ١٥٧**
يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى ....**١٦٣، ٢٣٠**
يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما **٢٤٠**
يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز...........................**٢**
يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم **٢٤٠**
يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين **١٨٤**

فهرس الأحاديث

إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول اتق الله فينا،............................٨٩
أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء، فقلنا يا رسول الله ما هو؟ فقال نصر ٧٩
ألا ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين بين أن يقتل أو يأخذ الدية...............................١٨٦
أما إنه ليس في النوم تفريط ....٥٦، ٦٣
أمة وسطا ١١٤
إن أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة..١٠٢
إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا ١٠١
إن الله تعالى رضي لهذه الأمة اليسير وكره لها العسير ١٠٣
إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا.....................................١٠١
أن النبي، دخل وعندها امرأة قال من هذه؟ قالت فلانة، تذكر من صلاتها، ١٦٢
أن النبي، رأى شيخا يهادي بين ابنيه، فقال ما بال هذا؟ قالوا نذر أن ١٠٦
أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره ٨١
إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره ١٠٣
أن رسول الله، خرج من عندها وهو مسرور ثم رجع إليها وهو كئيب، فقال إني.................١٠٤
أن رسول الله، خط خطا مربعا، وخط وسط الخط المربع، وخطوطا إلى جانب الخط ٣١
أن رسول الله، قرأ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا قال قد قالها ٨٩
إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين ٣١
إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ٤٤
إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا وأبشروا، ٤٨
أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وبيت في وسط ٣٢
إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله ٧٩
أنه قال لما قيل له يا رسول الله أي الأديان أحب إلى الله؟ قال الحنيفية السمحة ١٠٢
أنه كان يجافي عضديه عن جنبيه في السجود...٦١
إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا فلما حوله الله إلى المدينة أمر بالقتال..............................٢٠٩
إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له ١١٧
إني لأقوم إلى الصلاة وأنا أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز ١٠٥
أوسط الجنة أو أعلى الجنة...٣١

إياكم والغلو في الدين .... ٤٤، ١٠٣
أيها الناس إن منكم منفرين، فأيكم أم الناس فليوجز، فإن من ورائه الكبير، ١٠٥
اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك ٢٤٥
استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولن يحافظ على الوضوء ٨٨
افعل ولا حرج ٩٥
اقرأوا القرآن ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به، ولا تجفوا عنه، ولا تغلو فيه ٤٩
اقرءوا القرآن ولا تجفوا عنه... ٦١
البركة تنـزل وسط الطعام، فكلوا من حافتيه، ولا تأكلوا من وسطه ٣١
الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار ٦٢
القصد القصد تبلغوا ٤٨
المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء.. ٢٥٩
بعثت بالحنيفية السمحة.. ١٠٢، ١٥٦
ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان من عبد الله وحده، وعلم أنه لا إله .... ٢٩، ٣٨
جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي، يسألون عن عبادته، فلما أخبروا.......................... ٥١، ١٦١
جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي، يسألونه عن عبادته، فلما أخبروا.......................... ١١٧
حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات ٢٦٠
حيث صلى، ذات ليلة في رمضان فصلى بصلاته ناس، ثم صلى القابلة فكثر الناس، ١٠٤
خذوا عني مناسككم ٩٦
خرج رسول الله، في بعض أسفاره فسار ليلا فمر على رجل جالس عند مقراة................. ١٠٦
خير الأمور أوسطها ١٢
دخل النبي، المسجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين فقال ما هذا الحبل؟ فقالوا .... ٥١، ١٦١
سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله، قالوا ولا أنت يا......................... ٨٨
ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى كنفي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، ٣٠
عجبا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء......................... ٢٧٢
عدولا ١٤
فتعجزوا عنها ١٠٤
فقد جاء رجل إلى رسول الله، فقال إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان ١٠٥
فمن رغب عن سنتي فليس مني... ١١٨

قد فعلت .... ٩٩، ١٤٨
قصة الثلاثة الذين سألوا عن عبادة الرسول، فلما علموا ذلك كأنم تقالوها ١٠٦
قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك؟ قال........................ ٨٨
كان خلقه القرآن.. ٢٢٠
كنا عند النبي، فخط خطا وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع ٧٣
كنا عند النبي، فخط خطا، وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع ٣٠
كنا ننتظر النبي، فخرج يقطر رأسه من وضوء أو غسل فصلى، فلما قضى الصلاة............. ١٠٢
لأن أمشي على جمرة أو سيف أو أخصف نعلي برجلي أحب إلي من أن أمشي على ٣٢
لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا ٢٠٨
لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر ٨٣
لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد .... ٤٨، ١٠٣
لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله......... ١٣٨، ١٤٤
لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه....................... ٨٩
لعن الله من جلس وسط الحلقة ٣٢
لولا أن أشق على أمتي لأمرتم بالسواك عند كل صلاة.. ١٠٤
ليس للنساء وسط الطريق.. ٣٣
من بدا جفا.. ٦٢
من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع........................... ٨٤
نحن الآخرون الأولون ١١٤
نعم بأمثال هؤلاء وإياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين ...... ٤٧، ١٤٨
هلك المتنطعون.. ٤٨، ١٠٣
هلم القط لي الحصى.. ٤٧
ودخل مرة المسجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين فقال ما هذا الحبل؟ فقالوا ١٠٥
وسطوا الإمام وسدوا الخلل.. ٣٢
ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا... ١٥٦
ولكن من وسط أموالكم فإن الله لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشره ١٠
يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستجرينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد......................... ١٤٤
يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين،............ ٤٩

يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب، فيقول هل بلغت؟ فيقول ....**١٤، ٢٨**
يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا...**١٠١**

الفهرس

المقدمـ ـ ـة.. ٢
القضية التي يعالجها البحث ٤
مخطط البحث.. ٥
تعريف الوسطية.. ٨
الوسطية في اللغة.. ٨
استعمالات الكلمة في القرآن الكريم....................................... ١٣
أحاديث نبوية في الوسط ٢٨
تحرير معنى الوسطية.. ٣٣
أسس فهم الوسطية ٤٣
أولا الغلو والإفراط ٤٤
ثانيا التفريط والجفاء.. ٥٦
ثالثا الصراط المستقيم ٦٤
ملامح الوسطية ٧٥
أولا الخيرية ٧٦
ثانيا الاستقامة ٨٦
ثالثا اليسر ورفع الحرج ٩٢
رابعا البينية وأقوال بعض أهل العلم فيها ١٠٩
خامسا العدل والحكمة... ١١٤
دليل تطبيقي لهذه الملامح ١١٧
القرآن يقرر منهج الوسطية... ١٢٠
مقدمة توضيحية ١٢٠
وقفة مع سورة الفاتحة ١٢٢
أولا منهج الوسطية في الاعتقاد... ١٢٦
ثانيا منهج الوسطية في التشريع والتكليف.............................. ١٤٧
ثالثا منهج الوسطية في العبادة() ١٦١
رابعا منهج الوسطية في الشهادة والحكم................................. ١٧٨
خامسا منهج الوسطية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٨٧

سادسا منهج الوسطية في الجهاد في سبيل الله ٢٠٥
سابعا منهج الوسطية في الأخلاق والمعاملة.. ٢٢٠
ثامنا منهج الوسطية في كسب المال وإنفاقه ٢٣٠
تاسعا منهج الوسطية في مطالب النفس وشهواتنا ٢٥٣
شواهد متفرقة تؤكد منهج الوسطية في القرآن الكريم...................................... ٢٦٦
الخاتمة.. ٢٧٥
فهرس الآيات ٢٨١
فهرس الأحاديث... ٢٩٨
الفهرس ٣٠٢